أدب

شارل لوي دي سيكوندا

"مونتسكيو"

الرسائل الفارسيّة



ترجمة

إينانة الصالح

شارل لوي دي سيكوندا "مونتسكيو"



الرسائل الفارسيّة عمل إبداعي إنساني، فهو ليس رواية متعددة الرواة وحسب، بل رمز للفكر التنويري، مما يصعب تصنيفه تحت نوع أدبي أو فكري معين.

قدم مونتسكيو نفسه كأحد رواد عصره في التعبير الحر وإدانة الظلم والحكم المطلق، بتصوير مشهدٍ متكاملٍ تتخلله السخرية عن كل الظواهر المجتمعية والدينية والسياسية في قالب فلسفي محترفاً أدب الرسائل والرحلات، هارباً من فكرة الرقابة عبر نشر روايته في طبعتها الأولى تحت اسم مجهول في أمستردام عام 1721م. تجسد البعد الفني للرواية من خلال دمج الخيال بالواقع بنكهة استشراقية، ما بين الحب والموت، الظلم والتمرد المسروق، الحضور الأنثوي الشرقي الطاغي بتجلياته المختلفة والمظاهر الخادعة الغربية، ما بين الملذات والانغلاق المطلق، مساحة متناقضة للحرية والخضوع، للإغواء والفضيلة، بإطلالات عدة في تفرد سردي مدروس يتوازن فيه التوثيق مع التخييل، يعنونه الثالوث المحرم وتغلفه الفلسفة.

شارل لوي دي سيكوندا

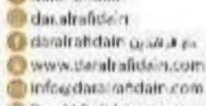
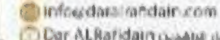
يلقي الكتّاب بظلال من عدم اليقين على قارئه ويجعله جزءاً لا يتجزأ منه، ويحرض العقل الناقد من خلال المفارقات، وهذا ما يجعله انعكاساً لفكرة التنوير المرتكزة على تفعيل دور العقل كما الشغف والفضول والرفض. ، يؤطر مرآة ممتدة للقراء، تعكس شبكة من الانطباعات والهجاء الشرس لكل ما يعيق فرادة الطبيعة البشرية، برحلة نفسية مثلتها رحلة مكانية كوسيلة لمحاربة الجهل وفتح باب التشكيك على مصراعيه، وتفعيل مفهوم النسبية على المستوى الذهني.

كن على ثقة أيها القارئ أنك أمام تحفة فنية حقيقية ستعيش معك بل في داخلك ما حييت.

إخراج وتصميم:



ISBN 978-9-0226718-4-0

darairafidain
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين



الرسائلُ الفارسيّة

الرسائل الفارسيّة

شارل لوي دي سيكوندا

مونتسكيو

ترجمة: إينانة الصالح

العنوان بالفرنسية:

Lettres Persanes

ترجمة عنوان الكتاب بالإنكليزية:

Persian Letters

By Charles Louis de Secondat

Montesquieu

Translated by Einanah Alsaleh

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2023 (1000 نسخة)



بغداد ـــ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520/+9647811005860

www.daralrafidain.com

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain

dar.alrafidain

dar_alrafidain

daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 84 - 0

شارل لوي دي سيكوندا
مونتسكيو

الرسائلُ الفارسيّة

ترجمة
إينانة الصالح



www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدمة المحرر

ظهرت في عام 1721 الطبعة الأولى من الرسائل الفارسية في مجلدين (تمت طباعتهما بتنسيق اثني عشري قديم 12 ـ in) تحت باب أمستردام وكولونيا. لم يذكر اسم المؤلف؛ إن أسماء بائعي الكتب، بيير برونيل من أمستردام، وبيير مارتو من كولونيا، هي أسماء مستعارة. كان هذا اللغز مستخدماً في القرنين السابع والثامن عشر. فالرجل الفرنسي الذي يعبر عن رأيه بحرية فيما يتعلق بالدين وبالحكومة لا يهتم بالتعامل مع الوزراء والبرلمان والسوربون. وبالنسبة إلى الكاتب والطابعة التي ذهب إليها من الباستيل، والحاجة إلى إطلاق سراح مؤلَّفه، كان ذلك خطراً جداً،[1] فضلًا عن ذلك فقد خفت الصرامة القديمة في ظل الوصاية، وأصبحتِ الأعراف أكثر تسامحاً من القوانين. وما دام أن المؤلف قد نشر عمله في الخارج ولم يكشف عن اسمه لفضول الجمهور، فيمكنه أن يتلقى ـ ومن دون عقاب ـ تحيات أولئك الذين كانوا سيلقون به في زنزانة، لو امتلك جرأة طباعة ما نشره في باريس في أمستردام.

---

(1) لنشر كتاب، كان على المرء أن يختبئ كمجرم. أرسل مونتسكيو مخطوطته إلى هولندا عن طريق سكرتيرته، أبوت دوفال، والتي، كما يخبرنا جواسكو المخلص، كلفت المؤلف الكثير من النفقات من دون أي ربح (رسائل مونتسكيو المألوفة/ العائلية، الرسالة الثانية). وفي وقت لاحق، كان السيد ساراسين، المقيم في جنيف في باريس، هو الذي جلب خلسة إلى باريلوت مخطوطة «روح الشرائع».

حققت الرسائل الفارسية نجاحاً كبيراً. أُصدِرَت ثلاث أو أربع طبعات في نفس العام.[1] هل يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك؟ كل شيء كان لاذعاً في هذا المنشور: اسم المؤلف وشكل الكتاب وغلافه.

إنَّ المؤلف، الذي نكرر اسمه في آذاننا، لم يكن سوى رئيس صناع هاون في برلمان بوردو، وهو قاضٍ جاد، ولم يكن معروفاً خارج مهنته، إلا من خلال ميله إلى العلوم الطبيعية. من المتصور أن نتخيل عدم رغبته في تعريض شخصه بلا داعٍ لخبث جماهيري، كان لديه شرف اللباس لحصانته. لكنه حرص على السماح لنفسه بالتخمين في مقدمة كتابه. كَتَبَ: إنْ تعرَّفَ أحدٌ اسمي منذ تلك اللحظة عليّ أن ألتزم الصمت... ويكفي ما يتلقاه العمل من نقد لعيوبه من دون أن أتعرض للانتقادات الخاصة بشخصيتي. وإذا عرف امرؤ من أكون، فسوف يقول: «إن كتابه يتعارض مع شخصيته، وينبغي أن يستغل وقته بشيء أفضل، لا يفوت النقاد هذا النوع من التفكير أبداً، فبإمكان أي شخص التصريح به من دون أن يجرب عقله كثيراً».

كانت الصيغة الجديدة آنذاك تحتاج إلى تفويض، فلم نعتد بعد خيال الأجانب هذا، فإننا نحكم على فرنسا وفقاً لأفكار أو تحيزات البلد. في ظل هذا التناقض في الأخلاق والآراء، هناك دوماً شيء لافت للنظر، العيب الوحيد في هذه الحكاية البارعة هو أنها استُخدمت كثيراً.

قال ڤولتير بأن التوأمة السيامية بين المرح الجاد والكوميدي لدوفريسني ألهم مونتسكيو. أنا أشك في ذلك، لأن سيامي دوفريسني

---

(1) هناك طبعتان من أمستردام، 1721، بقلم بيير بونيل، واحدة مع الكرة والأخرى مع المضلع ذي الجوانب التسعة، حيث نقشت ثلاثة مثلثات. يوجد واحد أو اثنان تحت عنوان كولونيا، 1721، في بيير مارتو.

هو شخصية تقليدية لا تمتلك كياناً أو أفكاراً خاصة بها. إنه، كما يقول المؤلف نفسه، مجرد مسافر، إنه موجود هناك فقط ليحل محل دوفريسني، ولم يَدَعه يتكلم بمُفرده على امتداد كتابه. هنا مقطع من هذا الهجاء الباريسي المنسي الآن على الرغم من أنه لم يفتقد الروح، سنرى المسافة الموجودة بين إنشاء مونتسكيو وتلك الخاصة بنموذجه المزعوم.

«إن باريس عالم كامل، نكتشف كل يوم المزيد من البلدان الجديدة، وهو من التفرد المدهش مقارنةً ببقية الأرض. يميز المرء، بين الباريسيين وحدهم، العديد من الدول والأخلاق والعادات المختلفة، حتى إن السكان لا يدركون نصفهم.

تخيل كم من الأشياء الجديدة المدهشة التي سيجدها السيامي هناك، وبالنسبة إليه أي مرح سيغمره عندما يفحص بعيون مسافر كل خصائص هذه المدينة العظيمة؟ أريد أن أجعل هذا السيامي يسافر معي؛ لا شك بأن أفكاره الغريبة والمجازية ستزودني بالتنوع وربما بالمتعة.

لذلك سوف آخذ عبقرية مسافر سيامي، لم يكن ليرى شيئاً مشابهاً لما يحدث في باريس، سنرى قليلاً كيف ستدهشنا بعض الأشياء التي ستجعل من الأحكام المسبقة المعتادة منطقية وطبيعية.

لتنويع نمط علاقتي، فإنني في بعض الأحيان سأجعل مسافري يتحدث، وأحياناً سأتحدث بنفسي، سوف أدخل في الأفكار المجردة للسيامي، سأجلبه إلى أفكارنا. أخيراً، وعلى افتراض أننا نفهم بعضنا بعضاً عبر الإيماء والتلميح، فسوف أخلق خيالي ومخيلته.

لذا أفترض أن سيامي الخاص بي سقط من بين الغيوم، ووجد نفسه في وسط هذه المدينة الشاسعة والمضطربة، حيث بالكاد تسود الراحة ويسود الصمت خلال الليلة نفسها. في البداية صدمته الفوضى الصاخبة في شارع سان أونوريه وأخافته، وأحس بدوار، وما إلى ذلك».[1]

وإن لم يكن سيامي دوفرسني ذا فائدة كبيرة لمؤلف الرسائل الفارسية، فربما سيكون الأمر على خلاف ذلك مع كتاب لا يعرفه اليوم إلا عدد قليل من الهواة، أود التحدث عن «الجاسوس في محاكم الأمراء المسيحيين»، للأب مارانا. إنها نوع من الصحف، يقدم فيها من يسمى بالتركي، وكيل الرب العظيم، تقارير عن الحوادث التي تقع في العالم خلال معظم القرن السابع عشر. كان هذا العمل ناجحاً بما فيه الكفاية، لدرجة أن الطبعات الهولندية في عامي 1720 و1730 أضافت بالحروف الفارسية أسفل العنوان: برؤية جاسوس البلاط، كوسيلة لتوصية الجمهور بالعمل الجديد لصالح الجمهور.

في حقيقة الأمر، إن هذه تفاصيل قليلة الأهمية، وهي جيدة في أفضل حالاتها لتسلية الفضوليين. ما يشكّل ميزة هذه التخيلات الشفافة ليس الإطار المبتذل، بل اللوحة ضمنه. كان لمونتسكيو عشرون مقلداً، وأمطرت الرسائل التركية، والرسائل اليهودية، والرسائل الصينية، وما إلى ذلك. ما الذي بقي منها اليوم؟ إذا استطعنا أن نتجادل حول من اقترض من مونتسكيو شكل كتابه، فعلينا على الأقل أن نعترف بأن العمق ينتمي

---

(1) التسلية الجادة والكوميدية، بقلم السيد ريفيير دوفريسني، التسلية الثالثة. الطبعة الأولى من أمستردام، 1705، وكان الكتاب قد طبع عدة مرات في باريس بامتياز من الملك.

ولا يمكن إلا أن ينتمي إليه وحده.[1] هذا المزيج من الجدية والكوميدية، هذه النقاشات التي تثير أعظم مشكلات الدين والسياسة، والتي توضع في خِضَمّ صور الأخلاق واللوحات التي لا تدعو إلا إلى الكثير من حرية الوصاية، كل هذا بعبقرية مونتسكيو، وكتابه يمثله.

أنا لا أعرف كاتباً مختلفاً بقدر مونتسكيو. قال بنفسه: «الذهنية التي لدي هي قالب لا يمكن أن نسحب منه إلا الصور ذاتها»، لو لم أكن أخشى مظهر المفارقة، لتجرأت على القول إنه وطوال حياته قد ألّف كتاباً واحداً فقط تحت عناوين مختلفة. فإن «الرسائل الفارسية» المتعلقة بأهل الكهف، والتسامح، والعقاب، والقانون الدولي، ومختلِف أشكال الحكم، هي ليست سوى فصول منفصلة من كتاب «روح الشرائع». وبالمقابل، لن يكون من الصعب العثور على رسائل فارسية حقيقية في «روح الشرائع».

دعونا نقرأ، على سبيل المثال، انعكاسات رجل نبيل على الروح العامة للأمة الفرنسية،[2] والنكات على سراج ملك المغرب، والأسباب المزعومة التي أدت في تركيا إلى انغلاق المرأة،[3] والتلميحات الأبدية إلى عادات الشرق التي تفيض في هذا العمل العظيم، سنجد نبرة وروح أوزبك تفوق في خطورتها نبرة المشرِّع. في كتاب «الاعتبارات المتعلقة بأسباب عظمة وانحطاط الرومان»، لطالما كان مونتسكيو جاداً، وفي كتاب

---

(1) أنا لا أتحدث عن تعاون السيد بيل، مستشار برلمان بوردو، الذي كان سيقدم المقالات المرحة، وعن تعاون السيد باربيت، رئيس محكمة مساعدي غويين، الذي كان سيكتب التأملات الأخلاقية. نعطي لجميع الرجال الموهوبين هؤلاء المتعاونين، الذين يصعب تقدير دورهم أو انتقاد مزاياهم، لأنهم هم أنفسهم لم يفعلوا شيئاً.

(2) روح الشرائع، الفصل التاسع عشر، الفقرة الخامسة وما يليها.

(3) المصدر السابق نفسه، الفصل السادس عشر، الفقرة السادسة والثامنة.

«معبد غنيد» كان لبقاً وحسب. لكن أياً من هذين الكتابين لم يعطِ سوى نصف الروح الأصلية، إذ إن هذه الروح نجدها وبذات القدر في «رسائل فارسية وفي «روح الشرائع» فقط.

إن توالد المقلدين يتوقف على نجاح أي تحفة. يقول مونتسكيو: إن كتاب «رسائل فارسية» كان مدهشاً لدرجة أن بائعي الكتب بذلوا قصارى جهدهم للحاق به. كانوا يسحبون أي شخص يقابلونه من كمه: سيدي، اكتب لنا رسائلَ فارسية. لقد نشرت في فرنسا رسائل تركية، وهو عمل مجهول من تأليف Saint _ Foix،[1] ولم يكن لدى بائعي الكتب الأجانب أي قلق بشأن إرفاقه بطبعة الرسائل الفارسية لعام 1744. وفي إنجلترا، ظهرت رسائل فارسية جديدة، مُترجمة إلى الفرنسية، في عام 1735، تتضمن عبارة مؤثرة:

«Non ita certandi cupidus, quam propter amorem

Quod te imitari aveo.»

«أنا لست متحمساً للمنافسة، إنما من أجل حب ما أتوق إلى تقليده».

إنها سخريّة من الأخلاق الإنجليزية صنعتها يد متحيزة قليلاً. علاوة على ذلك، فإن كل هذه المقلدات، التي تمتع بها المعاصرون، يقتصر تأثيرها فقط على إظهار الفرق الذي يفصل رساماً عظيماً عن ناسخ أو

---

(1) كتب المحامي ماتيو ماريه، الذي كان يأمل في لحظة لدخول الأكاديمية، بدلًا من مونتسكيو، في 19 فبراير 1731: «لقد أُخبِرتُ للتو عن رسائل من فتاة تركية في باريس إلى أختها في حرم النساء. وسيكون المجلد الثاني من «الحروف الفارسية»، والذي ربما يخرج من الأكاديمية الشخص الذي تنصل منها وتنكر لها»، يوميات ومذكرات ماتيو ماريس، المجلد الرابع، صـ203.

ملطّخ. يمكن للمرء أن يُذْهَل بأعمال الفنان، ويعيد إنتاج أسلوبه، إنما لا يمكن تقليد العبقرية.

إذا رحبنا في جمهورية الآداب وبحماسة بالكاتب الجريء الذي بدأ بضربة معلم، فإن الأمر نفسه لا ينطبق على ما يسمى الآن بالأوساط الرسمية، وعلى سلاسة الأعراف وحرية الصالونات الباريسية، فإن هذه الحرية كانت ظاهرية أكثر من كونها حقيقية، حيث لم يكن يميل البلاط كما الوزراء إلى المتهورين الذين يتجرؤون على لمس الأحكام الثابتة. الحكومة المطلقة لا تستوعب أي سخرية. لم يمضِ وقت طويل حتى أدرك مونتسكيو ذلك، هو نفسه من أخبرنا بذلك.

قال لنا: «عند دخولي إلى العالم، وُصِفْتُ بأنني رجل فكر، وتلقيت حفاوة جيدة إلى حد ما من أصحاب المناصب، لكن ما إن نجحت «الرسائل الفارسية»، وحصلت على بعض التقدير من عامة الشعب، بردت مشاعر أصحاب النفوذ، إذ عانيت من ألف كُرْه. فلتُحصوا عدد أولئك الذين طُعنوا من الداخل بسبب الاحتفاء برجل مشهور، ومَن ينتقمون لأنفسهم عبر إذلاله، وستكون جديراً بالإشادة إن استطعت تحمل المديح بصبر».[1]

مباشرة بعد نشر «الرسائل الفارسية»، جاء مونتسكيو إلى باريس للتمتع بسمعته هناك. وجد أن مجتمع المدينة الكبيرة أكثر وداً من مجتمع البلاط، على الرغم من أنها كانت تضم نفس الناس، وكان السبب، على حد قوله، أنهم كانوا مسحورين في فرساي، ومستمتعين في باريس.[2] هناك حيث

(1) أفكار متنوعة.

(2) رسائل من L.B. Lauraguais to Mm * * *، باريس، 1802، الصفحة 192. قال مونتسكيو: «أكره فرساي، لأن الجميع صغير هناك. أحب باريس، لأن الجميع كبير هناك» ـ أفكار متنوعة.

أقام صداقات مع موروباس والكونت غايلوس. بل ويُزعم أنه كان أحد المساهمين في كتاب «هدايا عيد القديس جان»، وهو كتاب تفوق فظاظتُه عبقريتَه.[1] قدِم إلى منزل السيدة دو تانسان، وهي تتعامل بألفة مع أهل الأدب، وبدؤوا يتحدثون عنه في الأكاديمية. «معبد غنيد» المؤلَّف لإرضاء أميرة الدم، الآنسة دو كليرمونت، أكسبته صداقات متينة، لا يمكن الاستغناء عن شيء منها. ويقال إنه ترشح للأكاديمية في عام 1725 وانتُخب.[2] قام مونتسكيو، الذي لم يكن على وفاق مع القضاء، ببيع مكتبه في العام التالي، واستقر في باريس. أصبح ضيفاً مثابراً في صالون المركيزة (دو لامبيرت)، المرأة الذكية الذائعة الصيت، وهناك كانت تُطبخ، كما يقال، الترشيحات الأكاديمية. لطالما كانت الأكاديمية الفرنسية، على غرار الملك الصالح (نوما)، المكان الذي فيه أُودعت سيادتها في تلك الأيدي الرقيقة.

بعد وفاة السيد (دو ساسي) في عام 1727، مترجم كتاب (بلين الصغير)، تقدَّم مونتسكيو مرة جديدة لعضوية الأكاديمية، مدعوماً من قبل (الأب مونغو)، المعلم السابق لـ(دوق أورليان)، ولهذا الاسم تأثير قوي في المؤسسة. سارت الانتخابات بسلاسة، لم يكن للرئيس منافس،[3] ثم فجأة واجهه اعتراض غير متوقع. يجب ألا ننسى أن دخول الأكاديمية

---

(1) لوراغيه، المرجع نفسه، الصفحة 212، يعود تاريخ الطبعة الأولى لـ«إترين دو لا سان جان» إلى عام 1742، في مدينة تروا، في أودوت. إن فظاظة الكتاب وشهادة مونكريف لا تسمحان لمونتسكيو أن ينسب إلى أي جزء من هذا الهراء.

(2) وأنا أستعير هذه التفاصيل من كتيب السيد فيان الطريف: مونتسكيو، واستقباله في الأكاديمية، والطبعة الثانية من الرسائل الفارسية، باريس، 1869.

(3) ماتيو ماريه. يوميات ومذكرات، الثالث، الصفحة 504.

في القرن الثامن عشر لا يتم إلا بموافقة الملك، وأنه في العام 1727 كان رئيس الوزراء كاردينالاً. صحيح أن هذا الكاردينال هو (فلوري) والذي لا يمكننا اتهامه بالقسوة المفرطة، لكن في كتاب (رسائل فارسية) كان هناك بعض التلميحات الجريئة ضد (البابا)، مع القليل من المراعاة للمعتقدات الكاثوليكية، والنقد اللاذع للحكومة السابقة، وفي زمن كانت فيه الأكاديمية في يد الأمير، فلا يجب أن نندهش إن لم يسمح الأسقف رئيس الوزراء بدخول مؤلف كتاب مشبوه ضمن أربعين العضو.

تمكن مع ذلك مونتسكيو من اجتياز هذه العقبة، حيث نال موافقة الكاردينال في نهاية الأمر. لكن كيف؟ في هذه النقطة لدينا روايات مختلفة، ربما يكون هذا هو المكان المناسب لتسليط الضوء على هذه النقطة المبهمة جداً في تاريخ الأدب.

دعونا نَرَ بدايةً ماذا الذي قاله المحامي (ماتيو ماريه). مُرشح في الصدارة للرئيس (بوهييه)، حيث كانت لدى ماريس فرصة عضوية الأكاديمية التي لم تُمنَح لمونتسكيو. كان مهتماً بتثقيف نفسه، فضولياً يسعى خلف كل ما يُقال في المدينة، وأهلاً للثقة. لماذا فضّل الرئيس (بوهييه) محامياً غامضاً على مونتسكيو؟ هذا ما نجهله. أهي الغيرة المهنية، أم منافسة العقل النيّر؟

ها هي رسائل ماريس إلى الرئيس:

«باريس، 3 تشرين الثاني 1727»

«لطالما كنت مهتماً بانتخابات الأكاديمية: مات السيد (دو ساسي)، ونحن نناقش مسألة أن يخلفه الرئيس مونتسكيو، الذي يمتلك الكثير من

الذكاء والاستحقاق، وأنت أخبر مني في الحكم عليه بما أنك صاحب الكلمة الفصل في ذلك».[1]

«باريس، 26 تشرين الثاني 1727»

«لم يقع تعيين السيد مونتسكيو بعد، قلنا له: إن كتبت (الرسائل الفارسية) فإن فيها ما هو ضد كيان الأكاديمية وأعضائها،[2] وإن لم تكتبها، فماذا كنت لتكتب؟».[3]

لم يكن الرفض جدياً، إذ لطالما تعرضت الأكاديمية للسخرية ممن لم يكونوا جزءاً منها، لكن هذه المؤسسة كانت تنتقم من هؤلاء المهرجين بجعلهم أعضاء فيها. بعض الكلام ضد الأكاديمية يشبه الأقوال المأثورة في انتقاد الزواج، إنها خطايا الشباب التي يُكفِّر عنها الإنسان في شيخوخته.

إليكم هذه الرسالة التي تسترعي الانتباه:

«باريس، 17 كانون الأول 1727»

«شكر الرئيس مونتسكيو الأكاديمية في نفس اليوم الذي اجتمعت فيه من أجل انتخابه،[4] والسيد (ماريشال دو إيستريه) هو من أنبأنا بهذا الشكر. أعلم جيداً بأنه كان منزعجاً من (رسائل فارسية)، وأن الكاردينال يرى في هذا الكتاب تهكماً على الحكومة السابقة والدولة. كان هناك أيضاً بعض من التحرر ضد الدين والأخلاق، مما أثار روح الخصومة، وأوجب

(1) يوميات ومذكرات ماتيو ماريه، المنشورة من قبل السيد Lescure، باريس 1864، الثالث، الصفحة 494.

(2) الرسالة 73.

(3) يوميات ومذكرات، إلخ، الثالث، الصفحة 501.

(4) يوميات ومذكرات، إلخ، الثالث، الصفحة 505.

التبرؤ من هذا الكتاب. لا يستطيع هذا الأب المسكين التنصل من أطفاله، أياً كانت ماهيتهم، لقد مدوا له أذرعهم الفارسية الصغيرة، فضحى من أجلهم بالأكاديمية. يجب إذاً البحث عن موضوع أكاديمي آخر، لنتحدث عن الأب (دو روتلان)، وربما عن السيد حارس الأختام».[1]

«باريس، 22 كانون الأول 1727»

«لقد أكدوا لي أن الرئيس مونتسكيو عاد إلى الأكاديمية، ولا أعرف من أي باب».[2]

«باريس، 23 كانون الأول 1727»

«لا أعلم بعد من أي باب عاد الرئيس مونتسكيو إلى الأكاديمية، لكنه عاد. هل تبرأ من أطفاله؟ وفكرتي عن الأذرع الفارسية الصغيرة لم تتعدَّ كونها استعارة؟ ما الذي علينا فعله كي لا نكون في كادر أنت منه؟».[3]

«باريس، 29 كانون الأول 1727»

«ليس لدي فكرة حتى الآن كيف فُتحت الأبواب المغلقة. أيكون نَبْذُنا لـ (الرسائل)، بعد أن اعترفنا بها، ليس إلا نبذاً للجحود بين الأصدقاء، وكم هي المتاعب التي كنا سنتجنبها بفعل ذلك؟».[4]

بعد ثمانٍ وعشرين عاماً، وفي اليوم التالي لوفاة مونتسكيو، روى (موبيرتويس)، الذي كان مراسلاً لمؤلف (الرسائل الفارسية) وصديقه،

(1) السيد de Chauvelin.

(2) يوميات ومذكرات، إلخ، الثالث، الصفحة 508.

(3) المصدر نفسه، الصفحة 508.

(4) المصدر نفسه، الصفحة 508.

كما كان زميله في الأكاديمية الفرنسية وأكاديمية برلين، الحوادث التي رافقت ترشيحات عام 1727، تقريباً بنفس الكيفية التي رواها (ماريس). كان الكاردينال يطالب التنصل من الكتاب. دعونا نستمع إلى التأبين الذي نقرأه في الجمعية العامة للأكاديمية الملكية في برلين، في الخامس من حزيران لعام 1755.

«في عام 1728، تقدّم السيد مونتسكيو لنيل مقعد في الأكاديمية كان شاغراً بسبب وفاة السيد (دو ساسي). كان كتابه (رسائل فارسية) الذي ظهر في العام 1721، مصحوباً بنجاح كبير، بالفعل عملاً جيداً، لكن الحذر الذي يكتنف منح المقاعد في هذه المؤسسة، وبعض السمات الجريئة جداً لهذا الكتاب، جعلت من العنوان مثار شك. السيد الكاردينال (دو فلوري)، المرتعب مما قيل له،[1] كتب إلى الأكاديمية قائلًا بأن الملك لا يرغب في الاعتراف بمؤلف (رسائل فارسية).[2] لذا كان عليه أن يتخلى عن المقعد أو أن يتبرأ من كتابه. أعلن السيد مونتسكيو أنه لم ينسب الكتاب إلى نفسه أبداً، لكنه لن يتبرأ منه، والسيد (ماريشال دو إيستريه) تعهد بتعزيز هذه القناعة. قرأ السيد الكاردينال (دو فلوري) الرسائل الفارسية فوجدها مقبولة وغير خطرة، عندها رُحِّب بالسيد مونتسكيو».

في خطاب الرثاء الذي خطّه (دالمبير) في بداية المجلد الخامس من

---

(1) كان الأب تورنيمين، مدير صحيفة Trévoux، هو من وضع أمام أعين الكاردينال مقطعاً مخلصاً من أخطر مقاطع رسائل فارسية.

(2) وفقاً للسيد فيان، كان يوم الخميس 11 كانون الأول 1727، في لحظة الاقتراع الأكاديمي، عندما علمنا أن الكاردينال قد أخبر للتو رئيس الدير بينيون بكلماته الخاصة: «الاختيار الذي ستقوم به الأكاديمية سيكون محل استياء من قبل جميع الشرفاء»، عندها أُجِّلَت الانتخابات لمدة أسبوع.

كتاب (الموسوعة)، نجد قصة (موبيرتويس) بصيغة خطابية. لا يوجد ما هو أكثر إزعاجاً من هذه النبرة الفلسفية المزعومة، وهذه الدروس المتحذلقة التي توزع اللوم والثناء، ارتكازاً على ما إن كان أحدهم ينتمي إلى الزمرة المعنية أم لا. أليس من السخرية بمكان أن تخاطب العامة بجدية قائلةً: «تصرَّف الراحل (ماريشال دو إيستريه) الذي كان مديراً للأكاديمية الفرنسية، في هذا الظرف، كرجل بلاط فاضل، وبروح رفيعة حقاً. لم يكن يخشى إساءة استخدام الثقة التي يتمتع بها ولا المساومة على نفسه: دعم صديقه وبرّأ سقراط».

ما يثير الاهتمام في كلمات (دالمبير) العظيمة، أننا نقرأ فيها أن مونتسكيو شعر بموجة من الاتهام موجهة ضده كأنها تمَس شخصه، عائلته وأمان حياته، معتبراً أن استبعاده من الأكاديمية إهانة، قابل الوزير وأخبره أنه لم يعترف بالكتاب لأسباب معينة، وليس هناك ما يخجل منه حتى يتبرأ من الكتاب، وأن الحكم على العمل كان يجب أن يتم بعد قراءته وليس استناداً إلى الأقاويل.

«أخيراً، يتابع (دالمبير)، اتخذ الوزير الطريق الذي كان يجب أن يبدأ منه، قرأ الكتاب، أحب المؤلف (؟) وأدرك أن عليه أن يضع جلّ ثقته: لم تُحرم الأكاديمية الفرنسية من أحد أجمل زخارفها، وكان من حسن حظ فرنسا أن تحافظ على موضوع كان بإمكانه أن يضيع بسبب الخرافة والافتراء: فالسيد مونتسكيو أعلن للحكومة أنه بعد الإساءة التي تعرض لها، كان ذاهباً ليبحث لدى الأجانب، الذين فتحوا أذرعهم له، عن الأمان، والراحة، وربما المكافآت التي كان يأمل أن ينالها في بلده. كانت الأمة قد استنكرت هذه الخسارة، ومع ذلك فما زال العار يلحق بها».

على الرغم من أنني أحترم (دالمبير)، لكنني أعترف أن الشكوك تتملكني بشأن التهديد الذي أطلقه مونتسكيو. لا يتلاءم سلوك كهذا إطلاقاً مع شخصية مونتسكيو المتزنة، وعاد لا يوائم روح هذا العصر. في القرن الماضي، رحل الناس إلى الخارج هرباً من الاضطهاد الديني، فيما كان هناك فرنسي فخور جداً بوطنه ولم يتركه.

وأضيف أن الرسالة التي بموجبها أَذِن الكاردينال (دو فلوري) بالانتخابات تفترض أن مونتسكيو تعهد على الأقل بعدم الاعتراف علناً بمؤلف الرسائل الفارسية. إذا ما فهمت جيداً هذه الرسالة، المنشورة من قبل السيد (فيان)، فإن الكاردينال يهنئ الأمين الدائم لعدم تضمين الأسباب التي أدت إلى تأجيل الانتخابات في محضر جلسة الحادي عشر من كانون الأول لعام 1727. يُضيف: «إن امتثال السيد الرئيس مونتسكيو كان كاملاً، بحيث لا يستحق أن يترك أدنى أثر من شأنه المساس بسمعته، والجميع على علم بما حدث، لذلك لن يكون هناك ما نخشاه حول الصمت الذي سوف تلتزم به الأكاديمية».

أظن بأنها الحقيقة. يتفق هذا الرأي مع ما قاله ماريس،[1] من اللافت أن مدير الأكاديمية، الأب (ماليه)، في معرض رده على خطاب القبول الذي ألقاه مونتسكيو، لمَّح إلى (رسائل فارسية)، من أجل السخرية بدهاء من تنصل الأكاديمي الجديد الذي لن ينطلي على أحد. فإن نحينا الكتاب الذي أثار الكثير من الضجة، فما هي مؤلفات الرئيس التي ستؤهله لدخول الأكاديمية؟ اثنتان أو ثلاث من المقالات العلمية المعروفة في بوردو أكثر

(1) Sup، الصفحة 30، الملاحظة 3.

من باريس، كانت جَعبته الأدبية صغيرة. يفترض الأب ماليه، بأنه من خلال استخدام لغة مبطنة تكيل بمكيالين، قد يسعد الحاضرين بطريقة تفوق سعادتهم في حال حضور لغز كوميدي، وذلك بالتلميح إلى أن الأكاديمية قد قبلت بمونتسكيو استناداً على أعماله التي لم تنشر بعد وما زالت في جعبته: «تعجَّل، قال له، فإن الجمهور سيحذّرك إن لم تحذرهم سلفاً. العبقرية التي لاحظها بك ستدفعه كي ينسب إليك الأعمال المجهولة التي سيجد فيها الخيال، والحيوية، والتلميحات الجريئة: وتكريماً لنبوغك، سوف يمنحك إياها، على الرغم من الاحتياطات التي ستفرضها عليك حصافتك. فقد تعرض عظماء البشرية لهذه الأنواع من الظلم. لذا عمم أعمالك وامْشِ نحو المجد الذي تستحقه».

نهاية الخطاب لم تكن أقل خُبثاً. فقد امتدح الأب (ماليه) الكاردينال حتى لا يتجاهل أحد ما الدور الذي لعبه في الانتخابات الأكاديمية. «هذا الكاردينال، كما يقول، حكيم بقدر ما هو نشيط، يكتشف بسهولة عمق القضايا الأهم. يفضح كل الملابسات، مُنذراً بعواقبها، ثم يوفق بينها بأكثر الوسائل حكمة وهدوءاً». يمكن القول بأن هذه الجمل قيلت بالعموم، لكن الجمهور فهمها كما فهمها مونتسكيو أيضاً. «حسبما كتب (ماريه) بتاريخ الثامن من شباط في عام 1728، فإن الرئيس قدّم خطابه بشكل منفصل لأنه لم يرغب في ضمه إلى خطاب السيد (ماليه) الذي كان محض هجاء. لم أرَ أياً منهما حتى الآن، كل هذه المنغصات أثارت اشمئزازي».[1]

بعد سبعة وعشرون عاماً، وأثناء توليه لكرسي السيد مونتسكيو، أشاد

(1) يوميات ومذكرات، إلخ، الثالث، الصفحة 580.

السيد (دو شاتوبريان) بـملاحظات حول عظمة الرومان، وروح الشرائع، وحتى معبد نيدوسيوس: لكن عندما وصل إلى رسائل فارسية، تلّفظ بهذه الكلمات الغامضة: «ما هو هذا النوع الجديد من المراسلات؟ [...] لكنه شخصياً يحجبها فيخفيها عن ناظري. أنا لا أدّعي إطلاقاً أيها السادة: إن مجد السيد مونتسكيو يستطيع تقديم تضحيات دون أن تقلّ عظمته».

القصة حتى الآن مُشرفة، فهي تُزودنا بما نعرفه عن شخصية مونتسكيو. لكن إن صدقنا (ڤولتير)، الذي ليس بذي شأنٍ صغير، فقد قام مونتسكيو بخدعة فلسفية لا تبدو لي لطيفة جداً تجاه الكاردينال. فبإمكانه وفي غضون بضعة أيام أن يصدر نسخة منقحة من (رسائل فارسية) يزيل أو يقلل فيها كل ما يمكن أن يُدينه من قِبل كاهن أو وزير. لدى (ڤولتير) أسبابه حتى يخرج بهذه الدعابة الجيدة، فمن المؤكد أنه في عام 1732 قام بعمل نسخة منقحة من كتابه (رسائل عن الإنجليز) لكي يحصل على إذن بنشر كتابه المُريب، من الكاردينال (دو فلوري) نفسه. إلى جانب ذلك، ما الذي لم يفعله (ڤولتير) حتى يدخل الأكاديمية؟ لقد سخر من الآخرين ومن نفسه بأفضل طريقة، كما لم يفعل أحد من قبله.

لكن مونتسكيو لم يكن يشبه أبداً مؤلف (كانديد). المكانة التي احتلها في العالم، وخطورة موقفه، وصلابة شخصيته لا تتوافق مع هذه الخديعة الأكاديمية. كما أنها لا تُصدق، على الرغم من أن (دالمبير) أشار إليها في تأبين مونتسكيو: «إن الناشر الأجنبي، كما يقول، قد خلط بين رسائل مونتسكيو الأصلية ورسائل كاتب آخر، فكان من الضروري، على الأقل، تبيّن رسائل المؤلف قبل إدانته». كان مونتسكيو هو من اهتم بذلك.

لذلك نُظر إلى هذه القصة على أنها ملفقة، عندما أعاد السيد (فيان)

بعضاً من المصداقية لمونتسكيو، فقد كان يعرفه ويعرف أعماله أكثر من أي أحد آخر. عثر السيد (فيان) أثناء تفحصه للنسخ الأولى من كتاب (رسائل فارسية)، على واحدة يعود تاريخها إلى عام 1721 في كولونيا، لدى (بيير مارتو) تحمل هذا العنوان الفريد: الطبعة الثانية، منقحة ومصححة ومنقوصة ومزيدة من قبل المؤلف. لا تضم هذه النسخة إلا مئة وأربعين رسالة بدلاً من مئة وخمسين، واقتُطِعَت اثنتا عشر رسالة،[1] واثنتان جُمعتا في واحدة،[2] وأُضيفت ثلاث،[3] وعُدِّلَت سبع رسائل،[4] هذه الإضافات والتعديلات هي بالفعل بيد المؤلف، بما أنها موجودة في النسخة النهائية لعام 1754.

يفترض السيد (فيان) أن هذه النسخة صُنعت لأغراض الترشح إلى الأكاديمية، وأنها أُرخت بتاريخ إصدار سابق. ولكي يدعم هذا الرأي، فقد لاحظ أن الصحيفة الأدبية لعام 1729 نشرت مراجعتان في مديح هذه النسخة تحت عنوان: كتب صدرت في 1721 ومن 1722 حتى 1728. «والحال أنه لم تصدر أي نسخة من (رسائل فارسية) بين عامي 1722 و1728، كما يقول السيد (فيان). فلماذا اهتمت الصحيفة الأدبية بنسخة عام 1729، إذا لم تكن هناك نسخة قد صدرت مؤخراً؟ (فولتير) على حق، وكذلك (دالمبير). النسخة المقدمة إلى الكاردينال ليست وهماً، ها هي بين أيدينا».

---

(1) الرسائل 1، 5، 15 (16 في نسختنا)، 23 (25)، 30 (32)، 39 (41)، 40 (42)، 41 (43)، 45 (47)، 63 (65)، 68 (70)، 69 (71)، استعرت هذه الأرقام وتواليها من النسخة الجميلة للسيد أندريه لوفيفر، باريس، Lemerre، 1873، الأول، الصفحة 211.

(2) الرسائل 10و11.

(3) الرسائل 111، 112، 145، التي تحمل في نسخة مارتو الأرقام 58، 59، 60.

(4) الرسائل 7، 9، 10، 11، 18، 24، 39.

كانت تلك أسباب واهية. وعلى اعتبار أنها لم تقنعني، طلبت الأذن بعرض شكوكي التي أقدمها إلى السيد (فيان):

بدايةً هناك إشكال موضوعي:

في 26 تشرين الأول 1727 توفي السيد (فيان)، أُبلِغَت الأكاديمية يوم الخميس 2 كانون الأول بمعارضة الكاردينال وتأجيل الانتخابات، يقال إن مونتسكيو انسحب، لكن هذا التراجع خدعة، لأنه وفي غضون أيام قليلة رأى الكاردينال، وجرّده من حجته، وعاد إلى الساحة. في الواقع، أُقصِيَ في 20 كانون الأول، وعُيِّنَ أخيراً في 5 يناير 1728. في الثامن من الشهر نفسه، تمت الموافقة على الانتخابات. لذلك كان على هذه النسخة المرتجلة أن تُصاغ ما بين 11 و20 ديسمبر. أهذا ممكن؟ لم يكن هناك وقت للقيام بالرحلة إلى هولندا، ذهاباً وإياباً. هل كان سيُطبع في باريس خلال ثمانية أيام مجلدان في تنسيق اثنتي عشر ورقة، مع قلة الوسائل المتاحة للمطبعة؟ حتماً لا. على المرء أن يفترض أن هذه النسخة الثانية قد أُعِدَّت قبل فترة طويلة، ولكن، قبل 2 كانون الأول، من كان يتوقع معارضة الكاردينال؟

سبب آخر، قدمه السيد (أندريه لوفيفر)، يبدو لي أنه لا يقل وزناً. إن كان مونتسكيو قد قرر، لإرضاء الكاردينال، أن يحذف من هذه النسخة الوهمية المقاطع التي يمكن أن تسيء إلى الأسقف والوزير، فعليه إجراء تغييرات كبيرة في النص. هل فعل ذلك؟ لا، معظم الرسائل المحذوفة تافهة المضمون، في حين بقيت تلك الأحَدّ ضد الحكومة والبابا والدين. في الحقيقة، كتاب (رسائل فارسية) يتألف من سلسلة محكمة لدرجة تجعل المرء لا يتوصل إلى آلية تكيفها مع ذوق الكاردينال، إلا إذا حذفناها بالكامل. كان إلزام المؤلف بنكران كتابه إجراءً ملتبساً، ولكن له نكهة هذا

الزمن، فقبول نسخة منقوصة كان من الممكن أن يؤدي بـ(فلوري) إلى أبعد مما أراد الحرص عليه.

إذن ما الذي تبقى من الاكتشاف الفضولي لسيد (فيان)؟ حقيقة تُهم التاريخ الأدبي، لكن لم تُوَضَّح بشكل كافٍ بعد. حتى إشعار آخر، يجوز الاعتقاد بأن الطبعة الثانية لعام 1721 تحمل تاريخها الحقيقي، وأنها لم تستخدم في ترشيح مونتسكيو.

مهما كانت المتاعب التي عانى منها مؤلف (رسائل فارسية)، فإن كتابه، الذي دخل أدبنا ذات مرة، ظل هناك، كعمل عبقري. لقد صمدت (رسائل فارسية) أمام اختبار الزمن. ليس الأمر أنه لا توجد أشياء مؤسفة. دون أن نقسو، يمكننا رؤية أن مونتسكيو يسيء إلى الأعراف الفارسية. هناك الكثير من القصور، ومن الخصيان، والكثير جداً من التوصيفات غير الخفيفة. إنه تاريخ الوصاية على العرش، لا أمانع، لكنها سمة هذا التاريخ المحدد. أما بالنسبة إلى الطابع الشرقي للشخصيات، فسيكون هناك الكثير مما يمكن قوله، لكن ربما كانت العيوب التي صدمتنا اليوم قد ساعدت في عصرهم على نجاح الكتاب. يبدو أن (أوزبك وريكا) فرنسيان جداً بالنسبة إلى الفرس، أما في عام 1721 فاعتقد الناس خلاف ذلك. كل قرن له طريقته الخاصة في فهم وإحساس الشرق وروما واليونان. نظراً إلى أن سعة الاطلاع تجعلنا نتوغل أكثر في هذه الحضارات الأجنبية، فإن وجهة النظر تتغير، ويتغير الذوق. أعطى (أندروماش وإيفيجينيا) لِـ(راسينِ) آبائِنَا إحساساً بقدوم هوميروس. يُذَكّر (إيفيجينيا في توريد)، وهو عمل جرماني إن وجد، الألمان، كما يقال، بشِعر اليونان المجنح. لقد حظي (أوروسمان الشجاع) بالإعجاب من قبل جداتنا لكونه مسلماً شرساً وكريماً. لماذا لم

يخدع (أوزبك) الفرنسيين في بدايات القرن الثامن عشر؟ لقد كانوا جميعاً مصدومين بالقصور أكثر من صدمتهم بهذه اللوحات، على الرغم من إيمانهم بحقيقة وجودها.

لم تكن كل (الرسائل الفارسية) متساوية القيمة. انتقاد التفاهة، السخرية من الطب والمعرفة، ازدراء الشعر الذي لم يمتلك مونتسكيو تجاهه إحساساً يفوق إحساس (باسكال)، الهزء من علوم الهندسة، والكيميائيين، والمديرين، وأهل الذمة، إلخ ـ لا تفتقر إلى المرح أو الرقة، لكن هناك نوع من الجفاف في الطرح. إنها خطوط مرسومة من قبل يد واثقة، لكنها مسوَّدات ما تزال بعيدة عن اللوحات المكتملة، وعن الفرشاة الرقيقة للكاتب (لا بروبير).

من ناحية أخرى، يتطرق مونتسكيو بجرأة إلى الأسئلة التي لا يقترب منها (لا بروبير). أنا لا أتحدث عن الهجوم على الدين، فاختلاف القناعات يُفسر بشكل واضح الكثير من الصمت الذي يستكين إليه مؤلف (شخصيات). (لا بروبير) مسيحي، ومونتسكيو ربوبي، تلميذ (بايل) والمفكرين الأحرار في إنجلترا. وبمنتهى الحماسة استبدل ما كان يؤمن به في الأمس معتنقاً معتقداً جديداً ولم يدخر أي ضربات لعبادة الأصنام التي نبذها للتو. يمكن للمرء أن يجده قاسياً، إنه يضرب بلا شفقة، وحتى بلا عدالة أحياناً. على سبيل الاعتذار عديم الجدوى، قال ذات مرة، أن على التركي أن يرى ويفكر ويتحدث باللغة التركية لا المسيحية،[1] هناك شيء غير الجهل والذهول في لغة (أوزبك). في (بعض التأملات) التي

---

(1) رسالة 4 تشرين الأول 1752. انظروا أيضاً «بعض الأفكار حول رسائل فارسية».

تبتدئ بها نسخة 1754، يعتذر مونتسكيو، ويقول إنه بالتأكيد لا يريد ضرب الجنس البشري في أكثر الأماكن هشاشة، يجوز الاعتقاد أنه في عام 1721 كان على الأقل يفتقر إلى الحكمة، وأنه لا بد أنه ندم أكثر من مرة على فورة شبابه. لن أركز على هذا أكثر. عاد مونتسكيو إلى مشاعر أكثر عدلاً حول المسيحية، وفي هذه النقطة، كان أفضل تفنيد لـ(رسائل فارسية) هو الكتاب الرابع والعشرون من (روح الشرائع).

ما يجعل من (رسائل فارسية) رسائل عظيمة، وما يضمن استمرارها، هي الصفحات الجادة التي يُظهر فيها مونتسكيو نفسه كفيلسوف وسياسي. هناك يزرع أفكاراً جديدة بكلتا يديه. كرسالته تلك التي تحتوي في ثناياها على بذرة (روح الشرائع)،[1] وهناك مثل تلك الرسالة التي تدحض الأخطاء في بضعة أسطر، وتدين الفظائع القديمة العهد للتشريع الجنائي. بضع كلمات عن طبيعة الأحكام ونسبتها ستلهم (بكاريا) يوماً ما. وبمثل هذه الخصوبة نتعرف العبقرية. هناك خمسون فكرة في (رسائل فارسية)، إذا ما تُعُمِّقَ فيها، فستكون كل منها كافية لملء مجلد. هل استشهد بتعريف الحكومة الأفضل، «تلك التي تبلغ أهدافها بأبخس ثمن، والتي تقود الناس بالطريقة الأكثر ملائمةً لرغباتهم وميولهم؟»، هذه هي الخلاصة التي توصل إليها (غوته) عندما كتب: «الحكومة الأفضل هي تلك التي تُعلم الناس كيفية حكم أنفسهم». للأسف، إنها فكرة أبسط من أن يستوعبها سياسيونا ورجال دولتنا.

دعونا نقرأ ما كتبه (أوزبك) حول حق البشر، ونرى إذا ما كان ضمير

---

(1) الرسالة 80.

الأمراء مستنيراً منذ قرن ونصف؟ «هذا القانون، بما هو عليه اليوم، هو علم يعلم الأمراء إلى أي مدىً يمكنهم انتهاك العدالة دون المساس بمصالحهم. فيا له من تصميم أرادوا به تعزيز وعيهم، عبر وضع منهج لعدم المساواة، ومنحه أسساً، وتشكيل مبادئ تستند إليه، واستخلاص نتائج منه!».

«يبدو أن هناك عدالتين مختلفتين تماماً: إحداهما تنظم شؤون الأفراد وتحكم بالقانون المدني شؤون الأفراد، وأخرى تلك التي تحسم الخلافات التي تنشأ بين الناس، والتي تستبد بالحق العام: كأن الحق العام ليس في حد ذاته حقاً مدنياً، إنها ليست حقيقة بلد معين، بل حقيقة العالم أجمع».[1]

من خلال هذه الأفكار، من خلال هذه المواقف المعلنة، ينفصل مونتسكيو عن القرن السابع عشر، محدداً أسلوب القرن الثامن عشر. لم تُبهره أُبّهة لويس الرابع عشر، يكره الاستبداد، ويحب الحرية، ولديه أكبر شغف بالإنسانية. لم يتخلَّ مونتسكيو عن شرف الروح الحساسة، على الرغم من أن قصة إقامته في مرسيليا من شأنها أن تهز الرأي السائد، لكن من هاجم التعصب بحرارة؟ من، في ذلك الوقت، جعل نفسه مدافعاً عن الزنوج الذين لم يفكر بهم أحد في فرنسا؟ من كان لديه الجرأة ليقول إن الرجال لا يملكون إلا سلطة استبدادية على النساء، وأن القوى فيما بينهما ستتساوى في حال تساوى التعليم؟[2] أتوقف هنا، ففي (الرسائلَ الفارسية) كما في (حكايات لا فونتين)، ما إن نبتدئ بالقراءة، لن ننتهي أبداً.

---

(1) الرسالة 94.

(2) الرسالة 38.

هناك نقطة أخيرة لا أريد أن أهملها. بموت لويس الرابع عشر، رأت فرنسا التي لطالما كانت مفتونة بقدرة هذه اليد، أشبه بوميض حرية يمر أمام عينيها. كان القديس سيمون، رئيس دير سان بيير، يحلم بنظام ملكيٍّ معتدل، كان مونتسكيو أكثر حماسة، لأنه بقي في مجال النظرية، محتفظاً بكامل إعجابه بالحرية العريقة. «يبدو أن محراب الشرف، ذي السمعة والفضيلة، كما يقول، تم إنشاؤه في الجمهوريات، وفي البلدان التي يمكننا أن ننطق فيها اسم الوطن.»[1] حاشى اللّٰه أن أجعل من مونتسكيو رائداً للجمهورية الفرنسية، فأفكاره وأذواقه لم تحمله ليكون في صف الشعب. لكنه، مثل (رولان) الطيب، أي أحد أولئك الذين، من خلال تمجيد العصور القديمة اليونانية والرومانية، ثقّفوا الناس في عام 1791. ما حلقة (ساكني الكهوف) سوى تأليه للجمهورية الأفلاطونية، الفكرة التي قلبت رأس (مابلي) وكثيرين غيره؟ ها هنا نرى كيف يمكن أن تتبدل الأفكار بسرعة في فرنسا. بالنظر فقط إلى الشكل، فإن حلقة (ساكني الكهوف) هي تقليد لـ(تيليماك)، لكن، وبينما في (سالينتي) السعيدة على يد الأمير، عوّد (فينيلون) الشعب على القانون والواجب، فإن مونتسكيو قد تخطى ذلك وأعاده إلى الطبيعة والبراءة من أجل إحلال الحرية والسعادة لدى التروجلودَيْت (ساكني الكهوف) الأفاضل، الذين حالما يفسُدون يطلبون ملكاً. هل من داعٍ إلى أن أضيف، ومن وجهة نظري بالطبع، بأن حلم مونتسكيو ليس بأفضل حالاً من حلم فينيلون؟ الروايات السياسية لا تقل خطورة عن الروايات الأخرى. من خلال تقديم نموذج خيالي للقارئ، عن طريق تنفيره من الواقع، فإنهم يشوهون عقله ويهيجون قلبه.

(1) الرسالة 89.

في السنوات الأخيرة من حياته، كانت لدى مونتسكيو الرغبة في تنقيح (رسائل فارسية) ومحو ما يسميه (نتاج شباب ـ juvenilia)، ومع ذلك، فقد أجرى فقط تصحيحات طفيفة على الطبعة التي قدمها في 1754. وهل احتاط من الخضوع لمراجعة أشد صرامة لعمل شبابه هذا؟ من المزعج الشك في ذلك عندما يقرأ المرء في كتابات ذلك الوقت قصة وفاة مونتسكيو. نرى فيها أن الأب (روث)، المسيحي الإيرلندي، يعترف بمونتسكيو كرجل لامع يُحتَضَر، وقد أصر بشدة أن يعطيه الأخير التصحيحات التي أجراها على (رسائل فارسية). نعرف أيضاً، بواسطة رسالة من دوقة (إيغيلون) أن مونتسكيو أعطى مخطوطة لهذه الصديقة المخلصة، قال فيها: «أريد أن أضحي بكل شيء من أجل الحكمة والدين، لكن ليس من أجل المجتمع.[1] تشاوَرِي مع أصدقائي وقرِّرُوا بأنفسكم ما إذا كان ينبغي إظهار هذا المخطوط».

لم تُنشَر المخطوطة قط. هل اختفت؟ هل بقي في العائلة من يحتفظ ببضعة من أوراق مونتسكيو؟ لا أعلم. سيكون من المثير للاهتمام بلا شك معرفة آخر فكرة للمؤلف، ولكن بمجرد طباعته، يصبح الكتاب ملكاً للعالم كله، ستظل (رسائل فارسية) الحقيقية دائماً هي تلك التي كتبها مونتسكيو في جذوة نيران شبابه. لقد تبنتها الأجيال، وسيظلون على حبها، حتى بعيوبها.

النص الذي نقدمه هو نسخة الأعمال الكاملة، التي نشرها (ريشر)، المحامي في البرلمان، عام 1758، وفقاً للمخطوطات التي نقلتها العائلة

---

(1) المقصود اليسوعيون.

والتغييرات التي تركها المؤلف نفسه، فإن هذا هو النص المعتمد بشكل عام. لقد أضفنا تعديلات إصدار (برونيل)، أمستردام 1721، والتي جمعناها بعناية، واستعرنا أيضاً بعض التعديلات من إصداري كولونيا إلى الإصدار الذي قدمه السيد (أندريه لوفيفر) هذا العام بالذات.

هذه التعديلات لا تخلو من الإثارة؛ تُظهر لنا الاهتمام الذي أبداه المؤلف لإعطاء لغته مزيداً من الدقة والحزم، لكن جوهر الأفكار لم يتغير. طُبِعَ العمل من برونز، يمكنك لمس النقوش، ولكن ليس كتمثال. أما الملاحظات المصاحبة للرسائل فلها غرض محدد بدقة، خلال قرن ونصف على ظهور الكتاب، يا لِكَمّ التلميحات التي لم تُنسَ، وما أكثر التعبيرات التي لم تتقدم في العمر! لقد سعينا إلى إحياء هذا الماضي الباهت لهذه الصورة العائلية القديمة، حاولنا استعادة نضارتها الأولية، ولم نهمل شيئاً لوضع قارئ عام 1875 في الحالة الذهنية التي وجد قارئ عام 1721 نفسه فيها. هذه هي الطريقة التي يمكننا بها كتابة تعليق توضيحي عن المؤلف بشكل مفيد.

ليس من الصعب الحكم على كاتب عندما يقرأه المرء بعد قرن ونصف. إن الاستفادة من الحقائق التي نشرها لإدانة الأخطاء التي أفلتت منه هو نجاح سهل لم نحاوله. كي يتسلق طفل على أكتاف مارد، عليه أن يرى ما هو أبعد منه. اعتقدنا أنه من الضروري أن نشير إلى أن بعض المعتقدات الخاطئة التي تنتمي إلى القرن الثامن عشر وكذلك إلى مونتسكيو، ولكن بالنسبة إلى من تبقى منا، فقد جعلنا أنفسنا خَدَماً في حضرة هذه العبقرية الرائعة، كي نفهم عظمتها بشكل أفضل. إن هذه الألفة الطويلة جلبت لنا السرور والفائدة، ونعتقد أنها ستوفر لنا أسباباً جديدة للإعجاب بمونتسكيو وحبه.

لقد احتفظنا بالجدول، المُعَدّ بعناية فائقة من قبل المحررين الأوائل. يحتوي هذا الجدول على تفسيرات مثيرة للفضول. إنها هي التي تعلمنا، على سبيل المثال، أن مونتسكيو رسم نفسه في شخصية (أوزبك).[1] واستفدنا من ملاحظات المحررين الذين سبقونا، مع حرصنا على إضافة أسمائهم إلى الاقتباسات القليلة التي استعرناها منهم. باختصار، لقد بذلنا قصارى جهدنا لضمان أن تكون هذه الطبعة جديرة بمونتسكيو ولا تثير استياء القارئ.

إدوارد لابولاي
تشرين الثاني 1874

(1) الرسالة 48.

بعض التأملات حول الرسائل الفارسية[1]

لا شيء يسعدنا في الرسائل الفارسية أكثر من أن نجد فيها، دون التفكير في الأمر، شيئاً من الرواية. نرى البداية والعرض والنهاية: توضَع الشخصيات المختلفة في سلسلة تربطها، كلما كانوا يقضون فترة أطول في أوروبا، كانت عادات هذا الجزء من العالم تأخذ، في أذهانهم، جواً أقل روعة وأقل غرابة: وهم يصابون بشكل أو بآخر بهذا الغريب والرائع، وفقاً للاختلاف في شخصياتهم. من ناحية أخرى، يزداد الاضطراب في (القصر) السراي الآسيوي، بما يتناسب مع طول فترة غياب (أوزبك)، أي كلما زاد الغضب وقلّ الحب.

علاوة على ذلك، تنجح هذه الأنواع من الروايات عادة، لأن المرء يدرك موقفه الحالي، مما يجعل المشاعر محسوسة أكثر من كل القصص التي يمكن للمرء أن يرويها، وهذا أحد أسباب نجاح بعض الأعمال المذهلة التي ظهرت منذ الرسائل الفارسية.

أخيراً، في الروايات الاعتيادية، لا يمكن السماح بالانحراف عن الموضوع إلا عندما يشكل رواية جديدة. لا يمكننا المزج فيما بينها بالمنطق، لأنه لم تُجمَّع أي من الشخصيات هناك بشكل منطقي، لأن ذلك

---

(1) هذه التأملات، التي ظهرت في مطلع طبعة عام 1754، دائماً ما نُسبت إلى مونتسكيو. الملاحظات الموسومة بالحرف (م) هي لمونتسكيو، وتلك غير الموسومة تعود إلى الناشر.

سيؤدي إلى صدمة من غاية العمل وطبيعته. إنما على شكل رسائل، حيث لا يُختَار الممثلون، وحيث لا تعتمد الموضوعات المعالجة على أي هدف أو على أي خطة صِيغَت مسبقاً، فقد منح المؤلف نفسه ميزة أن يكون قادراً على جمع الفلسفة والسياسة والأخلاق في رواية، وربط الكل بسلسلة خفية، وبطريقة ما غير معروفة.

كان تدفق الرسائل الفارسية هائلاً في البداية لدرجة أن بائعي الكتب حاولوا فعل كل شيء للحصول على المزيد منها. كانوا يتمسكون بكُمِّ كل من يلتقون به: سيدي، يخاطبونه، هلا كتبت لنا بعضاً من الرسائل الفارسية!

لكن ما قلته للتو يكفي لإثبات أنها ليست مناسبة للاستمرار بكتابتها،[1] ناهيك باختلاطها برسائلَ[2] مكتوبة بيد أخرى، مهما كانت بارعة.

هناك بعض السمات التي وجدها كثير من الناس جريئة جداً. لكنهم مطالبون بالانتباه لطبيعة هذا العمل. الفُرْس، الذين يجب أن يلعبوا دوراً كبيراً فيها، وجدوا أنفسهم فجأة يتنقلون في أوروبا، أي في عالم آخر. هناك وقت كان من الضروري فيه تمثيلهم مليئين بالجهل والأحكام المسبقة،[3]

---

(1) أهي إشارة إلى (الرسائل الفارسية الجديدة) المترجمة عن الإنجليزية والمنشورة تحت عنوان (لندن) منذ العام 1735؟

(2) إشارة إلى (الرسائل التركية) لسان فوا، المرفقة بنسخة عام 1744: كولونيا، لدى بيير مارتو.

(3) «هوارت (بائع الكتب) يريد أن يصنع طبعة جديدة من «الرسائل الفارسية». لكن هناك القليل من الحوادث التي أود أن أتطرق إليها أولاً، على الرغم من أنه يجب على التركي أن يرى ويفكر ويتحدث باللغة التركية وليس بالمسيحية: هذا ما لا ينتبه إليه كثير من الناس عند قراءة الرسائل الفارسية». رسالة إلى الأسقف Guasco، في 4 تشرين الأول لعام 1752.

كان المهم فقط هو تسليط الضوء على الجيل والتقدم في أفكارهم. يجب أن تكون أفكارهم الأولى فردية: يبدو أنه لم يكن هناك شيء يمكن فعله سوى منحهم نوعاً من التفرد الذي يمكن أن يرأف بالروح. كل ما كان عليهم أن يرسموه هو الشعور الذي ينتابهم من كل شيء بدا غير عادي بالنسبة إليهم. بعيداً عن التفكير في أننا مهتمون ببعض مبادئ ديننا، فإننا لم نرَ في أنفسنا شيئاً من التهور. ترتبط هذه السمات دائماً بشعور الدهشة والاستغراب، وليس بفكرة البحث، ولا حتى بفكرة النقد. عند الحديث عن ديننا، لا بد أن هؤلاء الفرس لم يبدوا أكثر معرفةً مما كانوا عليه عندما تحدثوا عن عاداتنا وأعرافنا، وإذا وجدوا في بعض الأحيان عقائدنا فردية، فإن هذا التفرد دائماً ما يُمَيَّز في زاوية الجهل التام بالروابط الموجودة بين هذه العقائد وحقائقنا الأخرى.

إننا نصيغ عذرنا هذا بدافع حب هذه الحقائق العظيمة، بغض النظر عن احترام الجنس البشري، الذي لم نرغب حتماً بضربه في أكثر النقاط حساسية. لذلك نطلب من القارئ ألا يتوقف للحظة عن اعتبار السمات التي أتحدث عنها آثاراً لمفاجأة الأشخاص الذين لا بد أنهم امتلكوها، أو كمفارقات صنعها أناس لم يكونوا حتى في حالة تجعلهم قادرين على فعل ذلك. يرجى ملاحظة أن كل المتعة تتكون من التناقض الأبدي بين الأشياء الحقيقية والطريقة الفردية أو الساذجة أو الغريبة التي تُدرَك بها. من المؤكد أن طبيعة وهدف الرسائل الفارسية منفتحان للغاية لدرجة أنهما لن يخدعا إلا أولئك الذين يريدون خداع أنفسهم.

لا نرى في طبعة 1754، وهي آخر نسخة قدمها خلال حياته، أن مونتسكيو نقَّح ما يسميه (نتاج شباب).

رسائل فارسية

1721

مقدمة

أنا لا أصوغ هنا رسالة إهداء، ولا أطلب صون هذا الكتاب: سيقرؤه المرء، جيداً كان أو سيئاً، لذا فآخر ما يشغلني شأن قراءته.

لقد فصلت هذه الرسائل الأولى، لاختبار ذوق الجمهور: لدي عدد كبير من الرسائل الأخرى في جَعْبتي سأتمكن من تقديمها لهم لاحقاً.[1]

ولكن بشرط ألا أكون معروفاً، ففي اللحظة التي يصبح اسمي فيها مكشوفاً، سألتزم الصمت.

أعرف امرأة تمشي جيداً، لكنها تعرج عندما تنظر إليها.[2]

هناك ما يكفي من عيوب العمل عرضةً للانتقاد، لذا ما من داعٍ إلى أن أضيف عليها انتقاداً شخصياً. إنْ عَرَف امرُؤٌ من أنا، لقال: كتابه يتعارض مع شخصيته، عليه أن يستغل وقته بشيء أفضل، إن هذا غير جدير برجل جاد. لا يفوت النقاد هذه الأنواع من التأملات على الإطلاق، فيمكن للمرء أن يقوم بها دون بذل الكثير من المجهود الذهني.[3]

---

(1) ظهرت بعض هذه الرسائل في طبعة 1754 ومُيِّزَت بعلامة النجمة في طبعتنا.

(2) يقال بأنها كانت السيدة مونتسكيو.

(3) تؤخذ المحاولة هنا بمعنى وضعها في الاختبار، واستطراداً التعب والجهد. إنها عبارة خاصة بمونتسكيو. المصدر، الرسالة الحادية عشر: «أنت تتخلى عن عقلك لتستعين بعقلي».

إن الفرس الذين يكتبون هنا أقاموا معي، لقد عشنا معاً، وعندما نظروا إليّ كرجل من عالم آخر، لم يضطروا إلى إخفاء شيءٍ عني. في الواقع، عاد لا يكون لدى الأشخاص الذين نُقِلوا بعيداً عن أوطانهم حتى الآن أسراراً، فقد أبلغوني معظم رسائلهم، ونسختها. حتى إنني فاجأت بعضهم ممن كانوا سيحرصون على عدم الوثوق بي، كان الأمر مروِّعاً بالنسبة إلى الغرور والغيرة الفارسية.

لذلك أنا مجرد مترجم: كل ما كان عليّ فعله هو وضع العمل في سياق أعرافنا. لقد أعفيت قارئ اللغة الآسيوية قدر استطاعتي، وأنقذته من عدد لا حصر له من التعبيرات السامِيَة التي كانت ستلاحقه وتنغص عليه حتى في السماء.

ليس هذا كل ما فعلته من أجله. لقد حذفت الإطراءات الطويلة، التي لم يكن الشرقيون أقل سخاءً منا فيها، وقضيت على عدد لا حصر له من تلك التفاصيل الدقيقة التي تشكل صعوبة كبير في الحفاظ على اليوم العظيم، والتي يجب أن تفنى دائماً بين صديقين.

لو فعل معظم أولئك الذين قدموا لنا مجموعات من الرسائل الشيء نفسه، لكانوا قد رأوا بأم أعينهم تلاشي أعمالهم.

الشيء الوحيد الذي أدهشني في كثير من الأحيان، هو رؤية هؤلاء الفرس، أحياناً على دراية مثلي تماماً بعادات وأخلاق الأمة، حد معرفة أدق الظروف، وملاحظة الأشياء التي، أنا متأكد من أنها فرت من العديد من الألمان، الذين سافروا إلى فرنسا. أعزو ذلك إلى مكوثهم الطويل هناك: ناهيك بأنه من الأسهل بالنسبة إلى الآسيوي أن يتعلم العادات

الفرنسية في عام واحد، في حين يحتاج الفرنسي إلى أربعة أعوام لتعلم آداب الآسيويين، فالأول يسلم نفسه بالكامل في حين يتواصل الآخر قليلاً.

سُمِحَ لأي مترجم، وحتى أكثر المعلقين همجية، بتزيين رأس نسخته، أو تضمين تأويله، بمدح الأصل، وإبراز فائدته، وجدارته، وتميزه. لم أفعل ذلك: من السهل تخمين الأسباب. أفضل ما في الأمر هو أنه سيكون شيئاً مملاً للغاية، حيث يُوضَع في مكان هو ممل بحد ذاته سلفاً، أعني مقدمة.

من أرضروم في الثالث من شهر جمادى الآخرة من عام 1711

الرسالة الأولى

من أوزبك إلى صديقه ريستان في أصفهان

لم نُقِمْ سوى يومٍ واحدٍ في مدينة «قم»، وذلك بعد أن أدينا الصلوات على قبر السيدة العذراء التي أنجبت اثني عشر رسولاً.[1] استأنفنا رحلتنا، وقد وصلنا إلى مدينة «تبريز» في اليوم الخامس والعشرين لمغادرتنا «أصفهان».

ربما نكون أنا وصديقي ريكا أول الفرس اللذين جعلتهما الرغبة في المعرفة يهجران بلادهما، ويتخليا عن ملذات الحياة الهانئة، لينطلقا في بحثهما الجاد عن الحكمة.

لقد ولدنا في مملكة مزدهرة. لكننا لم نؤمن أن حدودها هي حدود معرفتنا، كما أننا لم نؤمن أن نور الشرق وحده ينبغي أن ينير طريقنا.

قل لي ما الذي يتداولونه حول رحلتنا. لا تجاملني، فأنا لا أعول على

(1) لقد كرِّمت السيدة فاطمة، ابنة محمد، زوجة علي، في مدينة قم الفارسية، والتي تبعد خمسين فرسخاً من أصفهان. مسجدها رائع، ويبلغ ارتفاع قبرها، المحوط بدرجات من الفضة الصلبة، اثني عشر قدماً ومغطى بقماش من المخمل الأبيض. يطلق المؤمنون عليها لقب: العذراء النقية، الأكثر عدلاً ونقاءً، أمّ اثني عشر من أحباء الله، ولادة لامعة. يعتقد الناس أن الله أخذ فاطمة إلى الجنة، وأن قبرها لا يحتوي إلا على نصب تذكاري رفعه المؤمنون. V. Bayle عند كلمة فاطمة.

عدد كبير من مؤيديه. ولْتُعَنْون رسالتك نحو «أرضروم»، حيث سأمكث لبعض الوقت. استودع الله عزيزي ريستان. واطمئن، لأنني وأينما حللت في هذا العالم سأكون صديقك المخلص.

تبريز في الخامس عشر من شهر صفر[1] عام 1711

(1) «صفر» هو الشهر الثاني من السنة الهجرية. في عام 1711م أي في عام 1123هـ، يوافق هذا شهر شباط في التقويم الميلادي.

الرسالة الثانية

من أوزبك إلى كبير الخصيان في قصر أصفهان

إنك الوصي المخلص على أجمل نساء الفرس، لقد عهدت إليك بأثمن ما أملك في هذا العالم: فها أنت تأخذ بين يديك مفاتيح هذه الأبواب العصية على الفتح إلا في وجهي. فبينما أنت تسهر على حراسة هذه الوديعة النفيسة على قلبي، فها هو القلب مرتاح ويتمتع بالأمن المستتب: تحرس في هدأة الليل وفي صخب النهار، رعايتك التي لا تعرف الكلل تسند الفضيلة إن تعثرت، فإن رغبت النساء اللواتي تقوم على حراستهن في التملص من واجبهن، ستجعلهن يفقدن الأمل، إنك لقاهر العار وعماد الأمانة.

أنت تأمرهنّ وتطيعهنّ، تنفذ رغباتهن بخضوع أعمى، وتجعلهن ينفذّن قوانين السراي[1] بالطريقة ذاتها، تجد الشرف في تقديم أتفه الخدمات، ترضخ باحترام لأوامرهن المشروعة، أنت تخدمهن كأنك عبد لعبيدهم. لكنك وبعودة سلطتك، تأمرهنّ مثلي كسيّدٍ، إن خشيت تهاونهن فيما يتعلق بقوانين الحياء والحشمة.

تذكر دائماً أنني انتشلتك من العدم، عندما كنت آخر عبيدي، ووضعتك

---

(1) السراي Sérail، كلمة تعني القصر، هي ليست مرادفاً لكلمة حريم، التي تعني مكاناً مخصصاً ومغلقاً للنساء فقط. في طبعات القرن الماضي يكتبونها دائما serrail.

في هذا المكان، وعهدت إليك بنعيم قلبي: التزم برضوخك بالقرب من أولئك اللاتي يتقاسمن حبي، وبذات الوقت، اجعل من شعور تبعيتهنّ مطلقاً. قدِّم لهنَّ كل ما يتسنى من الملذات البريئة، التي تضلل مخاوفهنّ، ومتعهنّ بالموسيقى والرقصات والمشروبات اللذيذة، واجذبهنّ إلى التجمع غالباً.[1] إن أردن الذهاب إلى الريف فاصطحبهن إلى هناك، واقتلوا كل الرجال الذين يظهرون أمامهن، ولتحثهنّ على الطهارة فهي صورة عن نقاء الروح، وحدثهنّ عني من حينٍ إلى آخر. أودّ رؤيتهنّ مرة أخرى في هذا المكان الساحر الذي يزيّنّه. وداعاً.

تبريز في الثامن من صفر من عام 1711

(1) الرسالة 47.

الرسالة الثالثة

من زاكي إلى أوزبك في تبريز

لقد أمرنا كبير المخصيين أن يصحبنا إلى الريف، سيخبرك بدوره بأن ما من حادث يُذكر قد أصابنا، وحين أردنا أن نعبر النهر تركنا هوادجنا، وكما جرت العادة، دخلنا في الصناديق: يحمل الصندوق عبدان على كتفيهما، ويعبران به، فلا يقع علينا النظر.

كيف لي أن أعيش يا عزيزي أوزبك في سراياك في أصفهان، في الأماكن التي تذكرني باستمرار بملذات الماضي، وتهيّج شهواتي في جموع متجددة كل يوم؟

هائمة على غير هدىً أبحث عنك بين أجنحة المكان، حيث لا جدوى وحيث لا ألقى سوى ذكرياتي القاسية لماضيّ الهانئ: فأراني تارة أعانقك للمرة الأولى، وتارة أخرى أراك تختلق الشجار الشهير بين نسائك اللاتي تدعي كل منهن غلبتها في الجمال على الباقيات: حيث برزنا أمامك بعد أن استنفدنا أقصى جهودنا في التجمّل والتزين بالحليّ، فرمقتنا متأملاً هذا الفن، ومفتوناً بالحد الذي وصلناه بغية نيل إعجابك، ولكن سرعان ما تخليت عن هذه السحر المستعار من نكهات طبيعية أكثر، لقد دمرت كل أعمالنا: كان من الضروري أن تظهر لكم في بساطة الطبيعة.

لكنك سرعان ما جعلتنا نتخلى عن هذا السحر المصطنع نحو الجمال الذي وهبتنا إياه الطبيعة، هادماً كل إنجازنا: كان علينا أن نتجرد من كل هذه الحلي المفرطة بالنسبة إليك، كي نبدو لناظريك كما تشاء على بساطة الطبيعة. لم يكن لديّ أدنى حشمة: لم أكن أفكر إلا في نصري، أوزبك السعيد! هذه المفاتن المنتشرة في ناظريك. تتنقل من فتنة إلى أخرى، وروحك الملتبسة مكثت طويلاً دون ثبات، كل حسن جديد يتطلب منك عبئاً، كنا في لحظة تغمرنا قبلاتك، تحمل نظراتك الفضولية إلى أكثر الأماكن سرية، جعلتنا نمر للحظة في آلاف المواقف المختلفة، وصايا جديدة وطاعات جديدة على الدوام. ها أنا أعترف لك يا أوزبك، أن شغفي بنيل رضاك كان طموحي الأكبر.

رأيت نفسي دون أن أعي وقد أصبحت سيدة قلبك، أمسكتني ثم أفلتني، ثم عدت إليّ، وعرفت كيف أستوقفك، كان هذا الانتصار هو كل شيء بالنسبة إليّ، واليأس يلفُّ منافِسَاتي، حين بدونا لكأننا وحدنا في هذا العالم، لا شيء يسترعي انتباهنا، وهنّ ـ أي منافساتي ـ ليكن الله في عونهن وهنّ يشهدن علامات الحب التي منحتني إياها! ولو كان بإمكانهنّ رؤية شغفي لأحسسن بالفارق بين حبهنّ وحبي لك، فلو استطعن منافستي في الجمال والسحر فهنّ لن يستطعن منافستي في مشاعري. ولكن أين أنا؟ وإلى أين تسير بي هذه القصة العبثية؟ لمن البؤس ألا يكون المرء محبوباً، لكنها إهانة بأن يفقد الحب.

لقد تركتنا يا أوزبك لتطوف المناخات البربرية. ماذا؟ أنت لا تدرك ميزة أن تكون محبوباً. يا للأسف! أنت لا تدرك ما الذي أنت فاقده!

إنني أتنهد بشكل غير مسموع، وتتدفق دموعي، وأنت لا تستمتع بذلك،

يبدو أن الحب يتنفس في السراي، ولا يزال انعدام إحساسك يبعدك عنه! آه يا عزيزي أوزبك، لو أنك تعرف فقط كيف تكون سعيداً!

من قصر فاطمة في الثاني والعشرين من شهر محرم[1] عام 1711

(1) شهر محرم هو الشهر الأول في السنة الإسلامية، لذلك كتبت رسالة زاكي قبل حوالي شهرين من الرسالتين السابقتين.

الرسالة الرابعة

من زيفيس الى أوزبك في أرضروم[1]

وفي النهاية، ها هو هذا الوحش الأسود يقرر أن يسلِّمني إلى اليأس. إنه يريد، بأي ثمنٍ، أن يسلبني جاريتي زيليد، التي تخدمني بكل مودة، والتي تعرف وبيديها الماهرتين كيف تزينني وتجملني وتمنحني كل الفتنة، فلا يكتفي بما أُعَاني من آلام الفراق، بل يريد أن يُلحق بي العار زيادة على ذلك.

إن هذا الخائن يتجرأ على إرجاع ثقتي بها إلى أشياء لا تخطر على البال، وما من سبب لافتراضه بأنه قد سمع أو رأى أشياءَ لا يمكن تخيلها سوى ضجره وهو يقف خارج الباب دائماً حينما أطرده من غرفتي. إن عفتي وخلوتي غير كافيتين لجعلي في مأمن من شكوكه الشاذة: غدا لزاماً عليّ أن أدافع عن نفسي وهو يهاجمني حتى فيما يتعلق بقلبك. إن احترامي الجليل لذاتي يمنعني عن الانحدار نحو تقديم مبررات: لا أرغب في إثبات آخر لسلوكي سوى حبك لي وحبي لك، وإن استدعى الأمر، عزيزي أوزبك، فدموعي ستتكفل بذلك.

من قصر فاطمة في التاسع والعشرين من شهر محرم من عام 1711

---

(1) أرضروم: مدينة تركية في القسم الآسيوي (أرمينيا).

الرسالة الخامسة

من ريستان إلى أوزبك في أرضروم

أنت حديث أصفهان بكاملها، هم لا يتحدثون سوى عن رحيلك. يعزونه إلى طيشك حيناً، وإلى كربك حيناً آخر: وحدهم أصدقاؤك من يدافعون عنك، لكنهم لا يقنعون أحداً. فالناس هنا لا يجدون سبباً مقنعاً يدفعك إلى ترك نسائك، وأهلك، وأصدقائك، وبلدك، نحو أجواء يجهلها أبناء الفرس. أما والدة ريكا فلا عزاء لها، وتطالبك بابنها، الذي تقول بأنك اختطفته.

أما بالنسبة إليّ يا عزيزي أوزبك، فأميل إلى الموافقة على كل ما تقوم به، إنما ليس بإمكاني أن أغفر لك غيابك عني، وقلبي لن يستسيغ أياً من تلك الأسباب التي يمكن أن تسوقها إليّ، على الإطلاق.

وداعاً، أحِبَّني على الدوام.

من أصفهان في الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول[1] من عام 1711

---

(1) هناك ربيع الأول وربيع الثاني وهما الشهران الثالث والرابع من السنة الهجرية الإسلامية.

الرسالة السادسة

من أوزبك إلى صديقه نصير في أصفهان

بعد مسيرة يوم من إيريفان، غادرنا بلاد فارس، لنصل إلى أرض الحكم التركي. وصلنا إلى أرضروم بعد اثني عشرة يوماً التي سنمكث فيها مدة ثلاثة أو أربعة أشهر.

لا بد وأن أعترف لك يا نصير بالألم العميق الذي انتابني حالما تلاشت بلاد فارس عن ناظري، ووجدت نفسي بين العثمانيين الغادرين.[1] ما إن دخلت أرض هؤلاء اللا دينيين حتى بدا لي أني أصبحت شخصاً ملحداً.

توافد إلى ذهني وطني وأسرتي وأصدقائي، وتفلَّت الحنان في داخلي: وتوصّل القلق إلى إزعاجي، وعلمت بأني، لأجل راحتي، قامرتُ بالكثير.

لكن ما يؤلم قلبي كثيراً يا نصير هنّ نسائي، فأنا لا أستطيع أن أفكر بهنّ دون أن يصيبني الكرب. ليس لأنني أحبهنّ: وجدت نفسي، في هذا الأمر، في حالة من عدم الإحساس لم تبْقِ لي شيئاً من الرغبة، فهناك حيث عشت في الحريم حذرت من الحب، ودمرته بذاته، ولكن غيرة دفينة تتفتق من برودتي الشديدة. فأنا أرى جمعاً من النساء متروكاً لأهوائه تقريباً، وليس

---

(1) من المعروف مدى كراهية الفرس، أتباع علي، للأتراك (العثمانيين أو العصمالان كما يسميهم مونتسكيو) الذين يعترفون بشرعية الخلفاء الثلاثة الأوائل.

هناك سوى أرواح جبانة تجيبني،[1] بالكاد سأكون مطمئناً إن كان عبيدي مخلصين لي: ماذا لو لم يكونوا؟ يا لها من أخبار محزنة تلك التي ستصلني وأنا أجوب تلك البلاد البعيدة! إنه ألم لا علاج له لدى أصدقائي، ومكان لا يجب أن يعلموا ما يخفيه من أسرار لئيمة: ثم ما الذي يمكنهم فعله حيال ذلك؟ أليس أن أصفح سراً خيراً بآلاف المرات من أن أجاهر بالعقوبة؟ عزيزي نصير ها أنا أسكب في قلبك كل أحزاني، إنّ لَفِي هذا عزائي الوحيد في حالتي هذه.

من مدينة أرضروم في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام 1711

---

(1) روح الشرائع، الفصل 16، 13.

الرسالة السابعة

من فاطمة إلى أوزبك في أرضروم

عزيزي أوزبك لقد مر شهران على غيابك، وليس بإمكاني إقناع نفسي بذلك بعد، لما أنا فيه من يأس. أنا أدير القصر، كأنك هنا، لست محبطة جداً. ما الذي تنتظره من امرأة تحبك، اعتادت أن تأخذك بين ذراعيها، لم يكن ليشغلها شيء سوى إثبات حنانها، حرة من حيث النسب، وعبدة لجبروت الحب؟

لم تكن عيناي قد رمقتا رجلاً قبل زواجي منك، وما زلت أنت الوحيد الذي يمنح لبصري هذا الحق:[1] إنني لا أضع هؤلاء المخصيين الفظيعين في مرتبة الرجال، فأدنى عيوبهم أنهم ليسوا كذلك. لا يمكنني إلا الشعور بالسعادة، حين أقارن وجهك بشناعة وجوههم، ما من بهجة يمكن أن يمدني بها خيالي أكثر من سحر شخصك الأخاذ، أقسم لك يا عزيزي أوزبك، إذا ما سُمح لي بمغادرة هذا المكان الذي يسيّجني بحكم وضعي، وتمكنت من الفرار بعيداً عن أعين الحراس، ومُنحت فرصة اختيار رجل من رجال هذي البلاد، التي تضم على أرضها مختلف الأجناس، فلن أختار سواك، أنت الوحيد الجدير بهذا الحب في العالم كله، يا أوزبك.

---

(1) تخضع النساء الفارسيات لتضييق أشد وطأة من النساء التركيات والهنديات (مونتسكيو).

لا تظن بأن غيابك جعلني أهمل جمالاً لطالما كان ذا قيمة لديك. فعلى الرغم من أن أحداً لن يراني، وأنك لن تسعد بزينتي، فإن عادةَ أن أحوز إعجابك ما زالت تحملني على التجمل والتزين: إنني لا آوي إلى فراشي إلا وتعبقني أطيب العطور.

أتذكر ذلك الوقت السعيد، حينما كنت في أحضاني. حلم مغرٍ، يغويني، يمنّ عليّ بالشيء الغالي من حبيبي. يتيه خيالي في رغباته، متعلقاً بآماله. أظنك أحياناً عائداً إلينا، مشمئزاً من رحلة شاقة. ويمضي الليل ما بين يقظة ونوم. أبحث عنك من حولي ثم يخيّل إليّ أنك تهرب مني، وأخيراً فإن النار التي تلتهمني هي ذاتها من تبدد هذا السحر وتوقظ روحي. حينها أجد نفسي شديدة الانفعال، قد لا تصدق ذلك يا أوزبك، فمن المستحيل أن يعيش المرء هذه الحالة، حيث النار تجري في العروق.

كيف لا أستطيع التعبير عن شعوري جيداً، وكيف أشعر بكل هذا ولا أستطيع أن أعبر لك؟! في هذه اللحظات يا أوزبك، قد أمنح العالم بأسره لأجل قبلة من قبلاتك. يا لتعاسة امرأة تمتلك كل هذا الكم من المشاعر الجياشة، فيما هي محرومة من الشخص الوحيد الذي بإمكانه إشباعها، متروكة لوحدتها من دون أن يصرفها شيء عنها، عليها أن تألف التنهد، وفي ثورة من الشوق الغاضب، وبقدر بعدها عن السعادة، ليس لها الحق بمنحها إلى شخص آخر! تزيّنٌ عديم الفائدة، للحفاظ على المكانة في القصر، وليس من أجل إسعاد زوجها! يا لقسوة قلوبكم معشر الرجال! تفتنون بمشاعرنا الملتهبة التي لا يمكن إشباعها، تعاملوننا لكأننا عديمات الإحساس، وتغضبون لكوننا كذلك: أتظنون أن مشاعرنا التي كبحت لزمن طويل سوف تتأجج لمجرد رؤيتكم. يا

لصعوبة أن تكون محبوباً، وما أقرب هذا اليأس الذي لا يجرؤ على انتظار جدارتكم!

وداعاً يا عزيزي أوزبك، وخذ بحسبانك دائماً أنني خلقتُ لأعبدك، روحي مملوءة بك، وأن غيابك لا ينسيني إياك، بل يلهب حبي، هذا إن كان هناك المزيد.

من قصر أصفهان في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام 1711

الرسالة الثامنة

من أوزبك إلى صديقه ريستان في أصفهان

لقد وصلتني رسالتك إلى أرضروم حيث أنا، لم أشك للحظة بأن رحيلي سيثير جلبة، لكنه صخب لا يزعجني، ما الحكمة التي تريدني أن أتبعها: حكمتي أو حكمة أعدائي؟

لقد عشت في البلاط منذ شبابي الغض، ويمكنني القول بأن قلبي استطاع ألا يفسد فيه: وتجرأت على أن أكون فاضلاً في الخطة التي رسمتها لنفسي. وما إن بدت لي الرذيلة حتى ابتعدت عنها، ثم اقتربت لأُسقط أقنعتها. لقد جلبت الحقيقة حتى أقدام العرش. أتكلم لهجة لم تكن معروفة: أثرت الإطراء وبذات الوقت أدهشت العباد والمعبود.

ولكنني عندما رأيت أن صراحتي قد خلقت لي أعداء، وأثارت غيرة الوزراء، ولم تجعلني أحظى برضا الأمير، وأنني وسط حاشية من الفساد، لا شيء يدعمني سوى فضيلة بائسة، حينها عقدت العزم على مغادرة البلاط. ادعيت تعلقي الشديد بالعلوم، وهذا التعلق هو من أوصلني إلى هنا. لم أتدخل في أي من الشؤون الأخرى. وانسحبت إلى منزل ريفي. لكن حتى هذه المغادرة كان لها عيوبها. وبقيت طوال الوقت معرضاً لمكر أعدائي، وكدت أن أفقد وسائل حمايتي. بضع رغبات سرية جعلتني أفكر

في نفسي بجدية: فحكمت على نفسي بالنفي عن وطني، وكان انسحابي مبرراً ومقبولاً، لذا ذهبت إلى الملك، وأظهرت له رغبتي في تعلم معارف الغرب، وأوحيت له بفائدة سفري عليه، وجدت نفسي قبالته: أنا أسافر، وأسلب أعدائي ضحية.

هذا هو يا ريستان السبب الفعلي لسفري، فلتدع كل أصفهان تتكلم، ولا تحاجج سوى أصدقائي، واترك لأعدائي تأويلاتهم الخبيثة، وعلى اعتبار هذه التأويلات هي جلّ ما يستطيعون إلحاقه بي من ضرر، فهذا يسعدني.

إنهم يتحدثون عني الآن، ولكنني عما قريب سأغيب عن ذاكرتهم تماماً، وإنَّ أصدقائي... لا، لن أستسلم لهذه الفكرة الحزينة إطلاقاً، يا ريستان: سأبقى عزيزاً عليهم دائماً، وإنني أعول على إخلاصهم، كما أعول على إخلاصك.

أرضروم في العشرين من شهر جمادى الآخرة من عام 1711[1]

---

(1) هناك شهران من جمادى هما: جمادى الأولى وجمادى الآخرة، وهما الشهران الخامس والسادس من السنة الهجرية الإسلامية.

الرسالة التاسعة

من كبير المخصيين إلى إيبّي في أرضروم

أنت تتبع سيدك القديم في رحلاته، تجوب برفقته المقاطعات والممالك، تستمتع فيما تراه ففي كل لحظة ترى شيئاً جديداً، ولا تشعر بمرور الوقت، ولا تجد الأحزان إليك سبيلاً.

إن حالي ليس كحالك، محبوساً في سجن رهيب، محوطاً بذات الأشياء، تتآكلني الأحزان ذاتها، أئن تحت عبء أعوامي الخمسين التي عشتها في إرهاق شديد وقلق مستمر. لا يمكنني أن أقول بأنني قد سعدت بيوم هانئ أو لحظة هادئة على امتداد هذا العمر الطويل.

وعندما هيأ سيدي لي مشروعه القاسي المتمثل بأن يعهد لي بنسائه، وأجبرني ما بين إغراء وتهديد شديد على التخلي عن رجولتي إلى الأبد، متعباً من كل الوظائف الشاقة التي عملتها، ظننت أنني كنت أضحي بشهوتي من أجل الراحة والثروة، كم كنت بائساً! شغلني عقلي بالمكسب عن الخسارة. كنت آمل أني قد تخلصت من هجمات الحب، من خلال عجزي عن إرضائه، وا حسرتاه! انطفأت آثار الشهوات في داخلي دون انكفاء أسبابها، وجدت نفسي ـ بعيداً كل البعد عن الارتياح ـ محوطاً بكل ما يثير الشهوات ومن دون توقف.

وأدخل القصر فأرى فيه كل ما يشعرني بالندم على ما فقدت: كنت أشعر بالحياة تدب في جسدي على الدوام! آلاف من النعم والمفاتن الطبيعية لم تكن تنكشف أمامي إلا لتجعلني أشعر بالأسى، ولتزيد الطين بلة، كنت طوال الوقت أرى أمام عيني رجلاً سعيداً. في مثل هذا الوقت المضطرب لم أكن أقود امرأة إلى سرير سيدي إطلاقاً، ولم أكن أعرّيها، إلا وعدت إلى بيتي والغيظ يملأ قلبي والإحباط المرعب يملأ روحي. هكذا أمضيت شبابي البائس، ليس لي سوى نفسي أُسِرّ إليها. مثقلاً بالسأم والأحزان، التي لا مفرّ من التهامها إيّاني: وتلك النساء اللواتي أحنّ إلى أنظر إليهنّ بعيون يملؤها الحب، لم أكن أقابلهنّ إلا بنظرات صارمة، ولو أدركن ما يدور في خَلَدي، ما جدوى ذلك؟

أتذكر ذات يوم بأنني وضعت امرأة في الحمام، شعرت بنفسي مشحوناً جداً، وبأنني فقدت صوابي بالكامل، وبأنني لا أجرؤ على وضع يدي في أماكن حساسة. اعتقدت، للوهلة الأولى، بأن هذا اليوم سيكون آخر يوم بالنسبة إليّ، كنت سعيداً لدرجة يمكن أن تحيي آلاف الموتى، لكن الجمال الذي أسرى العاطفة في ضعفي، باعني بسعر غالٍ للصمت، فقدت بشكل كامل سيطرتي عليه، وأجبرني منذ ذلك الوقت على الاستعلاء الذي عرّضني ألف مرة لفِقدان حياتي.

أخيراً خمدت نيران الشباب، وها أنا عجوز، أجد نفسي، في هذا الصدد، في حالة مريحة، أنظر إلى النساء بلا مبالاة، وأردّ لهن الإهانات، وكل العذابات التي جرَّعْنَني إياها. أتذكر دائماً أنني ولدت كي أسيطر عليهنّ، يبدو لي أنني سأسترد رجولتي في حال سنحت لي الفرصة بأن أسيطر عليهنّ مجدداً.

أكرههن إن قابَلْنَنِي بلا مبالاة، وتجعلني بصيرتي أرى كل ضعفهنّ. على الرغم من أنني أحرسهنّ لآخر، فإنني أجد لذة خفية في إخضاعهنّ، وعندما أحرمهنّ من كل شيء يخيّل إليّ بأن هذا الحرمان هو من أجلي فأشعر برضاً غير مباشر، وأجد نفسي في القصر لكأنني في إمبراطورية صغيرة خاصة بي، كما أجد تطلعي، وهو الشيء الوحيد الذي احتفظت به، مكتفياً إلى حدّ ما، وأرى نفسي مسروراً كوني محوراً لكل شيء في القصر، ولا يمكن الاستغناء عني لبرهة واحدة، لذا فإنني أتحمل حقد كل هؤلاء النساء اللاتي ثبتنني في منصبي هذا.

هن لا يتعاملن مع شخص بغيض: حيث يجدنني أقف أمام أكثر رغباتهنّ براءة كسد منيع، يضعن المشاريع وأقف حائلاً دون تحقيقها. أتسلح بالرفض محفوفاً بتأنيب الضمير، لا تعبر فمي سوى كلمات الواجب والفضيلة والاحتشام والخضوع، وأحزنهنَّ فيما أخبرهنّ باستمرار عن ضعف جنسهنَّ وعن سلطة سيدهنَّ. شاكياً من أنني مضطر إلى أن أكون شديد الصرامة، وبدا لي لكأنني أريد أن أجعلهنّ يدركن أن ما من دافع آخر سوى مصلحتهنّ، والتعلّق الشديد بهنّ.

والأمر ليس فقط أنني أعاني من مضايقات لا حصر لها، وأن هؤلاء النساء الناقمات لا يبحثن عن الرغبة في رد الصاع لما أفعله بهنّ، بل لديهنّ نكسات رهيبة،[1] وما بيننا هو أشبه بالمد والجزر ما بين السلطة والخضوع. كنَّ يكلفنني بأكثر الأعمال إذلالاً، تنم عن احتقار لا مثيل له: يوقظنني في الليل عشرات المرات لأكثر الأشياء تفاهة دون مراعاة لشيخوختي، مثقلاً

(1) الانعكاس باتجاه العودة أو الانتقام هو تعبير خاص بمونتسكيو.

دوماً بالأوامر والوظائف والنزوات، ويبدو أنهن يتناوبن على استخدامي، وأن أهواءهن تجر بعضها بعضاً، غالباً ما يحلو لهنّ أن يضاعفن رعايتي لهنَّ، فيخبرنني بأحاديث كاذبة: فتارة يخبرنني بأن هناك شاباً يبدو خلف الجدران، وتارة بأنهن يسمعن ضوضاء في تلك الناحية، وتارة أخرى بأن علينا أن نردّ على إشارته، وهنّ يتبادلن الضحكات على انزعاجي ويفتنهنَّ عذابي، وأحياناً أرابط بابهنّ فلا أغادره ليلاً نهاراً.

إنهنّ بارعات في التظاهر بالأمراض والضعف والمخاوف، ولا يفتقرن إلى الذريعة التي تقودني إلى الغاية التي يردنها. وفي مثل هذه الأحوال يتحتم عليّ الطاعة العمياء والرعاية اللا محدودة. عصيان الأمر من رجل مثلي هو شيء لن يُسمع به، وإن ترددت في طاعتهن سيكون لديهن الحق في تأديبي، لذا يا إيبي، أنا أفضل الموت على أن أنزل إلى هذا الدرك من الذل.

وهذا ليس كل ما في الأمر، فإنني لست واثقاً تمام الثقة في عطف سيدي، فلي في قلبه الكثير من العدوّات اللواتي لا يفكرن إلا في ضياعي: لديه أرباع من الساعات لا أسمع فيها شيئاً ولا يرفض خلالها لهنّ طلباً، أرباع من الساعات أكون أنا المخطئ فيها دائماً. إني أقود إلى فراش سيدي نساء غاضبات عليّ: أتعتقد أنهن يعملن في هذا السرير لمصلحتي، وأن جانبي سيكون هو الأقوى؟ إنّ جل ما أخشاه هو دموعهنّ وتنهداتهنّ وأحضانهنَّ: لأنهنَّ في معقل نصرهنَّ. وإنَّ فتنتهنَّ لتبُثّ الرعب في قلبي. فما يقدمنه لسيدي بتلك الخدمات الحالية يمحو في لحظة واحدة كل خدماتي السابقة، ولا شيء يمكن أن يقف في صفي لدى سيد لا يملك زمام نفسه.

كم مرة حدث أن أويت إلى الفراش برضى سيدي وغادرته وهو ساخط عليّ!

ماذا فعلت في اليوم الذي جلدت فيه بقسوة خارج القصر؟ تركت امرأة في ذراعَيْ سيدي! بمجرد أن رأته ملتهباً، ذرفت سيلاً من الدموع، تشكت، وقد كانت تبذخ في شكواها كلما زادت فيه الرغبة. فكيف بإمكاني دعم نفسي في مثل هذه اللحظة الحرجة؟ لقد ضعت من حيث لا أدري. كنت ضحية مفاوضات قوامها الشهوات، ومعاهدات أبرمتها التنهدات، هذه هي الحالة القاسية التي أعيش فيها دائماً، يا عزيز إيبي.

كم أنت سعيد! فاهتمامك يقتصر على شخص أوزبك، ومن السهل عليك أن ترضيه، وأن تظل محتفظاً بحظوتك لديه لبقية حياتك.

من قصر أصفهان، في أوائل شهر صفر من عام 1711

الرسالة العاشرة

من ميرزا إلى صديقه أوزبك في أرضروم

كنتَ الشخص الوحيد الذي يمكنه تعويضي عن غياب ريكا، كما أن ريكا هي عزائي عن غيابك. نحن نفتقدك يا أوزبك، فأنت روح مجتمعنا. يا للقسوة التي يتطلبها كسر أواصر العلاقات التي شكَّلها القلب والعقل!

نتجادل كثيراً هنا، وكثيراً ما تسري جدالاتنا حول الأخلاق. بالأمس، دار الجدال عما إذا كان الناس أسعد بإشباع حواسهم وإرضاء رغباتهم أو بممارسة الفضيلة. وكثيراً ما كنت أسمعك تقول بأن الناس ولدوا كي يكونوا فضلاء، وأن العدالة صفة ملازمة لهم كلزوم وجودهم، فهلا شرحت لي ما تعنيه بهذه العبارة لو سمحت؟

لقد تحدثت إلى المُلَّاك[1] فأصابني اليأس من شواهدهم القرآنية: لأنني لا أتحدث إليهم كمؤمن، بل كإنسان، وكمواطن، وكأب لعائلة، وداعاً.

من أصفهان في آخر شهر صفر من عام 1711

(1) المُلاّك أو المُلا، شخصيات دينية عند الفرس، وفي تركيا المُلا هو القاضي.

الرسالة الحادية عشرة

من أوزبك إلى ميرزا في أصفهان

تترك عقلك لتستعين بعقلي: وتتنازل باستشارتي، وتعتقد بأني مؤهل لتعليمك.[1] إنَّ صداقتك التي حظيت بها لترضيني أكثر من ثقتك برأيي.

لأجيبك عما أردت، ليس لزاماً عليّ أن أستخدم الحجج المجردة للغاية، فهناك بعض الحقائق التي لا يكفي فيها الإقناع، بل لا بد من الشعور بها، تلك هي بالضبط حقائق الأخلاق. لعل هذه القصة التاريخية تلامسك أكثر مما تفعله الفلسفة الدقيقة:

كان هناك في البلاد العربية شعب صغير يدعى تروجلوديت (سكان الكهوف) ينحدرون عن أجدادهم التروجلوديت القدماء، وقد كانوا ـ إن صدق كلام المؤرخين[2] ـ أشبه بالوحوش من البشر. لم يكونوا مشوهي الخلق، ولم يكن يكسو جلدهم الشعر كالدببة، لم يكونوا يصيحون، وكان

---

(1) الجاكسونية. كنا نقولها: لاستخدام عقلنا. في المقدمة استخدم مونتسكيو كلمة «جرب» بمعنى الاستخدام: أي يمكن للمرء أن يقوم بها (أي هذه الأفكار) من دون استعمال الكثير من العقل.

(2) هيرودوت، في الفصل الخامس، صـ133، يقول بلوتارخ، في حياة مارك أنتونيو، بأن هناك العديد من الشعوب بهذا اللقب في إفريقيا. بعد بومبونيوس ميلا، عاشوا في إثيوبيا، في كهوف (هذا ما يعنيه اسمهم)، وكانوا يتغذون على اللحوم النيئة، ولم يمتلكوا شيئاً، وكانوا يصفرون بدلاً من أن يتحدثوا.

لهم عيون، لكنهم كانوا شرسين ومتوحشين إلى حد غاب عنه مبدأ العدالة والإنصاف.

كان لديهم ملك من أصل أجنبي عنهم، أراد أن يشذّب شراسة طبيعتهم، فعاملهم بشدة، فاحتشدوا ضده وقتلوه، وأبادوا العائلة المالكة برمتها.

وبعدما حدث ما حدث، اجتمعوا لاختيار حكومة، وبعد جدال طويل عينوا قضاةً. لكن وبمجرد انتخابهم، أصبحوا لا يطاقون بالنسبة إليهم، فقتلوهم أيضاً.

هذا الشعب المتحرر من النير الجديد، عادت لا تحكمه سوى طبيعته الوحشية، واتفق أفراده على ألا يطيعوا أحداً بعد ذلك، وأن على كل شخص أن يرعى مصالحه الشخصية دوناً عن مصالح الآخرين.

كان هذا القرار الجماعي مُرضياً للغاية لجميع الأفراد، كان كل منهم يقول: لماذا أقتل نفسي في العمل من أجل أناس لا أهتم بهم مطلقاً؟ سأفكر في نفسي وحدها. سأعيش بسعادة، بمَ تهمني سعادة الآخرين؟ سأحصل على كل ما أحتاج إليه، وإن تم هذا الأمر فلا أهتم على الإطلاق كون سائر التروجلوديت بائسين.

كان شهر بذر الأرض، قال كل منهم: سأحرث حقلي فقط بما يزودني قمحاً كافياً لإطعام نفسي، كمية أكبر ستكون عديمة الفائدة بالنسبة إليّ: لن أجهد نفسي بغير طائل.

لم تكن أرض هذه المملكة الصغيرة ذات طبيعة واحدة: فمنها القاحلة ومنها الجبلية، ومنها الأرضية المنخفضة التي ترويها عدة جداول. في ذاك العام كان الجفاف شديداً جداً، فلم تحصل الأراضي المرتفعة على شيء

من الماء، في حين أن ما تم ريّها قد أخصبت بالخير بالوفير: وبالتالي فإن سكان الجبال كادوا يهلكون من الجوع، بسبب قسوة سكان المنخفضات، الذين رفضوا تقاسم الحصاد معهم.

جاء العام التالي غزير المطر: فعاشت الأماكن المرتفعة خصوبة غير معهودة، وغرقت الأراضي المنخفضة بالماء. فضجّ نصف الناس للمرة الثانية بسبب المجاعة، لكن هؤلاء البائسين وجدوا أشخاصاً عاملوهم بقسوتهم السابقة ذاتها.

وكان لأحد الأعيان زوجة رائعة الجمال، وقع جارها في حبها، واختطفها بعيداً: فنشأ شجار كبير بينهما، وبعد الإهانات والضرب، اتفقا على الإذعان لقرار رجل من التروجلوديت كان له بعض القدر إبان الجمهورية. ذهبا إليه وأرادا إخطاره بحججهما. ما الذي يهمني ـ قال ذاك الرجل ـ سواء أكانت هذه المرأة لك أم له؟ لدي حقل أحرثه، لن أضيّع وقتي في حلّ نزاعكما، وإهمال شؤوني لأنشغل بقضيتكما. أرجوكما دعاني في هدوء، ولا تزعجاني بعد الآن بعراككما. ولم يكتف بذلك بل عافهما وانطلق ليعمل في أرضه. كان الخاطف أقوى الطرفين، فأقسم أنه يفضّل الموت على أن يردَّ المرأة إلى صاحبها، عاد الآخر المشبع بظلم جاره وقسوة القاضي في حال من اليأس المدقع، وإذ بامرأة شابة جميلة في طريق عودتها من النبع: عاد لا يكون لديه زوجة، وقد أسعدته هذه المرأة، وزاد فرط سعادته حين علم بأنها زوجة من اتخذه قاضياً، لم يكترث لما كان فيه من سوء حال، فاختطفها مصطحباً إياها إلى منزله.

كان هناك لرجل حقل خصب إلى حد ما، وقد زرعه بعناية فائقة: اتفق عليه اثنان من جيرانه، وطرداه من منزله، واحتلا حقله: واتحدا فيما بينهما

للدفاع عن أنفسهما ضد كل من يحاول اغتصابه منهما، وبالفعل، فقد دعما بعضهما لأشهر عدة. لكن أحدهما سئم من اقتسام ما يمكن أن يكون له بمفرده، وقتل الآخر، وأصبح سيد الحقل وحده. لكن ملكه هذا لم يدم طويلاً، فقد هاجمه اثنان من التروجلوديت، ووجداه أضعف من أن يدافع عن نفسه، فقتلاه.

وكان هناك رجل من التروجلوديت شبه عارٍ، رأى صوفاً معروضاً للبيع، فسأل عن ثمنه، وقال في نفسه: من الطبيعي ألا أبتغي من صوفيّ إلا مبلغاً من المال يكفي لشراء مكيالين من القمح، لكنني سأبيعه بأربع أضعاف ثمنه وبذلك أشتري ثمانية مكاييل من القمح. وبالفعل تم الأمر، ودُفع الثمن المطلوب. قال التاجر: أنا الآن مرتاح البال، سأحصل على القمح فوراً. ما الذي تريده ـ قال المشتري ـ أأنت بحاجة إلى القمح؟ لدي البعض منه للبيع، لكن لربما سيفاجئك السعر، لأنك تعرف أن القمح مكلف للغاية، وأن المجاعة تسود في جميع الأرجاء تقريباً، ولكن رد لي ما أخذت من المال لأعطيك مكيالاً واحداً من القمح، فلن أرضى بسوى ذلك، حتى وإن مت جوعاً.

وحدث أن أصاب البلاد تلك مرض عضال، فجاءها طبيب من بلد مجاور، وقدم العلاج الناجع لشفاء كل المرضى. وبعدما زال المرض، عاد إلى كل من عالجه مطالباً بأجره، فقوبل الرفض: عاد إلى بلده مرهقاً من الجهود التي بذلها في هذه الرحلة الطويلة.

وبعد فترة وجيزة سمع بتفشي المرض مجدداً، وقد اشتدت وطأته إلى درجة لم تعهدها من قبل في تلك البلاد الجاحدة. فذهب إليه القوم مجدداً، ولم يظفروا بمجيئه إليهم. اذهبوا ـ قال لهم ـ أيها الرجال الظالمون،

لديكم في أرواحكم سُمّ هو أفتك من السم الذي تودون العلاج منه. أنتم لا تستحقون أن تشغلوا حيزاً على هذه الأرض، أنتم عديمو الإنسانية، وتجهلون قواعد الإنصاف: أعتقد أنني أعصي الآلهة التي عاقبتكم، إن اعترضت عدالتها في حنقها منكم.

من أرضروم، في الثالث من شهر جمادى الآخرة من عام 1711

الرسالة الثانية عشرة

من أوزبك إلى الشخص نفسه في أصفهان

لقد رأيت يا عزيزي ميرزا، كيف أن التروجلوديت لم يهلكهم سوى شَرّهم ذاته، وكانوا ضحايا ظلمهم. ومن العائلات الكثيرة لم تنجُ إلا أسرتان من مصائب القوم، ذلك لأن رجلين تفردا بسلوكهما للغاية، وتمتعا بالإنسانية، وعرفا العدالة، وأحبا الفضيلة: واتحدا بصلاح قلبيهما بقدر فساد قلوب الآخرين، ورأيا التنافر يسود الشعب فأحسا بالشفقة عليه، فكان هذا سبباً أكبر لاتحادهما. عملا في تضامن مشترك لأجل منفعة مشتركة، ولم ينشأ بينهما جدال إلا بما تمليه الصداقة العذبة والرقيقة بينهما: وعاشا في مكان ناءٍ عن شعبهم الذي لا يستحق أن يعاشراه، وعاشا حياة سعيدة هانئة. يبدو أن الأرض التي تؤتي ثمارها من تلقاء نفسها، تزرعها هذه الأيدي الفاضلة.

كانا يحبان زوجتيهما، وكانا يعاملانهما بحنان فائق، وكان جل اهتمامهما ينصبّ على تربية أولادهما على الفضيلة، فكانا يعرضان عليهم دائماً مآسي شعبهم، ويضعان نصب أعينهم هذا المثال المحزن عبرة لسلوكهم، وكان أهم ما حرصا عليه قبل كل شيء أن يُشعروهم بأن مصلحة الأفراد ترتبط بالمصلحة المشتركة، فإن فُصِلَتا فُقِدَتا، وأن ممارسة الفضيلة ليست مرهقة، ولا يجب اعتبارها ممارسة شاقة، وبأن إنصاف الآخرين هو إحسان للنفس.

وسرعان ما قرت أعين الأبوين الفاضلين بأبنائهما اللذين يشبهانهما، وتكاثر الشبان الذين نشؤوا أمام أعينهما من خلال زيجات سعيدة: نما عددهم وزاد تعاضدهم، ولم تضعف فضيلتهم بل تعززت بازدياد نماذجهم الفاضلة.

من المعنيّ بسعادة شعب التروجلوديت هنا؟

إن شعباً بمثل هذه الاستقامة لمحبوب من قبل الآلهة، فما إن فتح عينيه وتعرّف إلى الآلهة، حتى انتابته خشيتها، وليَّن الدين من الأخلاق ما تركته الطبيعة جافاً.

أقاموا أعياداً تكريماً للآلهة، حيث تحتفل بها الفتيات المزينات بالورود كالفتية الراقصين على أنغام الموسيقى الريفية، ثم تمتد موائد العيد التي يسودها الفرح بقدر ما تسودها البساطة.

في هذه التجمعات تسود الطبيعة الفطرية، هناك يتعلم المرء تبادل المحبة، وفي جو البساطة العفوية الخجولة يظهر اعتراف مباغت بالحب، سرعان ما يباركه الآباء، أما الأمهات العطوفات فيطيب خاطرهن لما يتوقعن من زواج وفِيّ وهانئ.

يذهبون إلى الهياكل لاستجداء نِعَم الآلهة، لم تكن طلباتهم لأجل غنىً فاحش ووفرة كثيرة، فمثل هذه الأمانيّ لا تليق بالتروجلوديت السعداء، ما من رغبات يدركونها إلا لرضى مواطنيهم وحسب، ولا يتضرعون عند أقدام المذابح إلا ليطلبوا من الآلهة صحة آبائهم، واتحاد إخوانهم، وحنان زوجاتهم، ومحبة أبنائهم وبِرّهم. وتأتي الفتيات إلى المعبد وفي قلوبهنّ إيثار عظيم، فلا يطلبنَ إلا توفيقاً بإسعاد أزواجهنّ التروجلوديت.

وفي المساء، حين تعود القطعان من المروج، وتتخلص الثيران من محاريثها، يجتمعون على مائدة يسيرة، يتحدثون عن ظلم التروجلوديت الأوائل، وعن مصائبهم، ويتغنون بالفضيلة الناشئة مع الشعب الجديد، وبنعيمه. كانوا يحتفلون بعظمة الآلهة، وفضائلها التي ينالها من يستجديها، وغضبها الحتمي لمن لا يخشاها: ثم يصفون مسرات الحياة الريفية التي يعيشونها، وسعادة تزينها البراءة، ثم يستسلمون لنوم هانئ لا ينغصه أبداً حزن أو همّ.

لم تبخس عليهم الطبيعة بشيء من حاجاتهم، وأصبح الجشع في هذا البلد السعيد غريباً: وتبادل أهله الهدايا فكان كل منهم يشعر بتميزه من خلال عطاياه، واعتبر شعب التروجلوديت نفسه أسرة واحدة، وكادت قطعان الماشية تختلط بعضها ببعض، وكان التعب الوحيد الذي يتفاداه هذا الشعب هو اقتسام هذه القطعان.

من أرضروم في 6 من جمادى الآخرة من عام 1711

الرسالة الثالثة عشرة

من أوزبك إلى الشخص ذنفسه

لا أستطيع عن أخبرك بما فيه الكفاية عن فضيلة التروجلوديين، فقد قال أحدهم ذا يوم: «إن على أبي أن يحرث حقله غداً، لذا سأستيقظ قبله بساعتين، وعندما سيصل إلى حقله سيجده محروثاً».

وقال آخر في نفسه: «يبدو أن أختي قد أحبت شاباً من أقاربنا، يجب عليّ أن أتحدث مع والدي وأحمله على مباركة هذا الزواج».

وجيء إلى شخص ثالث ليخبروه بأن اللصوص قد سلبوا قطيعه، فقال: «إن ما أغضبني هو أنّ هناك عجلاً ناصع البياض كنت أود تقديمه قرباناً للآلهة».

وسمع أن شخصاً قال لآخر: «عليّ أن أذهب إلى المعبد، لأن أخي الذي يحبه أبي كثيراً والذي أحبه بقوة، قد استعاد عافيته».

وآخر: «إن هناك من يزرعون الحقل المجاور لحقل أبي، ويتعرضون لوهج الشمس يومياً، يجب عليّ أن أزرع شجرتين في ذاك المكان، ليستطيع هؤلاء المساكين أن يرتاحوا بفيء ظلالهما».

في يوم من الأيام اجتمع حشد من التروجلوديت، فقال رجل عجوز بأنه يشتبه بأن شاباً منهم قد ارتكب فعلاً شائناً، ووبخه، نحن لا نعتقد بأنه اقترف هذا الجرم، وإن فعل فليكن آخر من يموت من أسرته!

قيل لرجل منهم بأن غرباء قد نهبوا بيته، وسرقوا كل ما فيه من متاع، فقال: «إن لم يكونوا ظالمين، متعتهم الآلهة به أكثر مما تمتعت».

لكن الرخاء لا يعبر من دون حسد: اجتمعت الشعوب المجاورة لهم ضدهم، وتذرعوا بحجج باطلة، وقرروا أن يسلبوهم قطعانهم، ولمجرد معرفة التروجلوديت بهذا القرار، أرسلوا إليهم مبعوثين من قبلهم، خاطبوهم بالتالي:

«ماذا فعل بكم التروجلوديت؟ هل سَبوا نساءكم وسلبوا ماشيتكم وخربوا حقولكم؟ لا، نحن قوم عادلون، ونخشى الآلهة. ما الذي تريدونه منا؟ أتبتغون صوفاً تنسجون منه ثيابكم؟ أحليباً من قطعاننا وثماراً من أرضينا؟ أسقطوا أسلحتكم، وتعالوا إلينا، ستنالون كل ذلك. لكننا نقسم بأقدس أيماننا، أنكم إن دخلتم أرضنا كأعداء، فسنراكم شعباً غاشماً، وسنتعامل معكم كوحوش برية».

قوبلت هذه الكلمات بازدراء من قبل الشعب الغريب، واقتحم القوم المتوحش مزَوَّداً بالأسلحة أرض التروجلوديت، معتقدين بأن ما من سلاح بحوزتهم سوى براءتهم، لكنهم كانوا على أهبة الاستعداد، وضعوا أطفالهم ونساءهم في وسطهم، وصدمهم بطش أعدائهم لكثرتهم. دبّت الحماسة في قلوبهم، فالابن أراد أن يفتدي أباه، والزوج أن يموت من أجل زوجته وأبنائه، وآخر من أجل أخوته، وذاك من أجل أصدقائه، وذلك من أجل شعب التروجلوديت: من قضى نحبه حل محله آخر ما زالت لديه الرغبة في الانتقام في سبيل القضية المشتركة.

كانت تلك المعركة بين الظلم والفضيلة، فتلك الشعوب الجبانة، التي

لم تسعَ إلا إلى الغنائم، لم تخجل من الفرار، واستسلموا أمام فضيلة التروجلوديت، دون أن يأخذوا منها العبر.

أرضروم في التاسع من شهر جمادى الآخرة من عام 1711

الرسالة الرابعة عشرة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

على مر الأيام ازداد عدد الشعب، واعتقد أن من المناسب أن ينصبوا ملكاً عليهم: واتفقوا على أن يتوجوا أعدلهم، فوقعت أنظارهم جميعاً على شيخ جليل ذي سنٍّ وفضل عميم، لكنه لم يشأ أن يحضر هذا الاجتماع، وانسحب إلى بيته يرافقه الكَرْب.

ولما أرسلوا له نواباً ليخبروه بالقرار الذي اتخذوه، قال لهم: لا سمح الله بأن أكون الشخص الذي يوقع التروجلوديت بخطأ كهذا فيعتقدون بأنني الأعدل بينهم! أنتم تحيلون إليّ التاج، وعليّ أن أقبله إن كنتم مصرُّون على ذلك، لكن ليكن في حسبانكم أنني سأموت ألماً لأنني عاصرت نشأة التروجلوديت الأحرار، وها أنا الآن أراهم خاضعين لحاكم. قال هذه الكلمات وسيل من الدموع ينذرف من مقلتيه، يوم مؤسف! لماذا عشت طويلاً؟ ثم صرخ بصوت حاد: أرى أيها التروجلوديت بأن الفضيلة بدأ تثقل كاهلكم، كنتم تحملون أنفسكم على الفضيلة قسراً، في الحال التي كنتم عليها، دونما حاكم، ومن دون هذا لن تثبتوا عليها طويلاً، وستقعون في شقاء أسلافكم. غير أنّ هذا النير يبدو شديداً عليكم: فأنتم تفضلون أن تخضعوا لأميرٍ، وتطيعوا قوانينه، فهي أقل قسوة من خصائلكم، وتعلمون بأنكم حينها ستتمكنون من تحقيق طموحاتكم، وزيادة ثرواتكم، قابعين

في إرادة جبانة، وبأنكم إن استطعتم الخلاص من الكبائر فلستم في حاجة إلى الفضيلة. ثم توقف برهة عن الكلام، وانهمر دمعه ببكاء لم يحدث من قبل، ما الذي تتوقعون مني فعله؟ كيف بإمكاني أن أطلب من أحدكم فعلاً ما؟ أتودون أن يقوم شخص ما بفعلٍ فاضلٍ لأنني أمرته به؟ وهو من كان ليقوم به تلقائياً بحكم طبيعته الفاضلة. أيها التروجلوديت، إنني في آخر أيامي، ودمي قد تجمد في عروقي، وأوشك أن أرى أسلافكم الكرام مجدداً، لماذا تريدون مني أن أبتليكم، وأترككم ترزحون تحت عبودية سوى عبودية الفضيلة ذاتها؟

أرضروم في العاشر من شهر جمادى الآخرة من عام[1] 1711

(1) تتجسد في هذه اللوحة لشعب التروجلوديت بذرة أفكار موجودة في «روح الشرائع». إنه هاجس مونتسكيو في أن اقتسام الأراضي، من خلال خلق الثروات وانعدام المساواة، قد أبعد الفضيلة عن الأرض. إن إحدى أفكاره المفضلة أن الجمهورية هي مكان الفضيلة الأوحد، وأن النظام الملكي اختُلِقَ كي يكون هناك أناس أغنياء وطماعون متنصّلون من العقاب (روح الشرائع، الفصل الثالث، 3 ـ 7، الفصل الرابع، 2 ـ 5).

الرسالة الخامسة عشرة

من كبير الخصيان إلى جيرون

المخصي الأسود في أرضروم

أدعو من اللّه أن يكون معك في كل هذي البقاع، وأن ينجيك من كل المخاطر. على الرغم من أنني لم أختبر هذا النوع من العلاقات، والتي تسمى الصداقة، وأنا المنطوي على نفسي، فإنك جعلتني أشعر بأن لدي قلب. وبينما كنت قاسياً مع كل أولئك العبيد الذين يعيشون تحت إمرتي، كنت أرقب بسرور طفولتك التي تنمو.

وكان لزاماً على الطبيعة أن تتحدث حين حالت القيود بينك وبينهما، عندما وقعت عينا سيدي عليك. لن أبوح لك عما إذا كنت أشعر بالألم أو بالسرور وأنت ترقى إلى مكانتي، وقد كففت دمعك وهدّأت من صراخك. وتيقنت بأني أراك تولد مجدداً، تخرج من عبودية كان عليك خلالها أن تخضع دائماً، إلى أخرى تخولك أن تأمر. لقد اعتنيت بتعليمك، والشدة لا تنفصل عن التربية، وتقصدت أن أجعلك تجهل كم أنك عزيز عليّ. بيد أنني سأخبرك الآن، ما الذي كنته بالنسبة إليّ: لقد أحببتك كما يحب أب ابنه، هذا إن كان لقب الأب والابن يناسب حالتنا التي غدونا عليها. ستجوب بلاداً يسكنها المسيحيون، أولئك الذين لم يؤمنوا قط، ويستحيل

عليك أن تسلم من خطاياهم. كيف للنبي أن يرعاك وأنت بين ملايين من أعدائه؟ أرجو أن يحج سيدي إلى مكة عند عودته: ستتطهرون جميعاً في أرض الملائكة.

من قصر أصفهان في العاشر من شهر جمادى الآخرة من عام 1711

الرسالة السادسة عشرة

من أوزبك إلى الملاك محمد علي
حارس المقابر الثلاث في قم[1]

لماذا تعيش في القبور، أيها المُلّاك المقدس؟ أنت من يليق بك المكوث بين النجوم، لا بد من أنك تختبئ، خوفاً من أن تحجب الشمس: ليس لديك آثار هذا النجم، لكنك مثله، تُدَثّر نفسك بالغيوم.

علمك أعمق من محيط: عقلك أكثر كشفاً من ذي الفقار،[2] سيف عليٍّ ذي الحدين: أنت تعرف ما يحدث في جوقات القوى السماوية التسع: تقرأ القرآن على صدر نبينا الرباني، وعندما يقابلك معبر مظلم، ينزل ملاك، بأمره، من العرش وينشر جناحيه السريعين، ليكشف لك ما خفي عنك.

يمكنني، عن طريقك، التواصل مع السيرافيم: لأنك أخيراً الإمام الثالث عشر،[3] ألست المركز الذي تنتهي فيه السماء والأرض، ونقطة الاتصال بين الهاوية والقمة؟

---

(1) المقابر الثلاث هي: قبر فاطمة واثنين من عائلتها المقدسة.

(2) ذو الفقار هو سيف تلقاه علي من النبي محمد، احتُفِظَ به كرمز ديني في منزل الخلفاء عبر الزمن، حتى كسره أحد أحفاد عبد الله الثاني أثناء معركة، وما يزال ممثلاً على أعلام البحرية العثمانية. (ملاحظة من دار نشر داليبون، باريس، عام 1820).

(3) يُعتبر أول اثني عشر خلفاً لمحمد أئمة مقدسين أو أنبياء. الإمام الثالث عشر هو إطراء، كما لو أنه سيكون الرسول الثالث عشر.

أنا في وسط شعب قذر: اسمح لي أن أطهر نفسي معك: يشقيني الْتِفَاتي الدائم نحو الأماكن المقدسة التي تسكنها، فلتميّزني من بين السيئين، كما نميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود عند بزوغ الفجر،[1] ساعدني بنصائحك، اعتنِ بروحي، أسْكِرها بروح الأنبياء، غذِّها بمعرفة الجنة، واسمح لي أن أضع جراحها عند قدميك. أرسل إليّ رسائلك المقدسة إلى أرضروم، حيث سأبقى لبضعة أشهر.

من أرضروم في الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة من عام 1711

---

(1) يبدأ النهار عند المسلمين لحظة تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

الرسالة السابعة عشرة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

أيها الشيخ الصوفي، لا أستطيع أن أروض صبري، في انتظار إجابتك السامية. لدي شكوك، لا بد من يقين يفنيها: أشعر بأن عقلي هائم على وجهه، أعِدْهُ إلى صراط، تعالَ وأَنِر لي طريقي، يا مصدر ضوئي، واصعق، بقلمك الإلهي، الصعوبات التي سأعرضها عليك، وارحمني من نفسي، فإنني خجل من السؤال الذي سأطرحه عليك:

من أين يأتي مشرعنا ليحرمنا من لحم الخنزير، ومن كل لحم يسميه نجساً؟[1] لماذا يمنعنا من لمس جسم الميت، ويأمرنا بالاغتسال المستمر من أجل تنقية أرواحنا؟ يبدو لي أن الأشياء ليست نقية ولا نجسة في حد ذاتها: لا يمكنني إدراك أية صفة كامنة في الموضوع يمكن أن يجعلها كذلك. يبدو لنا الطين قذراً فقط لأنه يؤذي بصرنا، أو بعض حواسنا الأخرى: لكنه في حد ذاته لا يختلف عن الذهب والماس. إنّ فكرة التدنيس بلمس جسد الميت، جاءت إلينا فقط من نفور طبيعي معين لدينا. ولولا تَأَذِّي حاسة الشم والبصر من الأجساد التي لا تغتسل، فكيف للمرء أن يتخيل انعدام نقائها؟

---

(1) روح القوانين، الفصل الخامس والعشرون، الصفحة 25.

لذلك يجب أن تكون الحواس، أيها الملاك الإلهي، هي الحكم الوحيد لنقاء أو دنس الأشياء؟ ولكن، بما أن الأشياء لا تؤثر في الناس بنفس الطريقة، فمنها ما يمنح إحساساً لطيفاً إلى بعضهم، وما ينتج إحساساً مثيراً للتقزز عند آخر، ويترتب على ذلك أن شهادة الحواس لا يمكن أن تعتمد هنا كقاعدة، إلا إذا قيل بأن كل فرد يمكن، برغبته، أن يقرر هذه النقطة، وأن يميز، بالنسبة إليه، بين الأشياء طاهرها ودَنِسها.

ولكن ألن يقلب هذا، أيها الملاك المقدس، القواعد التي أقامها نبينا الإلهي، والنقاط الأساسية للقانون التي سطرته يد الملائكة؟

من أرضروم في العشرين من شهر جمادى الآخرة من عام 1711

الرسالة الثامنة عشرة

من محمد علي خادم الأنبياء إلى أوزبك في أرضروم

أنت تسألنا دائماً أسئلة كنا قد طرحناها على نبينا الكريم ألف مرة. ألم تقرأ أقوال العلماء؟ ألم تقصد الينابيع الصافية لكل العقلاء؟ ستجد هناك ما يجعل شكوكك تتلاشى.

بائسون! أولئك الذين ينشغلون دائماً بشؤون الأرض، ولم يتأملوا إطلاقاً شؤون السماء، والذين يقدسون الملاك، دون أن يجرؤوا على اللقاء بهم أو على اتّبَاعهم!

دنيويون! أولئك الذين لم يدخلوا أبداً في أسرار الأبدية، إذ إن أنوارهم أشبه بظلام الهاوية، وعقلهم أشبه بالغبار الذي تثيره أقدامهم، في حين أن الشمس تسكن وسط السماء، في شهر شعبان الحار.

ثم إنّك وأنت في ذروة عقلك لا تبلغ إلى حضيض أصغر الأئمة:[1] فلسفتك العبثية كالبرق الذي يؤذن بالعاصفة وبالظلام: وأنت في منتصف العاصفة، تعصف بك الرياح على هواها.

من السهل جداً الإجابة عن معضلتك: لكن لا بد، من أجل هذا، أن

(1) هذه الكلمة أكثر استخداماً بين الأتراك منها بين الفرس. (مونتسكيو) نكتب اليوم (iman) لنعني بها إمام المسجد.

أخبرك فقط بما حدث يوماً ما لنبينا الكريم، عندما أغواه المسيحيون، وواجهه اليهود، وقد خلط بين أحدهم والآخر.

سأل اليهودي عبدياس إبصالون[1] النبي محمد: لماذا حرم اللّٰه أكل لحم الخنزير؟ فأجابه: إنه حيوان قذر، وسأقنعكم بذلك. شكل بالطين هيئة رجل على يده، ألقى به على الأرض، وصرخ به: قف. وقف رجل على الفور وقال: أنا يافث، ابن نوح. هل كان لديك شعر أبيض عندما مِتَّ؟ قال النبي الكريم: لا، أجاب الرجل، ولكنك حينما بعثتني، ظننت أن يوم الدين قد حان، وكنت خائفاً للغاية، إلى درجة أنك جعلت شعري يَبْيَضّ فجأة.

قال رسول الله: الآن أخبرني قصة سفينة نوح بأكملها. أطاعه يافث، وفصّل كل ما حدث بالضبط في الأشهر الأولى، ثم أكمل على النحو التالي:

نضع فضلات جميع الحيوانات في جانب واحد من الفلك، مما تسبب في ميلانها كثيراً، حتى انتابنا الخوف بشكل مميت، وبالأخص زوجاتنا، اللواتي ندمن شديد الندم. وحين مكث كان والدِنا نوح في حضرة اللّٰه، أمره بأخذ الفيل، وجعلِه يدير رأسه إلى الجانب المائل من الفلك. صنع هذا الحيوان العظيم الكثير من الفضلات، لدرجة أن الخنزير وُلِد منها. هل تعتقد يا أوزبك بأننا امتنعنا عنه منذ ذلك الوقت، وأننا نظرنا إليه كحيوان قذر؟

ولكن بينما كان الخنزير يثير القذارة كل يوم، كان ينشر رائحة كريهة في الفُلك، لدرجة أنه لم يستطع حتى هو نفسه أن يمنع نفسه من العطس، وخرج من أنفه فأرٌ، كان سيقضم كل ما كان أمامه: والذي بدوره أصبح

---

(1) تقليد محمدي (مونتسكيو).

غير محتَمل بالنسبة إلى نوح، حتى إنه فكر باستشارة اللّٰه مرة أخرى. فأمره بإعطاء الأسد ضربة كبيرة على جبهته، فعطس أيضاً وأطلق قطة من أنفه. هل تعتقد بعد ذلك بأن هذه الحيوانات ما زالت كريهة؟

إن كنت لم ترَ سبب تلوث بعض الأشياء، فذاك يعود إلى تجاهلك أشياء أخرى كثيرة، ولا علم لك بما حدث بين اللّٰه والملائكة والناس. أنت لا تعرف قصة الخلود، ولم تقرأ الكتب السماوية، وما كُشف عنه لك ليس سوى جزء صغير من المكتبة الإلهية: وأولئك الذين، مثلنا، هم الأقرب إليها، ومع ذلك فهم في هذه الحياة، ما زالوا في غياهب الظلمات. وداعاً: أدام اللّٰه محمداً في قلبك.

من قم في اليوم الأخير من شهر شعبان من عام 1711

الرسالة التاسعة عشرة

من أوزبك إلى صديقه ريستان في أصفهان

مكثنا في توقات ثمانية أيام فقط، وبعد خمسة وثلاثين يوماً وصلنا إلى إزمير.

لم نجد ما بين توقات وإزمير مدينة واحدة تستحق الذكر. وقد رأيت متعجباً ضعف الإمبراطورية العثمانية. هذا الجسم المريض لا يدعم نفسه بنظام لطيف ومعتدل، بل بعلاجات عنيفة، تستنفده وتُقَوِّضه باستمرار.[1]

إنّ البَشَوات، الذين لا يتنعمون بالمناصب إلا عن طريق المال، يصلون إلى المقاطعات التي سيحكمونها خالِي الوفاض، فينهبونها ويفسدونها لكأنهم غزاة، حيث الجيوش العاتية تقودها نزواتها. فتُدَمَّر الساحات، وتُقْفِر المدن، ويصبح الريف خاوياً، وتصبح الزراعة والتجارة متروكتين.

يسود الإفلات من العقاب هذه الحكومة البَطِشة: المسيحيون هم يزرعون الأرض، واليهود من يحملون عبء الجزية، يُعَرَّضون لشتى أنواع الاضطهاد.

وملكية الأرض غير موثوق بها، وبالتالي تباطأت حماسة اقتنائها: لا يوجد امتلاك أو حيازة أمام مطامع الحكام.

---

(1) عظمة وانحطاط الرومان، الفصل الثالث والعشرون.

لقد تخلى هؤلاء البرابرة عن الفنون، وأهملوا حتى ما يتعلق بالفن العسكري. فبينما تصقل دول أوروبا نفسها بشكل مطرد يومياً، كانوا ما زالوا غارقين في جهالتهم، ولا يجرؤون على أخذ اختراعات الأوربيين الجديدة،[1] حتى استخدموها ضدهم كثيراً.

لا خبرة لديهم في البِحَار، ولا مهارة في المناورة. يقال إن حفنة من المسيحيين قد خرجوا من صخرة،[2] فأجهدوا العثمانيين، وأرهقوا إمبراطوريتهم.

ولقصورهم في شؤون التجارة، وبعد جهد جهيد، سمحوا للأوربيين المَقَادِيم بالمجيء إليهم للقيام بذلك: وهم يعتقدون بأنهم ذوو فضل عليهم بأن أثروهم على أرضهم.

في كل هذه الأرجاء الشاسعة من البلاد التي جبتها، لم أجد سوى إزمير فقط ما يمكن للمرء أن يعتبره مدينة غنية وقوية. والأوروبيون هم مَن أحالوها كذلك، ولو عاد الأمر إلى الأتراك لجعلوها كمثيلاتها من المدن الباقية.

إنها لفكرة صادقة، يا عزيزي ريستان، عن هذه الإمبراطورية، التي كانت، قبل قرنين من الزمن، ميداناً لانتصارات بعض الفاتحين.

في إزمير في الثاني من شهر رمضان[3] عام 1711

---

(1) وهذا يعني الاختراعات الجديدة للأمم الأوربية.

(2) إنهم وكما يبدو فرسان مالطا (مونتسكيو).

(3) الشهر التاسع من السنة الهجرية، شهر الصيام عند المسلمين.

الرسالة العشرون

من أوزبك إلى زوجته زاكي في قصر أصفهان

لقد أسأت إلي يا زاكي، وأشعر في قلبي تقلباً عليك أن تخشَيْه، إن لم يسمح لك غيابي بوقت لتغيير سلوكك، وتهدئة الغيرة العنيفة التي تنهشني.

علمت بأنك وُجِدْتِ في خلوة مع نادر، الخصي الأبيض، الذي سيدفع رأسه ثمناً لخيانته وغدره. كيف بلغ بك النسيان حداً جعلك تتغاضين عن عدم جواز استقبال خصيٍّ أبيض في غرفتك، ما دام في خدمتك عدد من المخصيين السود؟ قد تقولين لي ببساطة بأن المخصيين ليسوا رجالاً، وأن فضيلتك تسمو عن الأفكار التي يمكن أن يثيرها تشابه غير تام: هذا قول غير كاف لإقناعك أو إقناعي: فيما يخصك، فقد قمتِ بفعل تحرّمه قوانين القصر، أما فيما يخصني، فقد سلبتِ شرفي، حينما سمحت للنظرات بأن تقع عليك، وها أنا أقول: نظرات، هذا إذا ما تدنست بتصرفات خائن بجرائمه، بل أبعد من ذلك بحسراته، وبيأسه الناتج عن عجزه.

قد تخبريني بأنك لطالما كنت مخلصة لي. يا للعجب! هل بإمكانك ألا تكوني؟ كيف كنت تغفلين يقظة الخصيان السود، الذين فوجئوا بالحياة التي تعيشنها؟ كيف تمكنت من كسر تلك الأبواب الموصدة؟ أنت تتباهين

بفضيلة لا تملكين خياراً حيالها: وإلا لتمكنتْ رغباتك القذرة أن تسلبها بجدارة، ولَحَرَمَتْك من الإخلاص الذي تتشدقين به طوال الوقت.

وددت لو لم تفعلي ما يثير الشك في عروقي، ولم تَطُلْك يدا هذا الوغد القذرتان، ولو أنك لم تغدقي على بصره مسرات سيده، وقد تَسَتَّرْت بثيابك، وتركت هذا الحاجز اليسير بينك وبينه، وجعلته يشعر باحترام مقدس تجاهك، لغَضَّ بصره، ولارتجف ـ لجبنه ـ من هول العقوبة التي تنتظره: عندها فقط، لن تكوني قد ارتكبتِ ما يخالف واجبك.

وفي حال كنت قد انتهكت ذلك من دون تحقيق ميولك المنحرفة، فما الذي ستفعلينه لإرضاء هذه النزوات؟ وما الذي ستفعلينه في حال تمكنت من الخروج من هذا المكان المصون، والذي تعتبرينه سجناً قاسياً، على عكس رفيقاتك اللواتي يعتبرنه ملاذاً آمناً يحميهن من أذى الرذيلة، وهو معبد مقدس لا يقهر يفقد فيه بنات جنسك ضعفهنّ، على الرغم من كل مساوئ طبيعتكنّ؟[1] ماذا ستفعلين إن تُرِكت وشأنك، وقد كان حبك لي هو وسيلة الدفاع الوحيدة عن نفسك، ذاك الحب الذي عُرِض للإهانة الشديدة، حين خنت واجبك بشكل مخزٍ؟ يا لطهارة تقاليد البلد الذي تعيشين فيه، والتي تنتزعك من هجمات أخسّ العبيد! يجب أن تشكريني لفضلي عليك بجعلك تعيشين في هذا المكان، فلا مكان أجدر منه تستحقين العيش فيه.

لا تستطيعين تحمّل رئيس الخصيان، لدوام مراقبة سلوكك، ولكثرة ما يسدي عليك من نصائح حكيمة. تقولين بأنّ قبحه شنيع لدرجة تحول دون

(1) روح الشرائع، الفصل السادس عشر، صـ10.

رؤيتك له من دون الشعور بالألم: يضحي المرء كنوزه الثمينة كي يكون في رعاية امرئ مثله. ما يؤلمك بالفعل هو ألا يكون المخصيّ الأسود في مكانه وحسب.

لكن ماذا فعلت جاريتك الأولى لك؟ أخبرتك بأن رفع الكلفة بينك وبين الجارية الصغيرة زيليد هو خارج حدود اللياقة: هذا هو بالضبط سبب كراهيتك لها.

عليّ أن أكون قاضياً صارماً، يا زاكي، أنا مجرد زوج يسعى إلى الحفاظ عليك بريئةً. إنّ الحب الذي أُكِنّه لروكسان، زوجتي الجديدة، تركني أشعر بالحنان تجاهها، الحنان الذي يجب أن تحظين به، فلست بأقل جمالاً منها. سأقسم حبي بينكما، فهي لا تفوقك إلا بما تضيفه العفة إلى جمالها.

من إزمير في الثاني عشر من شهر ذي القعدة[1] من عام 1711

(1) الشهر الحادي عشر من السنة الإسلامية.

الرسالة الحادية والعشرون

من أوزبك إلى كبير الخصيان البيض

لا بد وأن ترتجف عند فضّ هذه الرسالة، أو بالأحرى أن تكون ارتجفت ألماً من خيانة نادر. أنت في شيخوختك الهزيلة الباردة، لا يمكن أن يمس طرفك أشياء حبي المنيعة، دون أن ترتكب جرماً: أنت، من لا يجوز له إطلاقاً أن يخطو بقدمه أمام باب ذاك المكان المنيع ليختلس النظر على ما خفي عن الجميع، أراك قد سمحتَ لمن عهدتُ إليك بسلوكهم بأن يفعلوا ما لم تجرؤ أنت على فعله. ألم تحسب حساب الصاعقة التي ستقع فوق رأسك ورأسهم؟

ثم من أنت، خلا إحدى الآلات الخسيسة، التي يمكنني كسرها متى شئت، والتي لن توجد إلا بقدر ما تطيع، والتي لن تعيش في هذا العالم إلا بموجب قوانيني، أو تموت بأمري، ولا تتنفس إلا لتخدم سعادتي وحبي وغيرتي حتى وإن احتاج ذلك إلى انحطاطك وهوانك، وأخيراً لا يمكن أن يكون لك نصيب آخر في الحياة غير الخضوع لي، ولا روح أخرى غير ما أريد، ولا أمل آخر غير هنائي؟

أعلم أن بعض نسائي يعانين قلقاً لا يحتمل من قوانين الواجب الصارمة، وأن استمرار وجود المخصيين السود يزعجهن، وأنهن قد سئمن من هذه

الأوامر المروعة التي تُعطى لهن لردهن إلى أزواجهن، أعرف ذلك، لكن أنت من سمحت لهذه الفوضى أن تحدث. ستعاقب عقاباً شديداً يجعل كل الذين يسيئون استخدام ثقتي يرتجفون.

أقسم بكل أنبياء السماء،[1] وبعليّ، أعظم الأوصياء، بأنك إن تقاعست عن واجبك، فسوف أنظر إلى حياتك على أنها حياة الحشرات التي أسحقها تحت قدمي.

في إزمير في الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام 1711

(1) لدى الفرس مئة ألف، المعلومات في الرسالة الواحدة والأربعون.

الرسالة الثانية والعشرون

من جارون إلى كبير المخصيين

بينما يبتعد أوزيك عن القصر، يدير رأسه نحو نسائه المصونات، ويتنهد، ويذرف الدموع، ويشتد ألمه، وتزداد سطوة شكوكه. ويريد زيادة عدد حراسهن. سوف يرسلني نحوكم، مع كل العبيد السود الموجودين معه. فقد غدا يخشى عليهن أكثر بألف مرة من خشيته على نفسه.

لذا فإنني غادٍ إليك لأعيش تحت إمرتك، وأشاركك مهمتك. يا إلهي! كم من الأشياء واجبة لإسعاد إنسان واحد!

ويبدو أن الطبيعة وضعت الرجال قوامين على النساء، ثم أعادت وقلبت الموازين: فقد نشأ الاضطراب بين الجنسين، بسبب حقوقهما المتبادلة. فقد أدخلنا نمطاً لنسقٍ جديد: لقد أحللنا الكراهية بيننا وبين النساء، والحب بين الرجال والنساء.

ستغدو جبهتي متجهمة، وسأسقط نظراتي العابسة. وسيهرب الفرح من بين شفتي، سيكون ظاهري هادئاً، حتى وإن كانت روحي قلقة. لن أنتظر تجاعيد الشيخوخة لتبرز أحزاني.

كان ليسعدني اتباع سيدي في بلاد الغرب: لكن إرادتي ملكه. لقد شاء أن أحرس نساءه: وسأحرسهن بكل أمانة. أعرف كيف يجب أن أتصرف

مع جنسهن هذا، والذي، حالما تحول بينه وبين العبث، يصبح أروع، ويصبح القضاء عليه أسهل من إذلاله. إنني تحت إمرتك.

في إزمير، في الثاني عشر من ذي القعدة من عام 1711

الرسالة الثالثة والعشرون

من أوزبك إلى صديق إيبين في إزمير

بعد أربعين يوماً من الملاحة وصلنا إلى مدينة ليفورنو. هي مدينة جديدة، وإنها شاهدة على عبقرية دوقات توسكانا، الذين جعلوا منها أعظم مدن إيطاليا، بعد أن كانت مدينة غارقة بالمستنقعات.

تتمتع النساء فيها بحرية مطلقة: حيث بإمكانهن استراق النظر على الرجال من خلال بعض النوافذ، التي تسمى المشربيات، ويمكنهن الخروج كل يوم مع بعض العجائز: بحجاب واحد يشف عن وجوههن.[1] وبإمكان أخوة أزواجهن وأعمامهم وأخوالهن وأبناء أُخْوتهن رؤيتهن، دون أن يحرك الزوج ساكناً على الإطلاق.

إنه لمشهد رائع بالنسبة إلى مسلم، أن يرى، لأول مرة، مدينة مسيحية. لن أتحدث عن الأشياء التي تسترعي الانتباه أولاً، كاختلافنا في المباني والملابس والعادات الأساسية: هناك، حتى في أصغر التفاهات، أشعر بشيء فريد، يصعب التعبير عنه.

سنرحل غداً إلى مرسيليا: لن نمكث فيها طويلاً. خطتي أنا وريكا أن نتجه دون توقف إلى باريس، التي تعد مقر الإمبراطورية في أوروبا.

---

(1) كان نساء الفرس يرتدين حجاباً ذا طبقات أربع (مونتسكيو).

فالمسافرون يبحثون على الدوام عن المدن الكبيرة التي تستقطب جميع الغرباء. هي نوع من الوطن المشترك بين جميع الأجانب. وداعا. وكن على يقين بأنك في قلبي دائماً، وبأنني سأحبك دائماً.

من ليفورنو في الثاني عشر من شهر صفر من عام 1711

الرسالة الرابعة والعشرون

من ريكا إلى إيبين في إزمير

لقد وطئنا باريس، وكنا دائماً في حركة مستمرة. فالمرء كي يستقر يجب أن يتم الكثير من الأمور، وأن يعرف وجهته من الأشخاص، أن يكمل ما يحتاج إليه من النواقص.

باريس كبيرة مثل أصفهان: المنازل فيها عالية للغاية، ويقسم المرء أن المنجمين وحدهم من سكنوها. من السهل إدراك أن المدينة المبنية في الهواء، وتضم ستة أو سبعة منازل بعضها فوق بعض، مكتظة بالسكان، فعندما ينزلون جميعهم إلى الشارع، فإنه يضيق بهم.

قد تصدق ذلك، فمنذ وجودي هنا لشهر، لم أرَ أحداً يمشي هناك بعد. لا يوجد أشخاص في العالم يستفيدون من جسمهم بشكل أفضل من الفرنسيين: إنهم يجرون، يطيرون: فالعربات بطيئة في آسيا، وخطى جمالنا المنتظمة تصيبهم بالدوار. بالنسبة إلي، أنا الشخص الذي لم يكن معتاداً الانطلاق بسرعة، والذي غالباً ما يمشي من دون أن يغير وتيرته، أراني أحياناً منطلقاً مثل مسيحي: لا أكاد أسير حتى أتلطخ من قدمي إلى رأسي، لكنني لا أستطيع أن أغفر ما ينالني من ضربات المرافق التي أتلقاها بانتظام. حدث أن أتى رجل بعدي وصدمني صدمة جعلتني أستدير مئة وثمانين

درجة، وصدمني آخر من الجانب الآخر، وأعادني من حيث أخذني الأول: لم أقطع مئة خطوة، إلا وأنا محطم كأني سرت عشرة فراسخ.

لا تعتقد أن باستطاعتي التحدث إليك الآن وبدقة عن أخلاق الأوربيين وعاداتهم: لقد كونت فكرة يسيرة عنها بنفسي، بالكاد يتسنى لي الوقت لأعجب مما أرى.

ملك فرنسا[1] هو أعظم أمير في أوروبا. ليس لديه مناجم كجاره ملك إسبانيا، لكنه أوسع ثراءً منه، مستغلاً غرور مواطنيه وحبهم للمظاهر والتشريفات، ذاك الحب الذي لا ينضب كالمناجم. فإن كان يريد شنّ حرب ضروس، أو أن يدعمها، لا مورد لديه سوى بيع ألقاب الشرف، فبمعجزة الغرور الإنساني وجَدَتْ قواتُه نفسَها مدفوعة الأجر، وحُصونه مقَوَّاة، وأساطيله مُعَدَّة.[2]

فضلاً عن ذلك، إن هذا الملك ساحر عظيم: يمارس سلطانه على تفكير رعيته، فيجعلهم يفكرون كما يريد. فإن لم يكن لديه سوى مليون جنيه في خزانته، ويحتاج إلى مليونين، فما عليه إلا إقناعهم بأن وحدة نقدية واحدة تساوي اثنتين وحسب، وهم يصدقونه.[3] إذا كانت لديه

(1) كان حينها لويس الرابع عشر.

(2) تبعاً للنظام القديم، كان الاقتراض يجري عبر فرض الرسوم، وتُقدر الرسوم تبعاً للأجور أو الممتلكات، وكانت تشمل الإعفاءات الضريبية. نحن نرجع كلمة وزير إلى لويس الرابع عشر، الذي أرعبته هذه الإبداعات المتعددة: أتمنى أن تطمئن جلالتك: في كل مرة تخلق فيها عبثاً، يخلق الله أحمقَ لشرائه. الحمقى كانوا يحسبون، يجدون طريقة لدفع نفقاتهم، ولإشباع غرورهم على حساب الجمهور.

(3) كان ملوكنا يعتقدون أن من واجبهم تنظيم سعر العملات المعدنية، واعتبروا العملة ليست قيمة ثابتة تتناسب مع المعدن، بل علامة بسيطة على المعايير التي يمكن

حرب شديدة الوطأة، ولا مال لديه، فما عليه إلا أن يدخل في رؤوسهم فكرة أن قطعة الورق هي قطعة نقدية، ليسلموا بذلك على الفور. بل بلغ به الأمر إلى حد جعلهم يعتقدون أنه بلمسة واحدة منهم بإمكانه شفاؤهم من كل الأمراض،[1] ما أعظم قوته وسلطانه على أرواحهم.

إنّ ما أحدثك به عن هذا الملك يجب ألا يفاجئك: إذ إن هناك ساحراً آخر أعظم قوة، سلطانه على الملك أعتى من سلطان الملك على سائر الشعب. يُدعى هذا الساحر البابا: أحياناً يجعل الملك يعتقد أن ثلاثة ليست سوى واحد فقط، وأن ما يؤكل من الخبز ليس خبزاً، أو أن النبيذ الذي نشربه ليس نبيذاً، وآلاف الأمثلة الأخرى من هذا النوع.

ولإبقاء الملك دائماً في حالة تشويق، ولئلا يدعه يفقد عادة الإيمان، فإنه يمده، من وقت إلى آخر، ببعض مبادئ الدين كي يمارسها. قبل عامين أرسل إليه كتاباً عظيماً أسماه الدستور،[2] وأراد إلزام هذا الملك ورعاياه،

رفعها أو خفضها بناء على إرادة الأمير. في مذكرات ماتيو ماريس، المجلد الخامس، والمجلد الأول ص. ;457 ,359 ,357 ,316 ,285 ,280والمجلد الرابع، ص 10. ربما قال فرانسوا السادس دو لاروشفوكو، «الملوك يصنعون الرجال كعملات معدنية، يصنعونها كما يحلو لهم، ونحن مجبرون على استقبالها حسب مسارها، وليس حسب سعرها الحقيقي». (Ed. of 1665, max 165).

(1) الاسم القديم لالتهاب غدة عنق الرحم المزمن، من أصل درني، والذي أدى إلى ظهور خراج بارد كان مقبوضاً بشكل دائم، ثم ترك ندوباً. (يعتقد أن ملوك فرنسا كان بإمكانهم شفاء هذا النوع من السل من خلال استلقاء المرضى على أيديهم في يوم تتويجهم).

(2) لا أعرف مرسوماً، أو دستوراً، وُضِع ضد الجنسانية (الينسنية) في عام 1710، أي قبل عامين من رسالة ريكا إلى إيبن. مرسوم فينيام دوميني ساباوث، من البابا كليمنت الحادي عشر، في 15 يوليو 1707. إضافة إلى مرسوم آخر، أُعلِنَ عنه في عام 1713، أضيف مرسوم Unigenitus إلى ويلات الأول. هذا ما جعل الاضطراب يسود فرنسا،

تحت تهديد عقوبات شديدة، بالاعتقاد بكل ما احتواه. نجح مع الملك الذي آمن على الفور، وكان مثلاً لرعاياه: لكن بعضهم تمردوا، وقالوا بأنهم لم يصدقوا مطلقاً أي شيء مما جاء في هذا الكتاب.[1] كان المحرك الأول للثورة بأكملها هن النساء، فأحْدَثْن انقساماً في البلاط وفي المملكة وفي كل الأسر.

كان هذا الدستور يحرّم على النساء قراءة كتاب يقول جميع المسيحيين إنه أُنزل من السماء: إنه قرآنهم.[2] النساء، الساخطات من ازدراء جنسهن، حرّضن القوم كلهم ضد الدستور: لقد جذبن الرجال إلى جانبهنّ، إذ إنّ الرجال لم يرغبوا في أي امتياز على النساء. لكن علينا أن نعترف بأن هذا المفتي لم يحفل بالمنطق، وعلّمنا عليٌّ العظيم في مبادئ شريعتنا المقدسة: أنه نظراً إلى كون النساء مِن خُلق أدنى من خُلقنا، وأخبرنا أنبياؤنا بأنهنّ لن يدخلن الفردوس، فلماذا يوجب عليهنّ أن يقبلن على قراءة كتاب أُنزل لمعرفة طريق الفردوس؟

لقد سمعت عن الملك أشياء تدخل في سياق العجائب، وليس لدي أدنى شك في أنك لن تستسلم لتصديقها.

مما يقال: إنه بينما كان على اشتباك مع جيرانه الذين تحالفوا جميعاً

تحت اسم الدستور، في معظم القرن الثامن عشر. لكن هذا الدستور بعد عام واحد من خطاب ريكا. يبدو لي أن مونتسكيو، الذي كتب عام 1721، كان مخطئاً بشأن تاريخ مرسوم Unigenitus الذي يشير إليه.

(1) آمن لويس الرابع عشر بسهولة أكبر لأنه هو الذي طلب تدخل البابا لوضع حد لهذه الخلافات اللاهوتية التي أزعجته.

(2) الكتاب المقدس.

ضده، كان لديه في مملكته عدد لا يحصى من الأعداء المتخفين، الذين كانوا يحيطون به:[1] ويضاف إلى القول بأنه قد سعى إليهم لأكثر من ثلاثين عاماً، وأنه على الرغم من العناية الدؤوبة من بعض أتباعه، الذين يثق بهم،[2] لم يظفر بواحد منهم. إنهم يعيشون معه، في بلاطه، وعاصمته، وجيشه، ومحاكمه، ومع ذلك يقال بأن ما أحزنه أنه لم يعرفهم قبل موته. يبدو أنهم موجودون على هيئة عامة، لا يمكن تخصيصها: إنهم جسم لا أطراف له. من المؤكد أن السماء أرادت معاقبة هذا الملك لأنه لم يكن عادلاً بما يكفي تجاه الأعداء الذين هزمهم، فأعطاه أعداء غير مرئيين، فاقت عبقريتهم وحظهم عبقريته وحظه.

سأستمر في الكتابة إليك، وسأخبرك بأشياءَ بعيدة كل البعد عن طابع الشخصية الفارسية وذكائها. إنها بالفعل نفس الأرض التي تحملنا كلانا، لكن أناس البلد الذي أعيش فيه، وأناس البلد الذي أنت فيه، يختلفون أشد الاختلاف.

من باريس في الرابع من شهر ربيع الآخر عام 1712

---

(1) الجنسانيون.

(2) اليسوعيون.

الرسالة الخامسة والعشرون

من أوزبك إلى إيبين في إزمير

لقد تلقيت رسالة من ابن أخيك رضي: يطلب مني أن يغادر إزمير، بقصد رؤية إيطاليا. إنّ الهدف الوحيد من رحلته هو التعلم، وبالتالي أن يجعل نفسه أجدر لك. وإنني لأُهنئك على وجود ابن أخٍ سيكون عزاء شيخوختك.

ريكا كتب لك رسالة طويلة، أخبرني بأنه حدثك كثيراً عن هذا البلد الذي نحن فيه. إن حيوية عقله تجعله يفهم كل شيء بسرعة: أما بالنسبة إليّ، وأنا الأبطأ تفكيراً، فغير مطالَب بأن أخبرك بشيء.

أنت موضوع أكثر محادثاتنا ألفة: لا يمكننا التحدث بما فيه الكفاية عن الحفاوة التي حظينا بها من قبلك في إزمير، والخدمات التي تدفعك صداقتك إلى تقديمها لنا كل يوم. أتمنى، أيها الكريم إيبين، أن تجد أصدقاء ممتنين ومخلصين مثلنا أينما اتجهت!

ألي أن أراك مرة أخرى قريباً، لأستعيد وإياك تلك الأيام السعيدة، التي عبرت بلطف فائق بين صديقين؟! وداعاً.

في باريس في الرابع من شهر ربيع الآخر من عام 1712

الرسالة السادسة والعشرون

من أوزبك إلى روكسان في قصر أصفهان

ما أسعدكِ يا روكسان وأنت في بلاد فارس الجميلة، ولستِ في هذه المناخات السامة، حيث لا يعرف الناس التواضع ولا الفضيلة! ما أسعدك! وأنت تعيشين في قصري الخاص كما لو أنك تعيشين في موطن من الطهر، حيث يتعذر وجود شرور الإنسانية: تجدين نفسك سعيدة في عجزك عن الزلل، ولم يسبق أن دنستك نظرة رجل آثمة، وزوج أمك ذاته، في خضم الأعياد، لم يرَ فمك الجميل أبداً: لم تتقاعسي عن ستره ببرقع يغطيه.

ما أسعدك يا روكسان! عندما كنت في البلاد، كان لديك دائماً العديد من الخصيان الذين كانوا يسيرون أمامك، ليقتلوا جميع الحمقى الذين لا يفرون قبل أن يلقوا بصرهم عليك.[1] أنا نفسي، الذي مَنَحَتْنِي إياك السماء لإسعادي، كم علي أن أبذل جهداً لأثمن هذا الكنز الذي دافعت عنه بثبات! ما أشد حزني، ألا أراك ونحن في الأيام الأولى من زواجنا! وما أقل صبري لرؤيتك! ومع ذلك لم تُشْبعي رغبتي، بل على العكس من ذلك، لقد أَجَّجْتِها بإبائك العنيد، وحيائك المروع: فقد خلطت بيني وبين كل هؤلاء الرجال الذين تتخفين عنهم باستمرار. أتتذكرين ذاك اليوم عندما

(1) معلومات تذكر في الرسالة التاسعة والأربعين.

تدَرّأت بعبيدك مني، أولئك الذين أطاعوك، وخانوني، وفررت من بحثي عنك؟ وذاك اليوم الآخر، حيث رأيت دموعك العاجزة، استخدمت سلطة والدتك لوقف شراسة حبي؟ أتتذكرين حين خسرت كل ثرواتي، ووجدتها في شجاعتك؟ لقد أشهرتِ خنجراً، وهددت بالتضحية بزوجٍ أَحَبَّك، إذا ما استمر في مطالبتك بما تعتزين به أكثر من حبك لي أنا، زوجك نفسه.

شهران مرا في هذ المعركة ما بين الحب والحياء. وتدفعين بي بعيداً عن مخاوفك الطاهرة: لم تستسلمي حتى بعد هزيمتك، وظللت تدافعين حتى الذروة الأخيرة عن عذرية تُحتضر. لقد نظرت إليّ كعدو جعلك حانقة، وليس كزوجٍ أَحَبك: بقيت أكثر من ثلاثة أشهر لم تتجرئي خلالها على النظر إلي دون أن يحمر وجهك خجلاً، لكأن مُحَيّاك المرتبك يوبخني على الميزة التي أَخَذْتُها. لم أحزْكِ بالكامل، إذ حرمتني بكل استطاعتك من هذا السحر وهذه الفتنة، وكنتُ منتشياً بالمتع العظيمة التي لم أظفر بأقلها.

لو كنتِ نشَأْتِ في هذا البلد الذي نحن فيه، لَمَا كنتِ مضطربة كل هذا الاضطراب. فهنا قد فقدت النساء كل ضبط النفس؛ يظهرن أمام الرجال بوجوههن المكشوفة، وكأنهن يرغبن في هزيمتهم، يبحثن عنهم بنظراتهن، يرونهم في المساجد، في النزهات، وحتى في منازلهن: استخدام الخصيان للخدمة غير معروف بالنسبة إليهنّ. بدلاً من البساطة النبيلة، ومن الحياء المحبب الذي يسود بينكم، تسود بينهن وقاحة وحشية، يستحيل تعوّدها.

نعم، يا روكسان، لو كنت هنا، كنت ستشعرين بالهوان في العار الفظيع الذي نزل فيه جنسكنّ، ولهربت من هذه الأماكن البغيضة، ولتنَهَّدْتِ شوقاً لمعتكفك الجميل، حيث تجدين البراءة، مطمئنة على نفسك، حيث لا

خطر يجعلك ترتجفين، حيث يمكنك أخيراً أن تحبيني، دون خوف من فِقدان الحب الذي تُكِنّيه لي.

عندما تجملين إشراق بشرتك بأجمل الألوان، عندما تعطرين جسدك كله بأنفس العطور، عندما تزينين نفسك بأجمل ملابسك، عندما تسعين إلى تمييز نفسك من أترابك من خلال نعمة الرقص، وحلاوة الغناء، عندما تنافسينهن بلطفٍ بالسحر والحلاوة والمرح، لا أستطيع أن أتخيل أن لديك أي شيء آخر عندك لا يحوز إعجابي، وعندما أراكِ تحمَرّين خجلاً على استحياء، إذا ما التقت نظراتنا، وأنت تتسللين إلى قلبي بكلماتك الحلوة والملاطفة، ليس بإمكاني إيجاد طريق إلى الشك في حبك، يا روكسان.

لكن ما رأيي في نساء أوربا؟ إنّ فنهنّ في تجميل بشرتهم، والحلي التي يتجملن بها، وعنايتهن بأنفسهن، والرغبة المستمرة في نيل الإعجاب بهن، كلها بقع تلطخ فضيلتهن، وتُهين أزواجهن.

ليس الأمر، يا روكسان، بأنهن يرتكبن جريمة في سلوكهن بقدرٍ يقود إلى الاعتقاد بأنهن يسرفن في الفجور بإفراط تقشعر له الأبدان، وينتهكن العقيدة الزوجية. هناك عدد قليل جداً من النساء اللواتي تُخُلّي عنهن بما يكفي إلى الذهاب بعيداً: جميعهن يحملن في قلوبهن طابعاً معيناً من الفضيلة، راسخاً فيها، ورثنه بالولادة، وأفسدته التربية، لكنها لم تُفْنِه. قد تخففن من الواجبات الخارجية التي يتطلبها الاحتشام ولكن عندما يتعلق الأمر باتخاذ الخطوات الأخيرة، فإن الطبيعة تثور. لذا، فعندما نضيّق عليكن بشدة، إلى درجة أننا نحرسكن بالكثير من العبيد، ونكبح جماح رغباتكن، إذا ما أرادت الانفلات بعيداً جداً. ليس الأمر لأننا نخشى الخيانة الأخيرة، بل لأننا نعلم أن الطهر مهما عظم، فإنّ أدنى وصمة عار يمكن أن تفسده.

إنني أشفق عليك يا (روكسان)، فإن عفَّتك، التي تشبَّثْتِ بها لفترة طويلة، تستحق زوجاً لا يغادرك مطلقاً، ويمكنه حينها هو نفسه قمع رغباتك التي ما من شيء سوى فضيلتك بإمكانها أن تخضعها.

من باريس في السابع من شهر رجب[1] من عام 1712

(1) الشهر السابع من السنة الإسلامية.

الرسالة السابعة والعشرون

من أوزبك إلى نصير في أصفهان

نحن الآن في باريس، هذه المنافِسة الرائعة لمدينة الشمس.[1]

عندما غادرت إزمير، حملت صديقي إيبين صندوقاً من الهدايا إليك: ستتلقى هذه الرسالة بنفس الطريقة. على الرغم من أنني على بعد خمس أو ستمئة فرسخ منه، فإنني أمرر أخباري، وأتلقى أخباره، بسهولة كما لو كان في أصفهان، وكنت أنا في قم. أرسل رسائلي إلى مرسيليا، التي تتحرك منها السفن باستمرار إلى إزمير: من هناك يرسلون منها ما يخص بلاد فارس، عن طريق القوافل الأرمنية التي تغادر كل يوم إلى أصفهان.

يتمتع ريكا بصحة مثالية: قوة بنيته وشبابه وسعادته الفطرية تضعه فوق كل التجارب.

لكن بالنسبة إليّ، فأنا لستُ بعافية، جسدي وروحي مغتمان، مستسلماً لتأملات تزيد من حزني يوماً إثر يوم، كما أن صحتي، التي بدأت تهون، تتجه بمشاعري نحو بلدي، وتجعل هذا البلد غريباً جداً بالنسبة إليّ.

لكنني أستحلفك بالله، عزيزي نصير، تأكد أن زوجاتي يجهلن الحالة

---

(1) المقصود بمدينة الشمس هنا مدينة أصفهان.

التي أنا عليها. لأنهن إن أحببني، فإنني سأجنبهنّ الدموع، وإن لم يحببني، فلا أريد أن أزيد من جسارتهن.

إذا علم الخصيان أنني في خطر، سيأمنون جانبي وسيتوسمون بي إفلاتاً من العقاب على الملاطفات الدنيئة، وسوف يتوقفون قريباً عن الصمم تجاه الصوت الجميل لهذا الجنس، الذي يجعل الصخر يسمع، ويحرك ما لا حياة فيه.

وداعاً، يا نصير، ويسعدني أنني قدمت إليك دلائلَ على ثقتي بك.

من باريس في الخامس من شهر شعبان من عام 1712

الرسالة الثامنة والعشرون

من ريكا إلى...

لقد رأيت البارحة شيئاً غريباً بما فيه الكفاية، حتى وإن كان يحدث كل يوم في باريس...

يجتمع جميع الناس في نهاية العشاء، ويمثلون مشهداً مسرحياً، سمعتهم يدعونه كوميدياً.[1] أعظم الحركات تدور على منصة تسمى المسرح.[2] نرى على كلا الجانبين مقاصير صغيرة تسمى ألواجاً، رجالًا ونساء يمثلون معاً مشاهد صامتة، وهذا ما يماثل تقريباً ما هو متعارف عليه في بلادنا الفارسية.

هنا، هي عاشقة متيمة تعبر عن ضعفها، وأخرى، أكثر حيوية، تلتهم حبيبها الذي ينظر إليها بنفس الطريقة بعينيها: كل المشاعر مرسومة على الوجوه، ويُعَبَّر عنها ببلاغة، فلم يؤثر صمت المشهد في حيويته. هناك، تبدو الممثلات بأنصاف أجسادهن فقط، وعادة ما يكون لديهن رداء

---

(1) الكوميديا الفرنسية.

(2) «من كتاب «متع جادة ومضحكة»، تشارلز دوفريسني، الفصل الخامس. دعونا ندخل بسرعة ونضع أنفسنا على المسرح. على المسرح! غادر سيامي، أتسخر، ليس نحن من يجب أن نصنع مشهداً لنراه، بل نحن نأتي لرؤيته. لا يهم، قلت له، دعونا ننتشر، لا نرى شيئاً منه، ولا نسمع فيه بشكل جيد، لكنه أغلى مكان وبالتالي أشرف مكان».

للحشمة وإخفاء أذرعهن. في أسفل المسرح مجموعة من الناس يقفون ساخرين من أولئك الذين يعلونه، وهم بدورهم يضحكون عليهم.[1]

لكن من يتحمل النصيب الأكبر من الجهد، هم عدد قليل من الأشخاص، تقدم بهم السن على تحمل هذه المتاعب.[2] وهم ملزمون بالتنقل من مكان إلى آخر، يمرون عبر أماكن لا أحد سواهم يعرفها، ويصعدون بمهارة مفاجئة من طابق إلى آخر، هم في الأسفل وفي الأعلى، وتجدهم في كل المقصورات، يغوصون، إن جاز التعبير، حتى يظن المرء أنهم قد فُقدوا، ثم يعاودون الظهور، غالباً ما يغادرون المسرح لينتقلوا إلى مسرح آخر في مكان آخر. حتى إننا نرى بعضهم يغدون ويذهبون مثل الآخرين، متكئين على عكازاتهم، كسائر الناس، بإعجاز لا يخطر على بال. أخيراً، يذهب الناس إلى مسارح حيث يمثلون كوميديا خاصة:[3] تبدأ بالانحناء للتحية، ثم بالعناق: فتعارف سطحي قد يعطي الحق لرجل بضم آخر ضماً شديداً. يبدو أن المكان يلهم بالوُدّ. في الواقع، يقال بأن الأميرات اللواتي يحكمن هذا المكان لسْنَ قاسيات على الإطلاق، هذا إذا ما استثنينا ساعتين أو ثلاث ساعات من اليوم، يكنُّ فيها متوحشات للغاية، فيمكن للمرء أن يقول بأنهن في سائر الوقت لينات، ويتركهن السُّكْر بسهولة.

كل ما أقوله لك هنا هو نفسه إلى حد كبير يحدث في مكان آخر، يسمى الأوبرا: الفرق هو أنك في الأول تستخدم التحدث، أما في الآخر فتغني. أخذني صديق لي ذات يوم إلى مقصورة حيث كانت إحدى الممثلات

---

(1) المشاهدون في ردهة المسرح.

(2) مديرو المسرح.

(3) منزل.

الرئيسيات تبدل ملابسها. تعارفنا بشكل جيد إلى درجة جعلتني أتلقى منها رسالة في اليوم التالي تقول فيها:

«سيدي...

إنني أتعس فتاة في العالم، لطالما كنت الممثلة الأَعَفّ في الأوبرا. ومنذ سبعة أو ثمانية أشهر كنت في المقصورة حيث رأيتني أمِس: بينما كنت أرتدي زي كاهنة ديهيا، جاء الشمّاس الشاب ليقابلني هناك، ومن دون احترام لثوبي الأبيض الكهنوتي وحجابي وعصابتي، نهب براءتي.

بقدر ما بالغت في بيان التضحية التي قدمتها له، غدا يضحك، ثقة منه بأنه يراني دنيئة جداً. ومع ذلك، فأنا حبلى ويظهر بطني للعلن إلى درجة جعلتني لا أجرؤ على تقديم نفسي على خشبة المسرح: لأنني، فيما يخص الشرف، حساسة إلى حد لا يمكن تصوره، وأصر دائماً على أنه من الأسهل على الفتاة الأصيلة أن تفقد فضيلتها على أن تفقد حياءها. برهافتي هذه، أنت تدرك جيداً أن هذا الشماس ما كان لينجح إطلاقاً، لو لم يكن قد وعدني بالزواج مني: مثل هذا الدافع المشروع جعلني أتجاوز المراحل، وأبدأ بالمكان الذي كان يجب أن أنتهي فيه. ولكن، لمّا كانت خيانته قد أهانتني ومست شرفي، عدتُ لا أرغب في العمل في الأوبرا، حيث، والأمر بيننا، لا يمنحونني ما يكفيني للعيش: فأنا في الوقت الحالي قد تقدم بي السن، وقد خسرت جانباً من السحر، يبدو أن أجْرِيَ باقٍ على ما هو عليه، بل يتضاءل على مرور الأيام.

علمت من رجل في حاشيتك أن هناك تقديراً للراقصة الماهرة في بلادكم، فإذا انتقلت إلى أصفهان، فسأجني المالَ الوفير على الفور. إن

تفضلت ومنحتني رعايتك، وأخذتني معك إلى هذا البلد، فستنعم بتقديم معروف لفتاة بعفتها وسلوكها، لن تفعل ما هو غير جدير بإحسانك وبلطفك. إنني...».

من باريس، في العشرين من شهر شوال[1] من عام 1712

---

(1) الشهر العاشر من السنة الإسلامية.

الرسالة التاسعة والعشرون

من ريكا إلى إيبين في أزمير

البابا رئيس المسيحيين. إنه المعبود القديم الذي اعتادوا تبخيره. وقد كان قديماً مرهوباً حتى بالنسبة إلى الأمراء، لأنه كان يخلعهم بنفس سهولة خلع سلاطيننا العظام لملوك أرمينيا وجورجيا. لكن عادَ لا أحد يخشاه بعد الآن، ويسمي نفسه خليفة أحد المسيحيين الأوائل الذي يُدعى القديس بطرس، وهي بالتأكيد خلافة غنية لأن لديه كنوزاً هائلة وبلداً عظيماً تحت سلطته.

والأساقفة هم رجال قانون تابعون له، ولديهم تحت سلطته وظيفتان مختلفتان تماماً: عندما يجتمعون يقومون بما يقوم به من إعداد لنصوص إيمانية، وعندما يكونون على انفراد، لا يكاد يكون لديهم أي وظيفة أخرى سوى الإعفاء من الالتزام بالقانون. لأنك ستعرف أن الدين المسيحي مثقل بعدد لا حصر له من الممارسات الصعبة للغاية، وبما أنه من المسلَّم به أن أداء هذه الواجبات لن يكون يسيراً إلا بأساقفة يُعفون منها، فقد اتخذوا هذا الجانب الأخير من العمل من أجل المصلحة العامة، لذلك إذا كان المرء لا يريد الصيام،[1] أو لا يريد أن يخضع لإجراءات الزواج، إذا أراد أن يخالف

(1) الصوم الكبير.

نذوره، أو إذا أراد أن يتزوج متخطياً محظورات القوانين، وأحياناً حتى لو أراد أن يحنث في قسمه، فما عليه إلا الذهاب إلى الأسقف أو إلى البابا الذي يعطيه الإعفاء على الفور.

لا يصنع الأساقفة النصوص الإيمانية من تلقاء أنفسهم. فهناك عدد لا حصر له من العلماء، معظمهم من الرهبان،[1] يطرحون فيما بينهم ألف سؤال جديد حول الدين، يتجادلون فيها طويلاً، وتستمر الحرب حتى صدور قرار نهائي بخصوصها.

لذا يمكنني أن أؤكد لك أنه لم تكن هناك مملكة حوت هذا العدد من الحروب الأهلية كما في مملكة المسيح.

أولئك الذين يسلطون الضوء على بعض الافتراضات الجديدة، يطلق عليهم أول الأمر مهرطقين. كل بدعة لها اسمها، وهي كالسمة لهؤلاء الذين يعتنقونها. ولكن ليس كل من يبتدع فهو مهرطق، فليس ذلك إلا تقسيم للاختلاف مناصفةً، وتمييز[2] من يتهمون بالهرطقة، أكان هذا التمييز واضحاً أم لا، فإنه يجعل إنساناً أبيضَ كالثلج، وقد يُسمى أرثوذكسياً.

إن ما أقوله لك مقبول في فرنسا وألمانيا، لأنني سمعت أنه في إسبانيا والبرتغال يوجد بعض الرهبان الذين لا يعرفون السخرية، والذين يحرقون الإنسان كما يُحرق الهشيم. عندما يقع المرء في أيدي هؤلاء الناس، يكون سعيداً من يصلي إلى الله بمسبحة في يده،[3] ويرتدي قطعتين من القماش

---

(1) هكذا يسمى الفرس لدى مونتسكيو الرهبان، ولا سيما اليسوعيون.

(2) الصوم الكبير.

(3) المقصود ادعاء بعض المهارة العلمية. راجع في هذا الموضوع رسائل المقاطعات لباسكال.

مربوطتين بشريطين،[1] أو زار أحياناً مقاطعة تسمى غاليسيا.[2] عدا ذلك فسيكون المسكين قد وقع في ورطة. فإذا أقسم كالوثني أنه كان أرثوذكسياً، فقد لا يُمهل حتى يتحققوا من ذلك، ويحرق كالمُهرطق، ومهما أظهر من تميزه فلا فائدة، وسيكون رماداً قبل أن يفكر أحد في الاستماع إليه.

يفترض قضاة آخرون أن المتهم بريء، بينما يفترض هؤلاء أنه مذنب. وفي حالة الشك، فإنهم يتخذون جانب الصرامة قاعدة لهم، على ما يبدو لأنهم يؤمنون بأن الناس أشرار. لكن ومن ناحية أخرى، يحسنون الظن فيهم بشدة لدرجة أنهم لا يعتبرونهم أهلاً للكذب، فيقبلون شهادة الأعداء الأساسيين والنساء ذوات السمعة السيئة، ومن يمارسون مهنة شائنة. إنهم يوجهون حسب رأيهم مجاملة صغيرة لأولئك الذين يرتدون قميصاً كبريتياً، ويخبرونهم أنهم آسفون جداً لرؤيتهم يرتدون ملابس سيئة، وأنهم لطيفون، ويمقتون الدم، ومتألمون لإدانتهم. لكنهم ولتعزية أنفسهم، يصادرون كل ممتلكات هؤلاء التعساء ويستحوذون عليها.[3]

طوبى للأرض التي يسكنها أبناء الأنبياء! إن هذه المشاهد الحزينة غير معروفة هناك.[4] إن الدين المقدس الذي أتت به الملائكة إليها تدافع عنه حقيقته ذاتها، ولا يحتاج إلى هذه الوسائل العنيفة من أجل بقائه.

من باريس، في الرابع من شهر شوال من عام 1712

---

(1) السبحة.

(2) الكتفية.

(3) رحلة حج إلى سانتياغو دو كومبو ستيلا.

(4) الفُرس هم الأكثر تسامُحاً من بين جميع المسلمين (مونتسكيو).

الرسالة الثلاثون

من ريكا إلى الشخص نفسه في أزمير

لدى سكان باريس فضول يصل إلى حد الإفراط. عندما وصلت إليها، نُظر إليّ كما لو أنني أُرسلت من السماء، كبار السن، رجالاً ونساءً وأطفالاً، أرادوا جميعاً رؤيتي. إذا خرجت أطل الجميع من النوافذ، وإذا كنت في التويلري، رأيت على الفور دائرة تتشكل حولي، والنساء أيضاً يصنعن بأنفسهن قوس قزح مظللاً بألف لون يحيط بي، وإذا كنت في المسارح، فأول ما أجد مئة منظار مصوب نحو وجهي. في النهاية فإن الأنظار لم تتجه إلى أحد كما اتجهت نحوي. أحياناً كنت ابتسم لسماعي أشخاصاً لا يكادون يخرجون من غرفهم، يقولون فيما بينهم: علينا الاعتراف أنه يبدو حقاً فارسياً. الشيء العجيب أنني وجدت صوري في كل مكان، رأيت نفسي في جميع المحلات التجارية، فوق جميع المدافئ، بما أنهم كانوا خائفين من عدم رؤيتي بما فيه الكفاية.

كثرة التكريمات غالباً ما تكون مرهقة، ولا أرى بأنني رجل شديد الغرابة ونادر الوجود، وعلى الرغم من أن لدي رأياً جيداً في نفسي، فإنني لم أتخيل أبداً أن أزعج سلام مدينة كبيرة لم أكن معروفاً فيها. جعلني هذا عازماً على خلع الثياب الفارسية وارتداء أخرى أوروبية، لأرى ما إذا كان سيظل هناك شيء مثير للإعجاب في وجهي. سمحت لي هذه التجربة بمعرفة قيمتي

الحقيقية، إذ إنني حين تخلصت من الحلي الأجنبية قُدرت بشكل أدق. كان لدي سبب للشكوى من الخياط الذي جعلني أفقد اهتمام الجمهور واحترامه في لحظة واحدة، ما أدخلني فجأة في حالة من العدم المخيف. بقيت أحياناً لمدة ساعة في جماعة دون أن ينظر إليّ أحد، أو يتيح لي فرصة لفتح فمي، ولكن إذا أخبر أحدهم عن طريق الصدفة الجماعة أنني فارسي، سمعت على الفور من حولي لغطاً: آه! ها! هل السيد فارسي؟ إنه لأمر غريب! كيف يمكن أن يكون الإنسان فارسياً؟

من باريس، في السادس من شهر شوال من عام 1712

الرسالة الحادية والثلاثون

من رضي إلى أوزبك في باريس

أنا الآن في البندقية يا عزيزي أوزبك. يمكن للمرء أن يرى جميع مدن العالم، ثم يتفاجأ عند وصوله إلى البندقية، سيكون مأخوذاً دائماً برؤية مدينة وأبراج ومساجد، تخرج من تحت الماء، ويجد عدد لا يحصى من الناس في مكان كان ينبغي أن يجد فيه السمك فقط.

لكن هذه المدينة الدنسة تفتقر إلى أثمن كنز في العالم، وهو الماء الطاهر، فمن المستحيل القيام بوضوء شرعي واحد فيها. إنها نجسة بالنسبة إلى نبينا الكريم، ولا ينظر إليها من السماء إلا غاضباً.[1]

ولولا ذلك، يا عزيزي أوزبك، لكنت مفتوناً بالعيش في مدينة يزداد فيها علمي يومياً، تعلمت فيها أسرار التجارة ومشاغل الأمراء وأُسس حكوماتهم. ولم أتجاهل حتى الخرافات الأوروبية. عكفت على دراسة الطب والفيزياء وعلم الفلك، وأدرس الفنون أيضاً، وهكذا خرجت من الضباب الذي غطى عيني في البلد الذي ولدت فيه.

من البندقية، في السادس عشر من شهر شوال من عام 1712

---

(1) الرسالة 75.

الرسالة الثانية والثلاثون

من ريكا إلى...

ذهبت في ذلك اليوم لرؤية منزل يعيش فيه نحو ثلاثمئة شخص في حالة مزرية.[1] سرعان ما وصلت لأن الكنيسة والمباني لا تستحق المشاهدة. أولئك الذين في هذا المنزل كانوا مرحين جداً. كان العديد منهم يلعبون الورق أو ألعاباً أخرى لا أعرفها. عندما خرجت، خرج واحد منهم، وبعد أن سمعني أسأل عن الطريق إلى ماريه، وهو أبعد أحياء باريس، قال لي إنني ذاهب إلى هناك، وسأقودك فاتبعني. لقد قادني بشكل رائع، وأخرجني من ارتباكي، وأنقذني بمهارة من العربات والسيارات. كنا على وشك الوصول، عندما استولى عليّ الفضول فقلت له: يا صديقي العزيز، ألا أعرف من أنت؟ فأجابني: أنا أعمى يا سيدي. فقلت له: ماذا؟ أنت أعمى؟ ولماذا لم تطلب من هذا الرجل الفاضل الذي كان يلعب معك الورق أن يقودنا؟ قال: إنه أعمى أيضاً، منذ أربعمئة سنة ونحن ثلاثمئة أعمى في هذا المنزل الذي وجدتني فيه. والآن علي أن أتركك، هذا هو الشارع الذي سألت عنه، أما أنا فسألتحق بالحشد، وسأدخل إلى هذه الكنيسة، حيث أقسم أنني سأربك الناس أكثر مما يربكونني.

من باريس، في السابع عشر من شهر شوال من عام 1712

---

(1) نُزل الكانز ـ فان، الذي أسسه القديس لويس في باريس عام 1254، لدى عودته من فلسطين، لثلاثمئة فارس اقتلعت عيونهم من قبل المسلمين.

الرسالة الثالثة والثلاثون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

النبيذ باهظ الثمن في باريس، بسبب الضرائب المفروضة عليه، ويبدو كأنهم تعهدوا بفرض تعاليم القران الذي يَحْرُم شربه.

عندما أفكر في الآثار الكارثية لهذا المشروب، لا يسعني إلا النظر إليه على أنه أخطر هبة أعطتها الطبيعة إلى البشر. إذا كان هناك من شيء أفسد حياة وسمعة ملوكنا، فقد كان ذلك هو إفراطهم بالشرب، إنه المورد الأكثر سُميّة لقاء ظلمهم وقسوتهم.

سأقولها لعار الناس: القانون يحرم على أمرائنا استهلاك الخمر، لكنهم يشربونه بإفراط يحط من قدرهم وقدر إنسانيتهم، هذا الاستهلاك، وعلى العكس من ذلك مسموح به للأمراء المسيحيين، ولا نلحظ أنه يجعلهم يرتكبون أي خطأ. إن العقل البشري هو التناقض بعينه. ففي الفجور الفاسق يثور المرء بغضب على التعاليم. إن القانون، الذي سُنَّ لجعلنا أعدل، غالباً ما يؤدي إلى جعلنا مذنبين.

لكن عندما أستهجن شرب هذا الخمر، الذي يُفقد المرء عقله، فأنا لا أدين بنفس الطريقة المشروبات التي تُنعشه.[1] ومن حكمة الشرقيين أن

(1) القهوة.

يلتمسوا العلاج للحزن، كحرصهم على مقاومة الأمراض الخطيرة. عندما يصاب أوروبي بمصيبة ما، فليس لديه من وسيلة غير قراءة الفيلسوف الذي يُدعى سينيكا، لكن الآسيويين، الأكثر عقلانية، والأطباء الأفضل في هذا المجال، يتناولون المشروبات القادرة على جعل الإنسان مِرحاً، وتُضفي سحراً على ذكريات آلامه.

لا يوجد شيء مؤلم كالعزاء المستمد من ضرورة الشر، وعدم جدوى العلاج، وعبثية القدر، ومشيئة العناية الإلهية، وشقاء الإنسانية. ومن السخرية أن الرغبة في تخفيف ألم تنطلق من أن الانسان قد ولد بائساً، من الأفضل أن نرتفع بالعقل فوق تفكيره، ومعاملة الإنسان على أنه ذو مشاعر بدلاً من معاملته على أنه عقلاني.

والروح المتحدة مع الجسد، يستبد بها هذا الأخير باستمرار. إذا كانت حركة الدم بطيئة للغاية، وإذا لم يكن للعقول صفاء كافٍ، أو مقدار كافٍ منه، فإننا نقع في الاكتئاب والحزن، ولكن إذا احتسينا مشروبات يمكنها تغيير حال أجسادنا، تصبح روحنا مرة أخرى قادرة على تلقي الانطباعات التي تنشطها، وتشعر بسرور خفي لرؤية آليتها الجسمانية تَستأنف، إذا جاز التعبير، حركتها وحياتها.

من باريس، في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من عام 1713

الرسالة الرابعة والثلاثون

من أوزبك إلى إيبين في أزمير

إن نساء فارس أجمل من نساء فرنسا. لكن الفرنسيات أظرف. من الصعب ألا تحب الأوليات، وألا تُعجب بالأخريات، الفارسيات أرَقّ وأكثر وحياءً، والفرنسيات أبهج وأمرح.

ما يخلق الجاذبية في فارس هي الحياة المنظمة التي تعيشها النساء هناك، فلا يلعبن ولا يسهرن، ولا يشربن خمراً، ونادراً ما يعرضن أنفسهن للهواء. يجب الاعتراف بأن القصر مُعد للصحة أكثر منه للملذات، إنها حياة مستقيمة لا تؤذي، وجميع من فيها مرهق بالتبعية والواجب، فالمتع جدية والأفراح قاسية، وتكاد لا تُذَاق إلا كعلامات على السلطة والتبعية.

حتى إن الرجال لا يتمتعون في بلاد فارس بالبهجة التي يتمتع بها الفرنسيون، فلا ترى فيهم طلاقة الروح، ولا مظهر الرضا الذي أجده هنا في جميع الحالات وفي جميع الظروف.

والأمر أسوأ بكثير في تركيا، حيث يمكن للمرء أن يجد عائلات لم يضحك فيها أحد، من الأب إلى الابن، منذ تأسيس دولة السلاطين.

أما جدية الآسيويين فتأتي من قلة الاختلاط بينهم، فلا يرون بعضهم بعضاً إلا عندما يجبرون على الاجتماع لحضور حفل. الصداقة، تلك

الرابطة اللطيفة بين القلوب، التي تجعل الحياة هنا عذبة، تكاد تكون غير معروفة لهم، يلتزمون منازلهم، حيث يجدون دائماً رفقة تنتظرهم، بحيث تكون كل أسرة معزولة إن صح القول.

ذات يوم عندما كنت أتحدث عن هذا الموضوع مع رجل من هذا البلد، قال لي: أكثر ما يصدمني في تقاليدكم هو أنكم مجبرون على العيش مع العبيد الذين تستشعر قلوبهم وأرواحهم هوان حالهم. فهؤلاء الجبناء يُضْعفون فيكم مشاعر الفضيلة التي يكسبها المرء من الطبيعة ويفسدونها منذ الطفولة لشدة ملازمتهم لكم.

تخلصوا إذاً من توقعاتكم، فما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من تربية تُؤخذ من بائس يتمثل شرفه في الحفاظ على نساء غيره، ويفتخر بأقذر عمل بين البشر، المُحتقر بإخلاصه، الذي هو ميزته الوحيدة من بين سائر الفضائل، لأنه يحملها بدافع الحسد والغيرة واليأس، والذي يتحرق للانتقام من كلا الجنسين، فهو حثالة البشر، يرضى بأن يستبد به الأقوى، ما دام يستطيع أن يطغى على الأضعف، ويستمد من نقصه وقبحه وتشوهه فخره بنفسه، وليس له اعتبار لأنه غير جدير بذلك، يجب أن يلزم دائماً الباب المسؤول عنه، أشد من المفصلات والمتاريس التي تُغلقه، ويفتخر بخمسين عاماً من الحياة في هذه المهنة الحقيرة، حيث يحرس غيرة سيده، ويمارس كل انحطاطه.

من باريس، في الرابع عشر من شهر ذي الحجة[1] من عام 1713

(1) ذي الحجة هو الشهر الثاني عشر والأخير في السنة القمرية عند المسلمين.

الرسالة الخامسة والثلاثون

من أوزبك إلى ابن عمه جمشيد

درويش في دير توريس الشهير

ما رأيك في المسيحيين، أيها الدرويش الجليل؟ هل تعتقد أنهم في يوم القيامة سيكونون مثل الأتراك الكفار بمثابة الحمير لليهود، يقودونهم في هرولة سريعة إلى الجحيم؟ أعلم جيداً أنهم لن يصلوا إلى منزلة الأنبياء، وأن علياً العظيم لن يشفع لهم. ولكن، ولأن الحظ لم يحالفهم في العثور على مساجد في بلادهم، هل تعتقد أنه محكوم عليهم بعذاب أبدي، وأن الله يعاقبهم على عدم اعتناقهم لدين لم يطلعهم عليه؟ أستطيع أن أقول لك: لقد امتحنت الكثير من هؤلاء المسيحيين، واستجوبتهم لمعرفة ما إذا كان لديهم أي فكرة عن عليّ العظيم خير الناس،[1] وجدت أنهم لم يسمعوا به من قبل.

إنهم لا يشبهون أولئك الكفار الذين ضربهم أنبياؤنا الشرفاء بالسيف، لأنهم رفضوا الإيمان بمعجزات السماء، إنهم بالأحرى مثل أولئك البائسين الذين عاشوا في ظلام عبادة الأصنام، قبل أن يأتي النور الإلهي لينير وجه نبينا العظيم.

---

(1) عبارة من المزمور المطبق على المسيح.

علاوة على ذلك، إذا تفحصنا دينهم من كثب، فسنجد هناك بذرة من عقائدنا. وكم أعجبت بأسرار العناية الإلهية التي يبدو أنها أرادت أن تعدهم بذلك للتحول العام. لقد سمعت عن كتاب من تأليف أحد فقهائهم، يُدْعَى *التعددية المظفرة للزوجات*، والذي ثبت فيه أن تعدد الزوجات مأمور به عند المسيحيين.[1] معموديتهم هي صورة وضوئنا الشرعي. والمسيحيون لم يخطئوا إلا في تقدير قيمة الطهر الأول، والذي يعتقدون أنه ينبغي أن يغني عن سائر أنواع الطهر. يصلّي كهنتهم ورهبانهم مثلنا سبع مرات في اليوم، ويأملون في الاستمتاع بالجنة حيث يتمتعون باللذات الكثيرة بعد البعث. لديهم مثلنا صيام مفروض، وقمع للشهوات يرجون منه المغفرة الإلهية. يقدسون الملائكة الأطهار ولا يثقون بالأشرار. لديهم تصديق خالص بالمعجزات التي يصنعها الله من خلال رسوله. إنهم يدركون، كما نفعل نحن، عدم كفاية أعمالهم، وحاجتهم إلى شفيع عند الله. إني أرى المحمدية في كل مكان، على الرغم من أنني لا أجد محمداً هناك. ومن حسن الحظ أن الحقيقة تفلت، ودائماً ما تخترق الظلام الذي يحيط بها. سيأتي يوم لن ترى فيه الأبدية إلا المؤمنين الحقيقيين على الأرض.

---

(1) على الرغم من أن العنوان يحمل مكان طباعة لوند، مدينة في السويد، فإن العمل طُبع بالتأكيد في هولندا، ووفقاً لجميع المظاهر في أمستردام. يؤيد المؤلف في تسعين أطروحة دافعت بالطريقة المنهجية عن شرعية وقداسة تعدد الزوجات في العهد القديم والعهد الجديد. يثقل التعليق بشكل فريد هذه المفارقة، التي لا يمكن الدفاع عنها في حد ذاتها، ما يملأ مجلداً لا يقل عن 564 صفحة. المؤلف هو جون ليسر، اسم المعلق غير معروف، قلنا إنه بوفندورف ولكن هذا غير وارد، فقد كان بوفندورف متعقلاً أكثر. على الكتاب والمؤلف، اللذين لا يستحقان الشهرة التي قدمها لهما مونتسكيو، يمكننا أن نرى كلمات بايل، معجم، فن، جون ليسر وأعمال نيسرون وبروكير.

والزمن الذي يُفني كل شيء سيفني حتى الذنوب. وسوف يعجب الناس عندما يرون أنفسهم تحت راية واحدة، وسيفنى كل شيء حتى القانون، ستُرفع المثل المقدسة من الأرض، وتُحمل إلى السجلات السماوية.

من باريس، في العشرين من شهر ذي الحجة من عام 1713

الرسالة السادسة والثلاثون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

تحظى القهوة بشعبية كبيرة في باريس، وهناك عدد كبير من المنازل العامة حيث تُقدم. وتقال في بعض هذه البيوت أخبار، وفي حالات أخرى يُلعب الشطرنج. هناك واحد من هذه البيوت[1] حيث تُحَضَّر القهوة بطريقة تمنح الذكاء لأولئك الذين يتناولونها، وأقل ما يُقال، إنه من بين كل أولئك الذين يخرجون لا يوجد أحد لا يعتقد أن ذكاءه قد تضاعف أربع مرات أكثر مما كان عند دخوله.

لكن ما يصدمني بشأن هذه العقول الطيبة أنها لا تقدم نفعاً إلى أوطانها، وأنها تحول مواهبها إلى أشياء صبيانية. على سبيل المثال عندما وصلت إلى باريس، وجدتهم في نقاش ساخن بسبب أتفه حجة يمكن تخيلها، لقد كانت تتعلق بسمعة شاعر يوناني[2] قديم، لم نعرف عنه منذ ألفي عام لا موطنه ولا تاريخ وفاته. اعترف الطرفان أنه كان شاعراً ممتازاً، ولم يكن يتعلق الخلاف إلا بجدارة أكثر أو أقل ينبغي أن تنسب إليه. أراد الجميع إعطاء قيمة، ولكن من بين هؤلاء الموزعين للشهرة، كان بعضهم يمنحه

(1) مقهى بركوب، مكان التقاء العقول النيرة في القرن الثامن عشر.

(2) خلاف القدماء والمحدثين، كان هومير هو موضوع النقاش الأساسي، والذي برزت فيه أسماء مثل بوالو وبيرو ولاموت ومدام داسييه.

وزناً أكبر من الآخرين، وهذا هو الخلاف الذي كان مفعماً بالحيوية، لأنهم تبادلوا بعضهم بين بعض مثل هذه الإهانات الفظيعة، وألقوا نكاتاً مريرة، لدرجة أن عجبي من طريقة المناقشة لا يقل عن عجبي من موضوعها. فقلت في نفسي: لو أن انساناً طائشاً بما يكفي للذهاب، أمام أحد هؤلاء المدافعين عن الشاعر اليوناني، لمهاجمة سمعة مواطن شريف، لما تحمسوا كل هذه الحماسة، وأعتقد أن هذه الحماسة المرهفة لسمعة الموتى أولى أن تكون للدفاع عن سمعة الأحياء. ثم قلت: مهما كان الأمر فلينقذني الله من إثارة عداوة نقاد هذا الشاعر الذي لم يسلم من حقدهم الممقوت على الرغم من بقائه في القبر ألفي عام! هم الآن يلكمون في الهواء، فماذا لو كان غضبهم لمواجهة عدو من أعدائهم؟

أولئك الذين حدثتك عنهم للتو يتجادلون في لغة عامية مبتذلة، ويجب تمييزهم من نوع آخر من المتنازعين، الذين يستخدمون لغة بربرية،[1] والتي يبدو أنها تضيف شيئاً إلى غضب وعناد المتنازعين. هناك أحياء[2] حيث يرى المرء نوعاً من المشاجرة السوداء الثقيلة لهذه الأنواع من الناس، يتغذون على الخلاف، ويعيشون على المنطق الغامض والنتائج الكاذبة. وهذه حرفة يموت أصحابها جوعاً لكنهم لا يقلعون عنها. لقد رأينا أمة بأكملها،[3] طردت من بلادها، تعبر البحار لتستقر في فرنسا، لم تحمل معها لتلبية احتياجات الحياة إلا موهبة هائلة في الجدل. وداعاً.

من باريس، في آخر أيام شهر ذي الحجة من عام 1713

---

(1) اللاتينية.

(2) السوربون والجامعة.

(3) الهيبريون أو الإيرلنديون.

الرسالة السابعة والثلاثون

من أوزبك إلى إيبين في أزمير

أصبح ملك فرنسا عجوزاً.[1] وليس لدينا مثال في تاريخنا لملك حكم مثل هذه الفترة الطويلة. يقال إنه يمتلك إلى درجة عالية موهبةَ جعل نفسه مطاعاً، إنه يحكم بنفس العبقرية عائلته وبلاطه ودولته، لقد سُمع كثيراً يقول إنه من بين جميع أنظمة الحكم في العالم، فإن حكم الأتراك أو حكم سلطاننا المَهيب هما أكثر ما يستهويه، فكثيراً ما يقتدي بالسياسة الشرقية.[2]

لقد درست شخصيته، ووجدت فيها تناقضات يستحيل عليّ حلها، على سبيل المثال، لديه وزير يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً فقط،[3] وعشيقة تبلغ من العمر ثمانين عاماً،[4] كان يحب دينه، ولا يتحمل من

---

(1) لويس الرابع عشر، كان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، ويحكم منذ سبعين عاماً.

(2) كان رجال البلاط يتناقشون أمام لويس الرابع عشر، الذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً فقط، السلطة المطلقة للسلاطين، الذين يتصرفون في ممتلكاتهم وحياة رعاياهم: «هذا هو، قال الملك الشاب، ما يُسمى بالحكم»، المارشال ديستري الذي كان خائفاً من التصرفات التي يعد بها مثل هذا الاعتراف، أضاف: «لكن يا مولاي، خُنق اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الأباطرة في زمني». (ملاحظات من طبعة داليبون، باريس 1826).

(3) مَن هذا الوزير؟ كان باربيزيو، ابن لوفوا، الذي استشهد به المعلقون، وزيراً في الثالثة والعشرين من العمر، وليس في الثامنة عشرة. بالإضافة إلى أنه كان مُتَوَفًى في 1713.

(4) السيدة مينتونون، والتي تزوجها لويس الرابع عشر سراً.

يقول إنه يجب التقيد به بصرامة،[1] يهرب من ضجيج المدن، ولا يتحدث إلى الناس إلا قليلاً، إلا أن شغله الشاغل من الصباح حتى المساء هو جعل الناس يتحدثون عنه، يحب الغنائم والانتصارات، لكنه بمقدار هذا الحب يخشى رؤية قائد قوي على رأس قواته كما لو كان هذا القائد على رأس جيش معاد. أعتقد أنه لم يحدث أبداً لسواه أن أصاب ثروة تفوق ما يمكن أن يأمله أي أمير، وفي نفس الوقت غارق في فقر لا يستطيع أن يتحمله أحد.

يحب إرضاء من يخدمونه، لكنه يدفع بسخاء لمن يُجالسونه، أو بالأحرى لبطالة حاشيته، أكثر مما يدفع لقواده نظير الحملات الشاقة التي يقومون بها. وقد يفضل رجلاً يساعده في خلع ملابسه، أو يعطيه المنديل عندما يجلس إلى المائدة، على آخر فتح له مدناً، أو انتصر في معارك، ولا يؤمن أن على الملك الاهتمام في توزيع النعم، ولا البحث فيما إذا كان من يمنحه العطايا جدير بها أم لا، فإنه يعتقد أن مجرد اختياره سيجعله كذلك، كما شوهد وهو يعطي معاشاً تقاعدياً صغيراً لرجل فر من واجبه فرسخين، ومنصباً حكومياً لشخص آخر هرب منه أربعة فراسخ.

إنه رائع في اهتمامه بمبانيه، حتى إن عدد التماثيل في حدائق قصره[2] يفوق عدد سكان مدينة كبيرة.

---

(1) المتعصبون.

(2) قصر فرساي.

حرسه قوي كحرس الأمير الذي تتداعى أمامه كل العروش،[1] جيوشه كبيرة العدد، وموارده عظيمة، وأمواله لا تنضب.[2]

من باريس، في السابع من شهر محرم من عام 1713

---

(1) شاه الفُرس.

(2) تعرض مونتسكيو لانتقادات بسبب قسوته تجاه لويس الرابع عشر: كان رجال القرن الثامن عشر أكثر تساهلاً مع الملك العظيم، فما علينا إلا قراءة ڤولتير في هذه النقطة، لكن كان لدى مونتسكيو أفكار محددة حول هذا العهد أبهرت معاصري لويس الخامس عشر، يمكننا مقارنة هذه الرسالة بصورة لويس الرابع عشر المحفوظة في أفكار متفرقة للمؤلف: «لويس الرابع عشر، ليس مسالماً ولا محارباً، كانت لديه مبادئ العدالة والسياسة والإيمان وهيئة ملك عظيم. لطيف مع خدمه، ليبرالي مع حاشيته، جَشِع مع شعبه، قلق مع أعدائه، مستبد في عائلته، ملك في بلاطه، قاسٍ في مشوراته، طفولي في إدراكه، غبي في كل ما يتعلق بالأمير، والوزراء، والنساء، والمؤمنين. حاكم ومحكوم دائماً، تعيس في اختياراته، محب للحمقى، مزعج للموهوبين، خائف من أصحاب العقول، جاد في حبه، وفي تعلقه الضعيف الأخير بارتكاب الآثام. دون أي ثبات ذهني في النجاحات، ولا قوة أمنية في النكسات وبلا شجاعة في موته. أحب المجد والدين، ومُنع طوال حياته من معرفة أي منهما. لم يكن ليمتلك أي من هذه العيوب تقريباً، لو كان قد نشأ بشكل أفضل قليلاً، وكان لديه ذكاء أكثر قليلاً. كانت روحه أعظم من عقله. كانت مدام دي مينتينون تُصغر باستمرار هذه الروح حتى تصل إلى وجهة نظرها هي».

الرسالة الثامنة والثلاثون

من ريكا إلى إيبين في أزمير

إنها قضية كبيرة لدى الرجال، معرفة ما إذا كان من الأفضل حرمان المرأة من حريتها بدلاً من تركها لها. ويبدو لي أن هناك العديد من الأسباب المؤيدة والمعارضة. إذا قال الأوروبيون إنه ليس من الكرم جعل مَن نُحِبّهن تعيسات، فإن الآسيويين يجيبون بأنه من الهوان تخلي الرجال عن السلطة التي منحتها لهم الطبيعة على النساء. وإذا قيل لهم إن العدد الكبير من النساء المحتجزات أمر مزعج، يجيبون أن عشر نساء مطيعات أقل إزعاجاً من واحدة غير مطيعة. وإذا اعترض الآسيويون بدورهم على أن الأوروبيين لا يمكنهم أن يكونوا سعداء مع نساء غير مخلصات لهم، أجيبوهم إن هذا الإخلاص الذي يتباهون به كثيراً، لا يمنع النفور الذي يتبع دائماً إشباع الشهوات عند تلبية نسائنا لنا، وأن مثل هذا الامتلاك المطمئن لا يترك لنا شيئاً من الرغبة أو الخوف منهن، وأن القليل من الغنج هو مِلْح يثير الرغبة ويمنع الفجور. ربما رجل أحكم مني سيتردد في اتخاذ قرار، لأنه إذا كان الآسيويون يقومون بعمل جيد جداً في البحث عن وسائلَ لتهدئة مخاوفهم، فإن الأوروبيين يجتهدون أيضاً في ألا يكون لديهم أيُّ قلق.

بعد كل شيء، كما يقولون، عندما نكون غير سعداء كأزواج، سنجد

دائماً طريقة لتعويض أنفسنا كعشاق. وإذا كان على رجل تقديم شكوى بسبب خيانة زوجته، فذلك لأنه ليس في العالم سوى ثلاثة أشخاص من هذا القبيل، وسيكونون حديث الناس إذا أصبحوا أربعة.

وما إذا كان القانون الطبيعي يُخضع النساء للرجال هي مسألة أخرى. قال لي ذات يوم فيلسوف محترم جداً: لا، لم تفرض الطبيعة مثل هذا القانون أبداً، وإن سيطرتنا عليهن هي طغيان حقيقي، وإنهن يسمحن لنا بذلك لأنهن ألطف منا، وبالتالي أكثر إنسانيةً وتعقلاً. هذه المزايا يجب أن تمنحهن التفوق إذا كنا محقين، أو نرفض ذلك لأننا غير منصفين.

الآن وإذا كان صحيحاً أننا لا نملك سوى سلطة استبدادية على النساء، فليس أقل منها أن لديهنّ سلطة طبيعية علينا، ألا وهي سلطة الجمال التي لا يمكن أن يقاومها شيء. سلطاننا عليهن ليس في جميع البلدان، لكن الجمال عالمي. فلماذا إذن لدينا امتياز؟ ألأننا الأقوى؟ لكنه ظلم حقيقي. فنحن نستخدم كل الوسائل لكسر شجاعتهن، وستكون القوى متكافئة إذا كانت التربية متساوية. دعونا نختبرهن في المواهب التي لم تضعفها التربية، وسنرى ما إذا كنا أقوياء.

يجب الاعتراف إذن، على الرغم من أن هذا الاعتراف قد يصدم قيمنا، أنه بين أكثر الشعوب أدباً، كان للنساءِ دائماً سلطة على أزواجهن، أُسِّس هذا القانون بين المصريين تكريماً لإيزيس، وبين البابليين تكريماً لسميراميس. قيل عن الرومان إنهم حكموا كل الأمم، لكنهم خضعوا لزوجاتهم. وأنا لا

أتحدث عن السورمات[1] الذين كانوا عبيداً لهذا الجنس، لقد كانوا همجاً إلى حد كبير بحيث لا يمكن الاستشهاد بمثالهم.

كما ترى يا عزيزي إيبين، لقد أحببت هذا البلد، حيث يريد المرء أن يدعم الآراء غير الاعتيادية، ويختزل كل شيء إلى معضلة. لقد حسم نبينا المسألة، وقرر حقوق الجنسين. ويقول إن على النساء أن يكرمن أزواجهن كما على هؤلاء الأزواج أن يكرموا زوجاتهم، لكن يبقى للأزواج ميزة على زوجاتهم.

من باريس، في السادس والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام 1713

---

(1) هيرودوت، المقطع الرابع، ص: 147 ـ 110.

الرسالة التاسعة والثلاثون

من الحاج[1] إيبي إلى اليهودي ابن جزوي المعتنق للإسلام في إزمير

يبدو لي يا ابن جزوي أن هناك دائماً علامات باهرة تمهد لميلاد رجال استثنائيين، كأنما الطبيعة عانت من نوع من الأزمات، وأن القوة السماوية لا تخلق إلا بجهد.

ليس هناك ما هو أعجب من ولادة محمد. فقد قرر الله عبر عنايته الإلهية منذ بدء الخليقة أن يرسل إلى البشر هذا النبي العظيم ليقيد الشيطان، خلق نوراً قبل آدم بألفي سنة، والذي انتقل من مختار إلى مختار، ومن سلف إلى سلف، حتى وصل أخيراً إلى محمد كشهادة صادقة أنه من نسل الآباء الأطهار.

وبسبب هذا النبي نفسه، لم يُرد الله أن يُنجب أي طفل، إلا إن تطهرت المرأة وخُتن الرجل.

ولد النبي مختوناً، وظهر الفرح على وجهه منذ ولادته، اهتزت الأرض ثلاث مرات كأنها هي التي ولدته، وسجدت كل الأصنام، نكست عروش الملوك، ألقي الشيطان في قاع البحر، وفقط بعد أن سبح لمدة أربعين يوماً، خرج من الهاوية، وهرب إلى جبل قابس، ومن هناك نادى الملائكة بصوت رهيب.

---

(1) الحاج هو الرجل الذي قام برحلة الحج إلى مكة.

في تلك الليلة، وضع اللّٰه حداً[1] بين الرجل والمرأة، لا يستطع أي منهما تجاوزه. بَطُل فن السحرة والغيبيات. سمع صوت من السماء يقول هذه الكلمات: لقد أرسلت إلى العالم صديقي الأمين.

وبحسب شهادة المؤرخ العربي إسبن أبين، فإن سلالات الطيور والسحب والرياح وجميع أسراب الملائكة اجتمعت لتربية هذا الطفل، وتنازعوا هذا الفضل. قالت الطيور مغردة إنه كان من الأنسب لها تربيته، لأنها تستطيع بسهولة جمع العديد من الثمار من أماكن مختلفة. وتمتمت الرياح فقالت: بل هو لنا لأننا نأتي إليه من كل مكان بأحلى الروائح. وقالت السحب: لا، لا، يجب أن تُعهد رعايته إلينا، لأننا سنحمل إليه في كل لحظة مياهاً منعشة. فصرخت الملائكة الغاضبة: ماذا بقي لنا أن نفعل؟ ولكن سمع صوت من السماء أنهى كل الخلافات: لن يُنزَع من أيدي البشر الفانين، لأن الأثداء التي قد ترضعه، كما الأيدي التي قد تمسه، والبيت الذي قد يسكنه، والسرير الذي قد يضطجع عليه، سينعمون بالسعادة.

بعد الكثير من هذه الشهادات الرائعة يا عزيزي جزوي، يجب أن يكون لدى المرء قلب من حديد حتى لا يؤمن بشريعته المقدسة. ما الذي يمكن أن تفعله السماء أكثر من ذلك لتمهد لرسالتها الإلهية، إلا أن تطيح بالطبيعة، وتهلك البشر الذين تريد إقناعهم؟

من باريس، في العشرين من شهر رجب من عام 1713

---

(1) حاجز.

الرسالة الأربعون

من أوزبك إلى إيبين في أزمير

إذا مات رجل عظيم، اجتمع الناس في المسجد، وأقاموا له خطبة جنائزية، هي حديث في مدحه، يشعر فيها المرء بالحرج الشديد كي يقرر بالضبط ما مزايا المتوفى.

أريد أن ألغي الاحتفالات الجنائزية، لأنه يجب أن نبكي الناس عند ولادتهم، لا عند موتهم.

فما فائدة هذه الاحتفالات، ومظاهر الحزن التي نظهرها للمحتضر في لحظاته الأخيرة، دموع عائلته، ألم أصدقائه، إلا مضاعفة الشعور بفقده؟

نحن عميان جداً، بحيث لا نعلم متى يجب أن نحزن، أو نفرح، ونكاد لا نملك إلا حزناً مزيفاً، أو سروراً مزيفاً.

عندما أرى الزعيم الهندي، يذهب كل سنة، بحماقة، ليجلس على الميزان، ويزين نفسه مثل عجل، عندما أرى الناس يبتهجون لأن هذا الأمير أصبح أضخم، ما يعني أنه أصبح أقل قدرة على حكمهم، أشفق يا إيبين على هذا الجنون الإنساني.

من باريس، في العشرين من شهر رجب من عام 1713

الرسالة الحادية والأربعون

من كبير الخصيان الأسود إلى أوزبك

إسماعيل، أحد خصيانك السود، قد مات مؤخراً، سيدي العظيم، وإني لا أستطيع منع نفسي من تعويضه. وبما أن الخصيان نادرون للغاية هذه الأيام، فقد فكرت بأن أستفيد من عبد أسود لديك في الريف، لكنني لم أستطع حتى الآن أن أدفعه إلى تحمل العناء الذي يتطلبه هذا العمل.

بما أنني أرى أن ذلك من مصلحته، فقد أردت أن أستعمل معه بعض الصرامة بالأمس، وبالتنسيق مع مشرف الحدائق لديك، أمرت، على الرغم منه، بأن يتولى تقديم الخدمات التي تستميل قلبك كثيراً، وأن يعيش مثلي في هذه الأماكن المهيبة التي لن يجرؤ حتى على النظر إليها، لكنه أخذ يصرخ، كما لو أردنا ذبحه، وحاول كثيراً حتى الهرب من بين أيدينا، متحاشياً السكين القاتلة.

لقد علمت للتو أنه أراد أن يكتب إليك كي يطلب عفوك، متذرعاً أنني لم ألجأ إلى هذه الخطة إلا رغبة مني في الانتقام لسخريات لاذعة يقول أنه هَزِئَ بها مني. لكنني أقسم لك بمئات الآلاف من الأنبياء، أنني لم أتصرف إلا لخير خدمتك، وهي أكثر ما يعز علي، ولا أبتغي شيئاً سواها. أنحني عند قدميك.

من قصر فاطمة، في السابع من شهر محرم من عام 1713

الرسالة الثانية والأربعون

من فاران إلى أوزبك: سيده العظيم

لو كنت هنا، يا سيدي الجميل، لأظهرتُ لك براءتي، فأنا لا أجد ما يكفي من الأوراق حتى أكتب لك جميع الإساءات التي وجهها إليّ، منذ رحيلك، كبير خصيانك الأسود، أتعس الرجال ذاك.

وبحجة السخرية من سوء حاله، حسب ما يدّعي، أنزل عليّ انتقامه، فقد حرّض ضدي مشرف حدائقك القاسي الذي أوكل إلي منذ رحيلك أعمالاً تعجيزية، ما دفعني إلى التفكير مرات كثيرة في إنهاء حياتي، حتى لا أفقد شغف خدمتك. وكم من مرة قلت لنفسي: إن لديَّ سيداً عطوفاً، لكنني أتعس عبد على هذه الأرض.

أعترف لك، يا سيدي، أنني لم أنتظر مصيراً بهذا البؤس، لكن هذا الخصي الخائن بلغ أقصى خبثه. منذ بضعة أيام، تبعاً لسلطته الخاصة، جعلني حارساً على نسائك المصونات، الأمر الذي يفوق الموت قسوة ألف مرة.

أولئك الذين عند ولادتهم نالوا نصيبهم من قسوة آبائهم، يعزون أنفسهم بأنهم لم يعرفوا حالاً أخرى غير التي هم عليها، أما أن تُهدر إنسانيتي، وأُحرم منها، فإنني سوف أموت من الألم، إن لم أمت من هذه الوحشية.

أقبل قدميك، سيدي الجليل، بمنتهى التواضع، راجياً منك أن تغمرني بعظيم فضلك، حتى لا يُقال إن عبداً لديك كان أشد الناس بؤساً.

من حدائق فاطمة، في السابع من شهر محرم من عام 1713

الرسالة الثالثة والأربعون

من أوزبك إلى فاران في حدائق فاطمة

ليغمر السرور قلبك، ولتطمئنك هذه الأحرف، أَطْلع عليها كبير الخصيان ومشرف الحدائق. يُمنع عليهم مضايقتك منعاً باتاً، أخبرهم بأن يشتروا الخصي المطلوب. افعل ما يمليه عليك واجبك، كما لو أنك أمام ناظري، واعلم أنه بقدر إحساني يكون عقابي إن أسأت عملك.

من باريس، في الخامس والعشرين من شهر رجب من عام 1713

الرسالة الرابعة والأربعون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

في فرنسا ثلاثة مستويات للدولة: الكنيسة، الجيش، والقضاء. ولكل منها ازدراؤها العميق للمستويات الأخرى. مثلاً، يجب أن نحتقر الأحمق الذي ليس أحمق إلا لأنه رجل قضاء.

حتى أصحاب الحِرف الأكثر تواضُعاً يجادلون في مزايا حرفتهم التي اختاروها. كل واحد فيهم يتعالى على صاحب مهنة مختلفة عن مهنته نسبةً إلى فكرة كوّنها عن سمو مهنته.

والناس يشبهون، بشكلٍ أو بآخر، تلك المرأة من مقاطعة إيريفان، التي حين تلقت مكرمة من أحد ملوكنا، تضرعت إلى السماء ألف مرة، بأن يصبح حاكماً لمقاطعتها.

قرأت، في تقرير، أن سفينة فرنسية توقفت عند ساحل غينيا، أراد بعض رجال الطاقم الذهاب إلى الشاطئ لشراء بعض الخراف، فاقتيدوا إلى الملك الذي ينظر في أمر رعاياه تحت شجرة. كان الملك جالساً على عرشه الخشبي، فخوراً كما لو أنه يجلس على عرش المغول العظيم. كان لديه ثلاثة أو أربعة حراس بحراب خشبية، تحت مظلة شبيهة بخيمة تقيه وهج الشمس. زينته هو وزوجته ما هي إلا جلد أسود وبعض الخواتم.

هذا الأمير شديد البؤس، سأل هؤلاء الغرباء إذا ما كانوا يتحدثون عنه في فرنسا، ظناً منه أنه ذائع الصيت، فعلى خلاف الفاتح الذي أسكت الأرض كلها، كان هذا الأمير يعتقد أنه على الجميع التحدث عنه.

حين تغدى خان التتار، صرخ جندي بأن كل أمراء الأرض يمكنهم تناول الغداء، إن أرادوا، وهذا الهمجي الذي لا يأكل إلا اللبن، وليس عنده بيت، ويعيش على السرقة، يرى كل ملوك العالم عبيداً له، ويَسبّهم بانتظام مرتين في اليوم.

من باريس، في الثامن والعشرين من شهر رجب من عام 1713

الرسالة الخامسة والأربعون

من ريكا إلى أوزبك في...

صباح أمس، وبينما أنا في سريري، سمعت طرقاً عنيفاً على الباب، الذي فُتح فجأة كأنه دُفع، من قبل رجل يبدو غاضباً، كنت قد التقيته في مكان ما.

كان لباسه شديد التواضع، شعره المستعار لم يكن ممشطاً، ولم يجد وقتاً كافياً ليخيط قبعته السوداء، وقد تخلى عن رزانته التي اعتاد بها إخفاء سوء مظهره.

انهض، قال لي، فأنا أحتاج إليك طوال هذا اليوم، سأشتري أشياء كثيرة ويريحني أن أكون معك. يجب أن نذهب أولاً إلى شارع سانت أونوري لكي نتحدث إلى كاتب العدل المسؤول عن بيع قطعة أرض بخمسمئة ألف جنيه. أريد أن يخصني بها. في طريقي إلى هنا، توقفت في ضاحية سان جيرمان حيث استأجرت فندقاً بألفي فرنك، وآمل أن أمضي العقد اليوم.

وما إنْ لبست حتى أنزلني بسرعة، وقال: لنبدأ بشراء عربة، وتجهيز ملحقاتها، وقد اشترينا، بالإضافة إلى العربة، بضائع بقيمة مئة ألف فرنك، في أقل من ساعة، كل هذا تم بسرعة، لأن صاحبنا لم يساوم على شيء،

ولم يحسب لشيء، ولم يتنقل كثيراً. تأملت كل هذا، تفحصت الرجل فلم أستطع أن أحدد إن كان غنياً أو فقيراً.

لكنني خرجت عن صمتي أخيراً، أخذته جانباً وسألته: سيدي، من سيدفع ثمن كل هذا؟ قال: أنا. تعال إلى غرفتي، سأريك كنوزاً وثروات يطمع بها كبار الملوك، لكنها لن تكون لك وحدك، وإنما ستتشاركها معي. تبعته، صَعِدنا إلى الطابق الخامس، وبواسطة سلم بلغنا السادس، فرأيت كوخاً مفتوحاً على الجهات الأربع، لم يكن فيه إلا دزينتان أو ثلاث من الأحواض الترابية المملوءة بمختلف أنواع السوائل. أخبرني أنه استيقظ في الصباح الباكر، وقام بما اعتاد فعله منذ خمس وعشرين عاماً: الذهاب وتفقُّد عمله: رأيت أن اليوم المنتظر قد أتى، اليوم الذي سيجعلني أغنى رجل على هذه الأرض. أترى هذا السائل القرمزي؟ إن له الآن جميع الخواص المطلوبة حتى يستطيع الفلاسفة تحويل هيئة المعادن. لقد استخلصت منه هذه الحبيبات التي تراها، إنها ذهب خالص حسب لونها، على الرغم من خفة وزنها. هذا السر الذي اهتدى إليه نيكولاس فلاميل، وظل ريموند لول وملايين غيره يبحثون عنه بلا جدوى، عرفته أنا، لأرى نفسي اليوم تابعاً سعيداً، وأرجو الله ألا أستخدم هذه الكنوز التي خصَّني بها إلا فيما يرضيه.

خرجت، ونزلت، بالأحرى هَرعتُ مسرعاً إلى أسفل الدرج، ثائر الغضب، تاركاً ذلك الرجل الغني في مستشفاه.

الوداع عزيزي أوزبك، سأراك غداً، وإن شئت، عدنا معاً إلى باريس.

من باريس في آخر أيام شهر رجب من عام 1713

الرسالة السادسة والأربعون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

أرى هنا أناساً يتجادلون بلا نهاية حول الدين، لكنهم أيضاً على ما يبدو يجادلون من لا يعتدّون به كثيراً.

ليسوا فقط مسيحيين صالحين، بل أيضاً مواطنون صالحون، وهذا ما يعنيني، لأنه، في أديان كثيرة أخرى، فإن احترام القانون، وحب الناس، وبر الوالدين، هي من تعاليم الدين الكبرى.

في الواقع، ألا ينبغي أن يكون الهدف الأسمى للمتدين هو إرضاء الاله الذي شرع هذا الدين؟ لكن الوسيلة الأضمن لتحقيق ذلك هي بلا شك مراعاة قواعد المجتمع والواجبات الإنسانية. ولأنه، في دين ما نعيشه، وبمجرد التزامنا به، فإننا نفترض أيضاً أن اللّٰه يحب الناس بما أنه قد أسس لهم ديناً يجعلهم سعداء. وإن كان يحب الناس، فإننا وبغية إرضائه علينا أن نحبهم أيضاً، ما يعني أن نتوجه نحوهم بكل ما لدينا من إحسان وإنسانية، وألا ننتهك القوانين التي يعيشون في ظلها. بهذا نكون أكثر ثقة برضا اللّٰه مما لو أقمنا شعائر معينة، لأن الخير ليس في الشعائر بحد ذاتها، ولا خير فيها إلا بوجود الاحترام. وعلى فرض أن اللّٰه أمرنا بها، فإنها مثار جدل كبير، يمكن للإنسان أن يخطئ فيها بسهولة، لأن عليه أن يختار لنفسه شعائر دين بين ألفي دين.

كان رجل يصلي لربه كل يوم قائلاً: «إلهي، أنا لا أصغي لشيء من الجدالات التي تُثار حولك باستمرار، أريد أن أعبدك حسب إرادتك، لكن كل إنسان أستشيره يريدني أن أعبدك حسب إرادته. وحالما أرغب بتلاوة صلاتي إليك، لا أعلم بأية لغة أتلوها. حتى إنني لا أعرف بأية وضعية أصلي، فهذا يقول إن عليّ الصلاة منتصباً، والآخر يريدني أن أصلي جالساً، وثالثٌ يطلب مني أن أصلي راكعاً على ركبتي. هذا ليس كل شيء، فهناك من يدّعي أنه يجب أن أغتسل بالماء البارد كل صباح، وآخرون يؤكدون أنك ستراقبني بغضب شديد إن لم أُختتن. ذلك اليوم، كنت آكل أرنباً في عربة كرڤان بحضور ثلاثة رجال، أخافوني حين قالوا إنني أسأت لك بشدة، أحدهم يرى أن الحيوان كان قذراً، والآخر أنه كان مخنوقاً، والثالث أنه لم يكن سمكاً. مرّ بنا رجل برهمي، رجوته أن يحكم بيننا فقال: إنهم مخطئون، فكما يبدو أنت لم تقتل هذا الحيوان بنفسك، فقلت له: وماذا لو أنني فعلت، أجابني بصوت قاسٍ: إن هذا فعلٌ لن يغفره الله لك أبداً، ماذا لو أن روح أبيك قد استقرت في هذا الحيوان؟ كل هذه الأشياء يا إلهي تركتني في حيرةٍ لا يمكن تصورها، لا أستطيع تحريك رأسي إلا وأنا مهدد بمعصيتك، ومع ذلك أريد طاعتك، وأن أفني الحياة التي وهبتني في ذلك. لا أعلم إن كنتُ آثماً، لكن أفضل وسيلة لنيل رضاك هي أن أعيش كمواطن صالح في المجتمع الذي خلقتني فيه، وأباً صالحاً للعائلة التي منحتني.

من باريس، في الثامن من شهر شعبان من عام 1713

الرسالة السابعة والأربعون

من زاكي إلى أوزبك

عندي لك خبر عظيم، لقد تصالحت مع زفيس، والقصر الذي كان مقسوماً بيننا، قد توّحد. لا ينقصنا إلا حضورك في هذه الأماكن المفعمة بالسلام. تعالَ أيها العزيز أوزبك، حتى ينتصر الحب فيها.

لقد أقمت لزفيس وليمة عظيمة، دعوت إليها والدتك ونساءك ومحظياتك المقربات، عماتك وكثيرات من بنات عمومتك قد حضرنَ أيضاً، جئن على الخيول، تحت سحاب قاتم من حجاباتهن وثيابهن.

في اليوم التالي انطلقنا إلى الريف، حتى نخفف عن أنفسنا، ركبنا جمالنا، أربعة في كل هودج. ولما كانت رحلتنا مفاجئة، لم يكن لدينا وقت كي نُعلم المنطقة بوصولنا، لكن كبير الخصيان المجتهد اتخذ احتياطاً آخر، فقد وضع حولنا ستاراً سميكاً يحول دون أن نَرى أو نُرى.

عندما وصلنا إلى النهر الذي علينا اجتيازه، وضِع كل منا في صندوق، حسب الأصول، وحُمِل إلى القارب، فقد قيل لنا إن النهر كان مكتظاً بالناس. أحد الفضوليين اقترب من مخبئنا فتلقى ضربة مميتة حرمته نور الحياة إلى الأبد. رجل آخر، كان يستحم عارياً على الشاطئ، لقي ذات المصير، وهكذا ضحى خصيانك المخلصون بهذين البائسين صوناً لشرفك وشرفنا.

لكن أصْغِ إلى باقي مغامرتنا، عندما كنا في وسط النهر، هبت ريح عاتية، وغطت السماء سحابة مخيفة، أصاب اليأس بحّارتنا وأغمي علينا من الخوف. أذكر أنني سمعت أصوات خصياننا وجدالهم، فمنهم من يقول إنه يجب إنذارنا بالخطر وإخراجنا من صناديقنا، لكن زعيمهم أكد أنه يفضل الموت على انتهاك شرف سيده، وأنه سيزرع خنجره في صدر من يُقدم اقتراحاً كهذا. رَكَضَت نحوي إحدى جواريّ، خالعةً ثيابها، حتى تنقذني، لكن خصياً أسود أمسكها بعنف وأعادها إلى المكان الذي خرجت منه. حينها كان مغمىً علي، ولم أفق إلا بعد زوال الخطر.

كم هي مرهقة الرحلات على النساء! أما الرجال فلا يتعرضون إلا للمخاطر التي تهدد حياتهم، لكننا في كل لحظة نخاف أن نفقد حياتنا أو شرفنا.

وداعاً عزيزي أوزبك، أحبك دائماً.

قصر فاطمة، في الثاني من شهر رمضان من عام 1713

الرسالة الثامنة والأربعون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

هؤلاء الذين يحبون أن يتعلموا، لن يكونوا متفرغين أبداً. ومع أنني لست ملتزماً بأي عمل مهم، إلا أنني في انشغال مستمر. أمضي وقتي في مراقبة ما حولي، أكتب في المساء ما لاحظته أو رأيته أو سمعته خلال النهار. كل شيء يثير اهتمامي، كل شيء يدهشني، فأنا كالطفل الذي تستجيب أعضاؤه الغضة لأدنى مؤثر.

ربما لن تصدقني إن قلت لك: لقد استُقبِلنا استقبالاً حسناً في كل الهيئات والمجتمعات. أعتقد أنني مدينٌ بذلك لفطنة ريكا وبهجته، مما يجعله يألف الجميع ويألفونه. عاد مظهرنا الغريب لا يلفت أحداً، وصرنا نستمتع بدهشتهم حين يرون من سلوكنا بعض التهذيب، فالفرنسيون يتوقعون أن بيئتنا لا تنجب أناساً مهذبين، لكنني مع ذلك أعترف بأنهم يستحقون عناء تصويب فكرتهم.

قضيت بضعة أيام في منزل ريفي قرب باريس، عند رجل مهم يسعَد بوجود صحبة في بيته. له زوجة ودودة للغاية، قد جمعت بين التواضع الكبير والبهجة التي تفتقدها سيدات فارس بسبب حياتهن المحافظة.

وبما أنني كنت غريباً، فلم أجد شيئاً أفضل من دراسة ذلك الحشد من

الناس الذين كانوا يأتون إليه بلا انقطاع، كاشفين لي دائماً عما لا أعرفه فيهم. في البداية لاحظت رجلاً، أعجبتني بساطته، توطدت صلتنا بحيث ترانا دائماً أحدنا قرب الآخر. وفي أحد الأيام، بحضور جمع من الناس، انتحينا جانباً، وشرعنا في أحاديث كثيرة، فقلت له: قد ترون فيّ رجلاً لديه من الفضول أكثر مما لديه من الأدب، لكنني استأذنكم بطرح بعض الأسئلة، فأنا لا أحبذ أن أكون جاهلاً بشيء، أو أن أعيش وسط ناس لا أعرفهم. إني أفكر منذ يومين، فقد شغلني هؤلاء الناس طويلاً، ولن أكتشفهم ولو في ألف عام، إنهم غير مرئيين بالنسبة إلي أكثر من نساء ملكنا العظيم. ما عليك إلا أن تسألني، أجاب، وسأخبرك بكل ما تريد معرفته، فأنت رجل رصين ولن تخون ثقتي.

فسألته: من هذا الذي يحدثنا عن ولائمه التي أقامها لوجهائكم، المتآلف جداً مع نبلائكم، الذي يتحدث إلى وزرائكم بعيدي المنال؟ يبدو أنه ذو مكانة، لكن هيئته وضيعة، ولا يبدو ذا شأن كبير، بالإضافة إلى افتقاره إلى أية ثقافة حسب رأيي. أنا رجل غريب، لكنني أعتقد أن الأمم جميعها تتشارك مقداراً ما من آداب السلوك، وهذا ما لا أجده في رجلنا، فهل وجهاؤكم أقل مرتبةً من نظرائهم في الأمم الأخرى؟

أجابني ضاحكاً: إنه فلاح، أغنى من الآخرين لكنه أقلهم نَسَباً، لديه أفخم الموائد لو أراد أن يأكل في بيته، إنه سفيه كما ترى، لكنه يمتاز بمهارة طباخه، وهو ليس جاحداً له، فقد أثنى عليه اليوم كما سمعت.

فقلت له: ومن ذاك الضخم المتشح بالسواد، الذي أجلسته السيدة بقربها؟ كيف يلبس الحداد، لكن مظهره مرحٌ ومحياه يفيض ألَقاً؟ إنه يبتسم لمجرد أن يحدثه أحد، وعلى الرغم من تواضع مظهره فإنه أكثر أناقةً من

نسائكم. أجابني بأنه واعظ، وأسوأ ما فيه أنه رئيس الوعاظ، فهو كما ترى يعرف عن مواطن ضعف النساء أكثر مما يعرف عن أزواجهن، وهن يعرفن أيضاً بضعفه. فقلت: كيف ذلك؟ إنه دائم الحديث عن ما يدعوه الفضيلة. أجابني: ليس دائماً، فقد يهمس في أذن امرأة جميلة يُذكرها بذنبها، لكنه ينفجر كواعظ أمام العامة، ثم تراه حملاً وديعاً في حياته الخاصة. فقلت: يبدو لي أن الناس يُجِلّونه، وينظرون إليه بشيء من الوقار. فأجاب: وكيف لا نوقره؟ إنه في غاية الأهمية لنا، فهو يضفي بهجة على الحياة الرتيبة، بنصائحه، وخدماته، وزياراته المرموقة، ثم إنه يعرف كيف يخفف الألم أكثر من أي خبير في العالم. إنه رجل ممتاز.

فقلت له: إذا لم تزعجك أسئلتي، فأخبرني من ذلك الرجل أمامنا، رث الثياب، العبوس الذي يتكلم لغةً غير التي يتكلمها الناس، والذي لا يُتقن الحديث لكنه يُحاول أن يكون ظريفاً. أجابني: إنه شاعر، أسوأ البشر جميعاً. هؤلاء الناس يقولون إنهم ولدوا ليكونوا شعراء، وهذا صحيح، وسيظلون كذلك طوال حياتهم، أضحوكة الناس دائماً، لذلك لا يسلمون من ازدرائهم أبداً. إن الجوع هو ما دفعه إلى دخول بيتنا، حيث استقبلناه بطيبتنا وأدبنا المعهودين. لقد تغنى بزواجنا، وكان ذلك من أعظم ما فعل في حياته، فقد تنبأ بالسعادة لهذا الزواج وقد كان كذلك. ثم أضاف: قد لا تصدقني، بسبب أحكامك المسبقة كشرقي، أن بيننا أزواج سعداء، ونساء يتمتعن بالفضيلة. الناس الذين نتحدث عنهم يتمتعون بسلام لا يمكن المساس به، إنهم محبوبون ومقدَّرون من الجميع. المشكلة الوحيدة هي أنهم، لطيبتهم الفطرية، يستقبلون في بيتهم شتى أنواع البشر، ما يجعلهم برفقة أهل السوء أحياناً. وليس معنى هذا أنني أستهجنهم، علينا قبول

الناس كما هم، فمن الناس من يتميزون بحسن المعشر على الرغم من بعض رذائلهم الخفية، فتكون كالسُّم الذي أعذبه هو أشده فتكاً.

قلت له بصوت خفيض: وهذا الرجل العجوز، الذي يبدو شديد الحزن؟ ظننته غريباً في البداية، لأنه وبالإضافة إلى زيه المختلف عن الآخرين، فإنه يراقب كل ما يجري في فرنسا ويبدو غير راضٍ عن حكومتكم. أجابني: إنه محارب قديم، كل ما يعنيه هو أن يذكر الآخرين بأمجاده العسكرية، ولا يتقبل فكرة أن فرنسا كسبت حروباً لم يكن مشتركاً فيها، أو حصاراً لم يكن له فيه نصيب، ويرى نفسه جزءاً من تاريخنا الذي انتهى بانتهاء خدمته العسكرية، يتباهى بجروح أصابته لكنها زالت كما زالت الملكية، ويخالف رأي الفلاسفة القائل بأن نحيا الحاضر، والماضي قد ولى، فهو يعيش الماضي ولا يرى نفسه إلا في الحملات التي خاضها، ويتنفس هواء الأزمان الغابرة كما تعيش أمجاد الأبطال في الأزمنة التي تليهم. فقلت: لكن لماذا ترك الخدمة العسكرية؟ أجابني: لم يتركها، إنما هي من تركته، فقد عُين في وظيفة صغيرة، حيث سيروي مغامراته لبقية حياته بعد أن سُد طريق المجد أمامه. فقلت: لماذا؟ أجاب: لأن لدينا في فرنسا قاعدة تقول بعدم ترقية الضباط الذين استهلكوا طاقتهم في أعمال ثانوية، فنعتبر أن آفاقهم قد ضاقت وعادوا غير جديرين بأعمال عظيمة. نحن نعتقد أن الرجل الذي لا يمتلك صفات القائد في سن الثلاثين، والذي لا يستطيع من نظرة واحدة أن يستكشف مساحة من الأرض بأوضاعها المختلفة بفطنة حاضرة تقوده إلى الانتصار كما يمكن أن تُسعفه في حالة الهزيمة، فإنه لن يمتلكها أبداً. من أجل هذا تجد لدينا وظائف عظيمة لرجال كبار منحهم الله قلباً شجاعاً وعبقرية بطوليه، ووظائف بسيطة لهؤلاء الذين يمتلكون

مواهب محدودة، كالذين شاخوا في حروب غامضة، فإنهم لن ينجحوا في عمل إلا ما ألفوه طوال حياتهم، ولا ينبغي أن نحمّلهم الآن مسؤوليات لا طاقة لهم بها.

بعد برهة من الزمن عاودني الفضول فقلت: لقد عاهدت نفسي ألا أسألك مجدداً إن أجبتني عن هذا السؤال: من ذاك الشاب الطويل كثيف الشعر، الذي يبدو قليل الذكاء كثير التفاهة؟ يتحدث فيعلو صوته على الجميع ويرى نفسه جديراً بمخالطة كبار القوم. فأجابني: إنه من الأثرياء. عند هذه الكلمات، دخل أناس وخرج آخرون، بعضهم قام، وجاء واحد يتحدث إلى صاحبي، وبقيت أنا بلا جواب لسؤالي. بعد لحظات وبمحض الصدفة، جاء الشاب وخاطبني قائلاً: إن الطقس جميل، فهل ترغب في جولة في الأسفل؟ فوافقت بمنتهى الأدب، ثم خرجنا معاً. قال لي: لقد جئت من الريف إرضاءً لسيدة المنزل، فعلاقتنا طيبة. بعض النسوة متقلبات المزاج، فماذا نفعل لهن؟ لقد رأيت أجمل نساء باريس، لكنني لم ألتزم مع إحداهن، على الرغم من أنهن يَهَبْنني، لكن، والكلام بيننا، لست ذا شأن. قلت له: يبدو يا سيدي أن عندك مسؤوليات وأعمالاً تمنعك من توطيد علاقتك بإحداهن. أجاب: لا يا سيدي، ليس عندي من عمل إلا إغضاب زوج، أو تكريب أب، أحب أيضاً أن أزعج المرأة التي تظن أنها امتلكتني، فأدفع بها إلى حافَة الجنون. نحن قلة من الشباب تشاركنا باريس بهذه الطريقة، ونهتم بها في أبسط ما نفعل. فقلت له: حسب ما فهمته، فإنك أثرت لنفسك ضجة أكثر مما لدى محارب كبير، ومنزلة أكبر مما لدى حاكم عظيم، لو كنتَ في فارس، لما تمتعت بكل هذه المزايا، ولكان عليك أن تصون النساء أكثر من رغبتك في

إرضائهن. احمر وجهي، وللحظة اعتقدت أنني إن واصلت الكلام، فلن يمنعني شيء من توبيخه.

ماذا نقول عن بلد يغفر في الناس لمثل هؤلاء؟ وكيف يبقى حياً من اتخذ لنفسه مهنة كتلك؟ كيف تكون الخيانة، والغدر، والخطف، والخداع والظلم، وسائل لنيل التقدير؟ وكيف نقدّر رجلاً لأنه انتزع بنتاً من أبيها، وامرأة من زوجها، وعكّر صفو المجتمعات الهادئة الطاهرة؟ سعداء هم أبناء هالي الذين دافعوا عن عائلاتهم ضد الفجور والإغراء! إن الشعلة التي تتوهج في قلوب نسائنا أسطع من ضوء النهار، وقد تتوتر بناتنا إن فكرن في اليوم الذي قد يحرمن فيه من الفضيلة التي تضعهن في منزلة الملائكة والأخيار.

أرضنا الحبيبة التي لم تتدنس بهذه الجرائم البشعة، تشرق عليها الشمس بأنوارها الأولى، دون أن تُضطر إلى الاختباء كما تفعل عندما تطل على الغرب المظلم بأفعاله.

من باريس، في الخامس من شهر رمضان من عام 1713

الرسالة التاسعة والأربعون

من ريكا إلى أوزبك في...

بالأمس، وأنا في غرفتي، رأيت درويشاً يدخل علي بثياب غريبة، ولحية متدلية حتى حزامه، قدماه حافيتان، ثيابه رمادية اللون وممزقة، بدا الأمر غريباً جداً بالنسبة إليّ حتى إنني فكرت في طلب رسام لكي يصنع من هذا المشهد لوحة خيالية.

جاملني بادئ الأمر وأفهمني أنه رجل محترم وراهب، ثم أضاف: قيل لي يا سيدي إنك عائد إلى فارس حيث تتحلى بمكانة مرموقة، قد جئتك طالباً حمايتك، راجياً منك أن تحصل لنا من الملك على مسكن صغير، بالقرب من كاسبان، لاثنين أو ثلاثة من رجال الدين. فقلت: إذاً يا أبتاه فأنت ذاهب إلى فارس؟ فقال لي: أنا يا سيدي؟ حاشى ذلك، أنا قروي هنا، ولن أستبدل حياتي بحياة جميع رهبان الدنيا. فقلت: بحق الشيطان، ماذا تبتغي؟ فأجاب: في حال توفر المأوى، فإن آباءنا في إيطاليا سيرسلون اثنين أو ثلاثة من رجال الدين. قلت له: أنت تعرفهم إذن، لرجال الدين هؤلاء؟ فقال: لا، لا أعرفهم يا سيدي. إذاً ما الذي يعنيك من ذهابهم إلى فارس؟ أجاب: سيكون من الجميل أن يستنشق هؤلاء الرهبان هواء بلاد فارس، وسيكون ذلك مفيداً لأوروبا وآسيا على حد سواء. أجبت: إنه من الضروري إثارة اهتمام الملوك بهذا! اذهب عني فإن ما تطلبه يسمى

بالاستعمار الخفيف! أنت وأمثالك لم تخلقوا لتُنقَلوا من بلد لآخر، وإنما لكي تواصلوا الزحف على الأرض التي ولدتم فيها.

من باريس، في الخامس عشر من شهر رمضان من عام 1713

الرسالة الخمسون

من ريكا إلى...

رأيت أناساً، فضيلتهم فطرية فلا يشعرون بها حتى. يؤدون واجبهم دون أن يحيدوا عنه، كأن الأمر غريزة فيهم. ومع أنهم لا يتحدثون عن تلك الفضائل إلا أنهم يتحلون بها ولو بدوا لوهلة غير ذلك. هؤلاء هم من أحبهم، وليس الناس الأفاضل الذين يبدون مندهشين من كونهم كذلك، وينظرون إلى أعمالهم كأنها معجزات على الجميع التحدث عنها.

وإذا كان التواضع ضرورياً لهؤلاء الذين منحهم الله مواهب عظيمة، فماذا نقول عن تلك الحشرات التي تظهر غروراً يُهين أعظم الرجال؟ إنني أرى، من كل صوب، أناساً يتحدثون عن أنفسهم بلا توقف، وما أحاديثهم إلا مرآة تظهر دائماً بشاعتهم. سوف يحدثونك عن أتفه الأشياء التي حصلت لهم، ويهمهم أن يعظموها في نظرك، إنهم قد فعلوا كل شيء، رأوا كل شيء، قالوا وفكروا في كل شيء، إنهم نماذج عالمية، موضوع مقارنات لا تنتهي، ومنبع لأمثلة لا حصر لها. يا له من ثناء أخرق أن يمتدح المرء نفسه!

منذ يومين، أرهقنا رجل من هذا النوع في الحديث عن نفسه وعن مكانته ومواهبه، لكنه عندما لم يحظَ بالاهتمام المطلوب، كف عن الكلام، فعدنا إلى الحديث في ما يعنينا. وكان معنا رجل، بدا عليه الغم، أخذ يشتكي

من ملل الأحاديث، قال: ما هذا؟ ألا نلتقي إلا بالحمقى الذين يمدحون أنفسهم، وينسبون كل شيء إليهم؟ فأجابه المتحدث الأول: معك حق، كان يجب أن يفعلوا مثلي، فأنا لا أمتدح نفسي، على الرغم من أنني ثري، وذو نسب، وكريم. أصدقائي يقولون إنني ذكي، ولكنني لا أتحدث عن كل هذا، فإن خير صفاتي هي تواضعي.

تعجبت لهذا الأحمق، وبينما كان يتحدث بصوت عالٍ، همست لنفسي: سعيد من لم يدفعه غروره إلى التحدث عن نفسه، فيخشى من يسمعونه، ولا يضع فضله أمام زهو الآخرين.

من باريس، في العشرين من شهر رمضان من عام 1713

الرسالة الحادية والخمسون

من نارجوم، مبعوث الفرس إلى موسكو، إلى أوزبك في باريس

كتبوا إلي ليخبروني أنك غادرت فارس، وأنك في باريس الآن، لماذا عليّ معرفة أخبارك من آخرين سواك؟

إن أوامر ملك الملوك[1] أبقتني في هذا البلد لخمس سنوات أنجزت فيها الكثير من المفاوضات الهامة.

أنت تعلم أن القيصر هو الوحيد من بين أمراء المسيحيين الذي تربطه بالفرس مصالح مشتركة، فهو عدو الأتراك مثلنا، إمبراطوريته أكبر من مملكتنا، وحدودها تمتد على ألف فرسخ من موسكو حتى أقصى مكان قرب حدود الصين.

إنه السيد المطلق لحياة وأملاك رعاياه، فكلهم عبيده، ما عدا أربع عائلات. لكن خليفة الأنبياء، ملك الملوك، الذي عرشه فوق السماء، لا يُساوم في سلطانه.

ونظراً إلى الطقس المخيف في موسكو، لن يعتقد أحد أن العقاب المناسب هو النفي، مع ذلك، وما إن يُذنب أحد الكبار، حتى يُنفى على الفور إلى سيبيريا.

---

(1) ملك الملوك هو اللقب الرسمي لملك بلاد فارس.

وكما أن شريعة نبينا تُحرم شرب الخمر، فإن قانون الأمير يحرمه أيضاً على أهل موسكو.

لديهم طريقة في استقبال ضيوفهم تختلف تماماً عن الطريقة الفارسية. بمجرد دخول شخص غريب إلى المنزل، يقدّم الزوج زوجته إلى الغريب الذي يُقبلها، وفي هذا لطف واحترام للزوج.

ومع أن الآباء، عند عقد قران بناتهم، يشترطون عدم ضربهن، مع ذلك، لا يمكن تصديق كم تحب الروسيات أن يُضربن:[1] لن يستوعبن أنهن امتلكن قلوب أزواجهن إلا إذا ضُربن، عدا ذلك، فإن الزوج يُعتبر غير مبالٍ وهذا ما لا يمكن غفرانه. إليك هذه الرسالة التي كتبتها إحداهن مؤخراً إلى أمها: «أمي العزيزة، أنا أكثر النساء تعاسة في الدنيا، لقد فعلت كل ما أستطيع حتى أجعل زوجي يُحبني، ولم أنجح في ذلك. بالأمس، كانت لدي أعمال كثيرة في المنزل، لكنني خرجت وبقيت طوال النهار خارجاً، وعند عودتي، ظننتُ أنه سيبرحني ضرباً، لكنه مع ذلك لم يتفوه بكلمة واحدة. أما أختي فإنها تتعرض لمعاملة مختلفة جداً، زوجها يضربها كل يوم، ولا تراهُ رجلاً حقيقياً إن لم يُحطمها من الضرب على حين فجأة، إنهما متحابان ويعيشان على وفاق لا نظير له. وهذا ما يجعلها مزهوة جداً، لكنني لن أدع زوجي يحتقرني أكثر من هذا، وقد قررت أن أجعله يحبني مهما كان الثمن، سوف أُغيظه جداً حتى يُقَدّم لي علامات الحب، فلن أدعه يقول إنني لم أُضرب، وإنني أعيش في بيت حيث لا يفكر فيَّ زوجي. بمجرد أن تلمسني يده،

(1) تغيرت هذه العادات (مونتسكيو). لم تُذكر هذه الملاحظة في الطبعة الأولى.

سأصرخ بكل قوتي، حتى يُخيل للجميع أن كل شيء يجري على ما يرام في هذا البيت، وإن أتى أحد من الجيران لنجدتي سوف أخنقه. أمي العزيزة، أتوسل إليك أن توضحي لزوجي أنه يعاملني معاملة مهينة. إن أبي، هذا الإنسان الشريف، لم يكن يعاملك هكذا، وإنني أتذكر، عندما كنت صغيرة، أنه كان يحبك كثيراً كما بدا لي في كثير من الأحيان. أقبلك يا أمي الغالية».

لم يكن بمقدور أهل موسكو الخروج من الإمبراطورية بقصد السفر، فقد عزلتهم قوانين بلادهم عن باقي شعوب العالم، فحافظوا على عاداتهم القديمة بقدر كبير من الترابط، حتى إنهم لم يتصوروا أن هناك عادات أخرى غير عاداتهم.

لكن الأمير الذي يحكم اليوم[1] أراد تغيير كل شيء. كان لديه خلاف كبير مع الناس بسبب لحاهم، ورجال الدين لم يكونوا على وفاق معه بفضل جهالتهم.[2]

يريد للفنون أن تزدهر، ولا يهمل شيئاً من شأنه أن يجلب مجد أمته المنسي حتى اليوم، الذي لا يكاد يعرفه أحد، إلى أوروبا وآسيا.

أخذ يطوف في أرجاء مملكته، قلقاً مضطرباً، وتاركاً في كل مكان أثراً من قسوته الفطرية.

---

(1) بيير لو غراند، الخامس، روح الشرائع، الكتاب التاسع عشر، 14.

(2) يقول بيري، في كتابه: الوضع الراهن في موسكو، أن الرهبان أحرقوا أولى الصحف التي دخلت البلاد، وأنهم عارضوا بشدة إنشاء المطابع. (ملاحظة من نسخة داليبون، 1826).

لقد تركهم، فلم يكونوا أهلاً له، وذهب باحثاً لنفسه عن مقاطعات وممالك أخرى في أوروبا.

أقبلك عزيزي أوزبك، أطلعني على أخبارك، أتوسل إليك.

من موسكو، في الثاني من شهر شوال من عام 1713

الرسالة الثانية والخمسون

من ريكا إلى أوزبك في...

كنت ذات يوم مع جَمْع من الناس استمتعت كثيراً بصحبتهم. كان بينهم نساء من مختلف الأعمار: واحدة في الثمانين، وواحدة في الستين، وأخرى في الأربعين لديها ابنة أخت يتراوح عمرها بين العشرين والثانية والعشرين. لسبب ما تقربت من هذه الابنة، همست في أذني: ما رأيك في خالتي التي تريد أن يكون لها عشاق في هذه السن وما زالت تتزين في مظهرها؟ إنها على خطأ، أجبت، إن هذا لا يليق إلا بك. بعد لحظات، كنت بقرب الخالة التي قالت لي: ما رأيك بهذه المرأة الستينية على أقل تقدير، والتي أمضت أكثر من ساعة اليوم في زينتها؟ أجبتها: لقد أضاعت وقتها، فيجب أن يكون لها جاذبيتك حتى تفعل ذلك. ذهبت إلى تلك السيدة الستينية وأنا أرثي لحالها في قلبي، عندما همست في أذني: هل هناك ما يثير السخرية أكثر من هذه السيدة التي تبلغ الثمانين وتضع شرائط زاهية الألوان في شعرها، تريد أن تبدو كشابة وقد نجحت، لأنها تبدو كطفلة؟

فقلت في نفسي، يا إلهي! ألا نرى الحماقة إلا في الآخرين؟ ربما يسعدنا أن نجد العزاء في ضعف الآخر. ثم قلت حتى أرفه عن نفسي: لقد صعدنا فلنهبط الآن، ولنبدأ بالسيدة الأكبر سناً. سيدتي: تبدين شديدة الشبه بالسيدة التي كنت أحدثها للتو كأنكما أختين، ومن نفس السن تقريباً.

فقالت لي: فعلاً يا سيدي، فحين تموت إحدانا، ستخاف الأخرى، فليس بيننا من العمر أكثر من يومين اثنين. عندما فرغت من هذه السيدة المتهالكة، توجهت نحو الستينية قائلاً: سيدتي، يجب أن تقرري في شأن الرهان الذي دخلته: لقد راهنت على أنك وتلك السيدة (مشيراً إلى صاحبة الأربعين عاماً) في ذات السن. فقالت: أظن أن ليس بيننا أكثر من ستة أشهر. حسناً، نزلت أكثر وذهبت نحو تلك التي تبلغ أربعين عاماً ثم قلت: سيدتي، تفضلي بأن تجيبيني إن كان مزاحاً مناداتك للآنسة الجالسة إلى تلك المائدة على أنها ابنة أختك؟ تبدين في مثل شبابها، بل ويظهر على وجهها شيئاً من تقدم العمر لا أراه فيكِ مع هذه البشرة المتوردة... فقاطعتني قائلة: مهلاً، أنا خالتها لكن أمها كانت تكبرني بما يزيد على خمسة وعشرين عاماً، ولسنا من أم واحدة، وقد سمعتها تقول إنني وابنتها ولدنا في نفس السنة. فقلت: هذا ما ظننته، ولم أكن مخطئاً في عجبي.

إن النساء، يا عزيزي أوزبك، حين يتقدم بهن العمر ويفقدن الرونق، يتمنين أن يعود الشباب. فكيف لا يبحثن عن خداع الآخرين وهن يخدعن أنفسهن بأقصى جهد ممكن، هرباً من الأفكار الأكثر إيلاماً لهن.

من باريس، في الثالث من شهر شوال من عام 1713

الرسالة الثالثة والخمسون

من زيليس إلى أوزبك في باريس

ليس هناك شغف أقوى وأكثر حيوية مما لدى كوسرو، الخصي الأبيض، بعبدتي زيليد: لقد طلبها للزواج بمنتهى الحب بحيث لم أستطع أن أرفض طلبه. ولماذا أقاوم، إن كانت أمها[1] لم تفعل، فيما تبدو زيليد راضية عن فكرة هذا الزواج الخدّاع، والمجهول الذي ينتظرها؟

ما الذي تود فعله مع هذا البائس، الذي لن يكون لديه كزوج إلا الغيرة، والذي لن يخرج من بروده إلا ليدخل في يأس لا طائل منه، ما أن يتذكر دائماً ما كان عليه، حتى يفكر فيما لن يكونه، الذي سيكون مستعداً دائماً ليمنح من نفسه، ولا يهب نفسه أبداً، سيخدع نفسه، ويخدع زوجته بلا توقف، وسوف يجعلها تعاني في كل لحظة من مصائب وضعه؟

ثم ماذا؟ أن تكوني دائماً حبيسة الصور والأوهام؟ تعيشين فقط لتتخيلي؟ تجدين نفسك دائماً قريبة من الملذات، ولستِ فيها؟ تذبلين في أحضان رجل تعس؟ وبدلاً من الرد على تنهداته، تردين على أسفه؟

أي ازدراء لا يجب حمله تجاه هذا النوع من الرجال، الموجود فقط كي يحمي، لا لكي يتملك؟ إنني أبحث عن الحب فلا أجده.

---

(1) المقصود أم زيليد.

إني أتحدث إليك بحرية، لأنك تحب سذاجتي وتفضل جرأتي وحساسيتي تجاه الملذات، على حياء صاحباتي المزيف.

لقد سمعتك مراتٍ كثيرة تقول إن الخصيان يتذوقون في النساء متعة لا نعرفها، وإن الطبيعة تعوض نفسها عما فقدته، وإن لديها مصادرها التي تصلح ما تضرر في حالتهم، وإن المرء قد يتوقف عن كونه رجلاً لكن ليس عن كونه حساساً، وإنه في هذه الحالة، كما لو أننا في حاسة ثالثة، إذا جاز التعبير، كل ما نقوم به هو تغيير الملذات.

إن كان الأمر كذلك، فإنني أرى زيليد أقل إثارة للشفقة. هناك ما يُعاش مع من هم أقل تعاسة.

أصدر أوامرك بهذا الشأن، ودعني أعلم إن كنت تريد لهذا الزواج أن يتم في السراي. الوداع.

من قصر أصفهان، في الخامس من شهر شوال من عام 1713

الرسالة الرابعة والخمسون

من ريكا إلى أوزبك في...

كنت هذا الصباح في حجرتي، وكما تعلم لا يوجد ما يفصلها عن باقي الغرف إلا حاجز رقيق جداً، مُثقب في مواضع كثيرة، بحيث يمكننا سماع كل ما يقال في الغرفة المجاورة. كان هناك رجل يقول لآخر وهو يتمشى بخطى واسعة: لا أعلم ما الذي يحصل، لكن كل شيء ينقلب ضدي: منذ ثلاثة أيام لم أقل إلا ما يشرفني، خضتُ في أحاديثَ كثيرة دون أن أثير أدنى انتباه نحوي، حتى عندما وُجه الكلام إليّ مرتين. كنت قد حضّرت بضعة أفكار لامعة أسمو بها في حديثي: لكنهم لم يمنحوني فرصة استحضارها، كانت لدي قصة جميلة أود أن أرويها، لكن كلما هممت في سردها قاطعوني كما لو كانوا متعمدين ذلك. لدي بضع كلمات طيبة، تختمر في رأسي منذ أربعة أيام، دون أن تُتاح لي الفرصة لاستعمالها. إن استمرت الحال هكذا، قد أصدق في النهاية أنني أحمق، وأن هذا هو حظي الذي لن أستطيع الفرار منه. لقد تمنيت بالأمس أن أُحسن الحديث مع ثلاث أو أربع نساء عجائز، لم يفرضن علي شيء، لكن كان يجب أن أقول أجمل كلام ممكن، كنت أتولى الحديث لأكثر من ربع ساعة، لكنهن لم يتابعن حديثي إطلاقاً، وكن يقطعن، مثل القدر المشؤوم، سرد كلامي. أتريد أن أخبرك شيئاً؟ إن بلوغ سمعة العقل النيّر يكلف الكثير. لا أعلم

كيف تمكنتَ من تحقيق ذلك. فقال آخر: راودتني فكرة: دعونا نعمل معاً ونتحد بغية تحقيق هذا الهدف. في كل يوم نخبر بعضنا عما يجب أن نتحدث، ونؤازر بعضنا بعضاً، حتى إذا حاول أحدهم مقاطعتنا في وسط أفكارنا، جذبناه إلينا، وإن لم يأتِ إلينا طواعيةً، أرغمناه على ذلك. سوف نتفق على الأماكن التي تقبل بوجودنا، على الأشخاص الذين يجب أن يبتسموا، وعلى الآخرين الذين عليهم الضحك مقهقهين لما نقول. سترى أننا سنعطي كل حديث إيقاعه المناسب، ولسوف يُعجبون بحيوية أفكارنا، وحضور بديهتنا. سنحمي أنفسنا بتبادل إيماءات الرأس. ستتألق اليوم، وغداً ستكون معي في الشهرة، سأدخل معك بيتاً، وسأكتب لنفسي مظهراً إليك ما أكتب، يجب أن أعطيك رداً مسلياً كالجواب الذي رد به السيد على الرجل في الشارع حيث صادفناهما، ثم ألتفت إليك قائلاً إن ذلك لم يكن متوقعاً، إنه فعلاً رد مدهش. سألقي بعضاً من أشعاري، وستقول: لقد كنا معاً حين كتبتها، نتناول العشاء، ولم يُفكر للحظة. في كثير من الأحيان سنضحك بعضنا على بعض، أنت وأنا، وسيقولون: انظروا كيف يهاجمان بعضهما بعضاً، كيف يتنازعان، ولا يشفقان على أنفسهما. دعونا نَرى كيف سيتحرر منه. يا للعجب، ما هذه البديهة! إنها معركة حقيقية! لكنهم لن يقولوا إننا خضنا في مناوشاتٍ بالأمس. يجب أن نشتري بعض الكتب التي تتسم كلماتها بالفصاحة، مُعَدَّة لهؤلاء الذين لا يتقنون فنون الخطاب، فيتخذون منها نموذجاً، ففي ذلك أثر كبير. أريد، في غضون ستة شهور، أن نكون قادرين على إجراء محادثة لمدة ساعة، مملوءة بالكلمات الطيبة الرائعة. لكن سيكون من الضروري توخي الحذر، فمن أجل التأثير في الناس: لا يكفي أن نقول كلمة طيبة، يجب أن تنتشر وتترك صدىً في

كل مكان. بدون ذلك، سنفقد الكثير مما نبتغي، وأعترف لك أنه لا يوجد ما يدعو إلى الأسف أكثر من أن يقال شيء جميل نراه يموت في أذن أحمق يسمعه ولا يُقدره. والحق أننا في كثير من الأحيان نجد تعويضاً، حين نتفوه ببعض الحماقات التي تمر دون أن ينتبه إليها أحداً، هذا التعويض هو ما يواسينا. هذا يا عزيزي هو الموقف الذي يجب أن نتخذه. افعل ما أقوله لك، وأعدك، في ستة شهور ستكون قد حصلت على مكان في الأكاديمية: ومقصدي أن العمل لن يكون طويلاً: لأنك حينها تستطيع التخلي عن فنك، وستكون رجلا فصيحاً مع أنك كذلك الآن.

يلاحظ أنه، في فرنسا، وبمجرد أن يدخل الرجل جماعة من الناس، حتى يكتسب ما يسمى بروح الجسد: ستكون أنت كذلك، ولا أخشى عليك إلا من إحراج التصفيق.

من باريس، في السادس من شهر ذي القعدة من عام 1714

الرسالة الخامسة والخمسون

من ريكا إلى إيبين في إزمير

أول ربع ساعة من عمر الزواج لدى الأوربيين تُزيل كل الصعوبات، فالنِّعم الأخيرة لها دائماً نفس تاريخ تبريكات الزفاف. نساؤهم لا تقوم بما يفعلنه الفارسيات، اللواتي يُجادلن ربما لأشهر كاملة حول مكانتهن. لا شيء كامل كفعلهن هذا،[1] فهن لا يخسرن شيئاً عندما لا يكون لديهن ما يخسرنه أصلاً. لكنْ هناك شيء مخجل نعرفه جيداً، ألا وهو لحظة هزيمتهن. فلسنا بحاجة إلى استشارة الفلك حتى نتنبأ بأنها نفس لحظة إنجابهن للأطفال.

يكاد لا يتحدث الفرنسيون عن زوجاتهم:[2] لأنهم يخشون الحديث عنهن أمام الناس الذين يعرفونهن أكثر منهم كأزواج.

ومن بين هؤلاء، رجال في غاية التعاسة لا يواسيهم أحد، إنهم الأزواج الغيورون، ومنهم من يكرههم ويحتقرهم الناس أجمعين، إنهم ذات الأزواج الغيورين.

---

(1) صفة plénier (كامل) لا تستخدم إلا في مصطلحات مثل: محكمة كاملة بمعنى محكمة عليا أو سيادية، لين كامل بمعنى لين مُطلق. وفي الجملة كان المعنى: الهجر الكامل، التخلي المطلق.

(2) كانت هذه قاعدة شائعة. لا روشفوكو، حكمة 364: «يعلم المرء ما يكفي حتى لا يتحدث عن زوجته، لكنه لا يعلم كفاية بحيث لا يتحدث بدرجة أقل عن نفسه».

كما أنه ليس هناك بلد يقلّ فيه عدد المتزوجين كما لدى الفرنسيين- طمأنينتهم ليست مبنيّة على الثقة في زوجاتهم، بل على العكس، بسبب آرائهم الشائنة حولهن. إن كل تدابير الآسيويين الحكيمة، من الأوشحة التي تغطي نسائهم، إلى السجون حيث يحتجزنهن، وحراسة الخصيان، كل ذلك يبدو لهم كوسيلة مناسبة لممارسة صناعة الجنس أكثر منها لإهمال هذه الصناعة. في حين ترى الأزواج هنا يتقبلون وضعهم بطيب نية، معتبرين الخيانات كضربات القدر التي لا مفر منها. والزوج الذي يريد التفرد بملكية زوجته، يُنظَر إليه على أنه مصدر تشويش للهناء العام، وكأحمق يريد الاستمتاع بضوء الشمس، دون غيره من الرجال.

هنا، الزوج الذي يحب زوجته هو رجل ليس لديه ما يكفي من الجدارة لتحبه أخرى، من يسيء إلى ضرورة القانون في تعويض المُتع التي يفتقر إليها، من يستفيد من جميع مزاياها على حساب المجتمع بأكمله، من يتملك ما لم يُعطَ له إلا بموجب ارتباط، والذي يعمل، بقدر ما لديه، على قلب العُرف الضمني الذي يشكل سعادة كلا الجنسين. هذا اللقب الخاص بزوج امرأة جميلة، والذي يُخفي نفسه بحذر شديد في آسيا، يُحمل هنا دون أدنى قلق. يبدو كأننا في حالة مناورة على الأصعدة كافة. أمير يعزي نفسه بكسب موقع آخر، حين يفقد موقعاً ما: عندما أخذ الأتراك بغداد منا، ألم نأخذ حصن قندهار من المغول؟ والرجل الذي يعاني، بشكل عام، من خيانات زوجته، لا يُستَهْجَن، بل على العكس، يُمدح على فطنته، وليس هناك إلا بعض الحالات الخاصة التي تُسبب العار.

لا يعني ذلك أنه لا توجد سيدات فاضلات، ويمكن للمرء أن يقول إنهن

متميزات: كان سائقي يشير إليهن دائماً قائلاً لي: لكنهن جميعاً قبيحات جداً إلى درجة أنه يجب على المرء أن يكون قديساً حتى لا يكره الفضيلة.

بعد كل ما قلته لك عن أعراف هذا البلد، يمكنك بسهولة تصوُّر أن الفرنسيين غير فخورين إطلاقاً في ثباتهم على ذلك. إنهم يعتقدون أنه من السخف أن نقسِم لامرأة أننا سنحبها دائماً، أو أننا سنكون دائماً على ما يرام، أو أننا سنكون دائماً سعداء. عندما يَعِدون امرأة بأنهم سيحبونها دائماً، فإنهم يفترضون أنها بدورها تعدهم بأن يكونوا محبوبين، وإذا أخلفت بكلمتها، فإنهم سيعودون غير ملزمين بوعودهم حسب ما يعتقدون.

من باريس، في السابع من شهر ذي القعدة من عام 1714

الرسالة السادسة والخمسون

من أوزبك إلى إيبين في إزمير

المقامرة شائعة جداً في أوروبا، والبعض يتخذونها مهنة، وهذا اللقب لوحده يكفي ليعادل النسب والجاه والاستقامة، ويضع من يحمله في مرتبة الشرفاء،[1] دون حاجة إلى إثبات ذلك، ومع أن كل شخص يعلم أن هذا حكم خاطئ، لكن الجميع متفق على عدم إصلاح هذا الخطأ.

والنساء بشكل خاص أكثر إقبالاً على اللعب، صحيح أنهن في شبابهن لا يسترسلن فيه إلا إشباعاً لرغبة تعنيهن كثيراً، لكن ومع تقدمهن في السن، يزداد شغفهن في اللعب حتى لَتطغى هذه الرغبة على كل شغف آخر.

يرغبن في تدمير أزواجهن، ومن أجل ذلك، لديهن الوسائل لفعل ذلك في كل مراحل أعمارهن، من الشباب الغض إلى الشيخوخة المتهالكة: فالبداية من إزعاج الملابس والعربات، مروراً بالحلي والزينة، وصولاً إلى المقامرة التي تُجهز على كل شيء.

لقد رأيت تسعة أو عشرة نساء، أو لِنُسَمِّهِنَّ قُروناً، يقفن حول طاولة، رأيتهن في أملهن وخوفهن وفرحهن، وخصوصاً في غضبهن، لو كنت

---

(1) الناس الشرفاء، في القرنين السابع والثامن عشر، هم أصحاب النسب وأبناء المجتمع الراقي.

مكاني لقلتَ إنه ليس لديهن وقت للهدوء، وأن الحياة ستفارقهن قبل أن يبلغن اليأس، كنتَ ستحتار إن كان هؤلاء الذين يدفعون المال دائنين أم وارثين لهن.

يبدو أن نبينا الكريم أراد أساساً أن يُحرِّم علينا كل ما يمكن أن يشوش العقل: فقد نهانا عن شرب الخمر الذي يحجب صفاء الذهن، كما حرَّم علينا بمنتهى الوضوح لعب القمار. ولأنه من المستحيل عليه انتزاع جذور الرغبات، حاول إخمادها.

إن الرغبة فينا لا تدفعنا إلى الاضطراب أو الغضب، فهي شهوة مضنية تترك أرواحنا في سلام، تعدد النساء يُنجينا من سلطانهن، ويخفف من حدة رغباتنا بهنّ.

من باريس، في العاشر من شهر ذي الحجة من عام 1714

الرسالة السابعة والخمسون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

يستحوذ الخليعون هنا بعددٍ لا حصر له من بائعات الهوى، والأتقياء بعددٍ لا يُحصى من الدراويش. يعطي الدراويش ثلاثة نذور: الطاعة والفقر والعفة. يُقال إن الأول هو أكثر ما يتم التقيد به، بالنسبة إلى الثاني فأقول لك إنه لم يوجد قط، وسأترك لك الحكم بخصوص الثالث.

لكن مهما كان هؤلاء الدراويش أثرياء، فإنهم لا يتخلون أبداً عن صفة الفقر، بل قد يتخلى سلطاننا المجيد عن ألقابه العظيمة والسامية: أما هم فلا، وهذا صحيح، لأنالتخلي عن لقب الفقراء يمنعهم من أن يكونوا كذلك.

الأطباء وبعض هؤلاء الدراويش، الذين يسمون أيضاً بكهنة الاعتراف، هم دائماً هنا إما محل تقدير واحترام، أو عرضة للاحتقار، ومع ذلك يقال إن الورثة يرتاحون للأطباء أكثر من راحتهم للمعترفين.

كنت ذات يوم في دير هؤلاء الدراويش، استقبلني واحد منهم أحسن الاستقبال، يبدو وَقُوراً بشعره الأبيض، وبعد أن أراني كامل الدير، صحبني إلى الحديقة وأخذنا نتحدث. قلت له: ما هو عملك في هذه الجماعة يا أبتِ؟ أجاب وقد بدا عليه السرور من سؤالي: أنا مُفْتٍ. فقلت: مفتٍ؟ منذ أن وطئت فرنسا لم أسمع بهذه المهنة. أجاب: ماذا؟ ألا تعرف ما هو

المفتي؟ حسناً أصغِ، سوف أعطيك فكرة كافية عنه لن تترك لك فضولاً لمعرفة المزيد. هناك نوعان من الذنوب: كبائر[1] تحرم مرتكبيها من دخول الجنة، وصغائر تُغضب اللّٰه بحق لكنها لا تدفعه إلى حرماننا من النعيم. عملنا يقوم على التمييز بين هذين النوعين من الخطايا، وإن استثنينا بعض الزنادقة، فإن جميع المسيحيين يريدون الفوز بالجنة، ولكن لن تجد أحداً إلا ويريد ذلك بأيسر سبيل ممكنة.[2] عندما يعي الكبائر جيداً فإنه يتجنبها، وهنا يبدأ العمل. من الناس من لا يطمحون إلى مثل هذا الكمال العظيم، ولأنهم لا يمتلكون أدنى طموح، فهم لا يهتمون بأعلى الدرجات: لذلك يبتغون دخول الجنة بالقدر الذي يمكنهم من ذلك، لا أكثر ولا أقل. ما داموا هناك، فهذا يكفي بالنسبة إليهم. إنهم أناس ينتزعون الجنة أكثر مما يحصلون عليها، والذين يخاطبون اللّٰه قائلين: إلهي، إني أنجزت بمنتهى الصرامة شروطك، لذلك لا يمكنك الامتناع عن الإيفاء بوعودك، ولمّا كنتُ لم أفعل أكثر مما طلبت، فأنا أعفيك من منحي أكثر مما وعدت.

لذلك نحن أشخاص ضروريون يا سيدي. هذا ليس كل شيء. سترى شيئاً آخر. الفعل لا يسبب جريمة، إنما المعرفة هي من ترتكبها: من يرتكب إثماً، معتقداً أنه ليس شراً، فهو مرتاح الضمير، ونظراً إلى وجود عدد لا حصر له من الأفعال الملتبسة، يمكن للمفتي أن يمنحها درجة من الخير ليست فيها، واصفاً إياها بذلك، وبشرط أن يثبت أنه ليس فيها من ضرر يزيل كل خير فيها. ها أنا أخبرك عن سر المهنة التي كبرتُ عليها، وقد

---

(1) هذه الصيغة: مميتة، وغير مميتة، هي صيغة تفخيمية، يجب القول: خطايا كبيرة وخطايا خفيفة، إلخ.

(2) أبخس الأثمان.

أظهرت لك أدق التفاصيل، إن لكل شيء دور يؤديه، حتى الأشياء التي تبدو قليلة الأثر.

قلت له: هذا حسن يا أبتِ، لكن كيف تتصالح مع السماء؟ إن كان في بلاط سيد صوفيّ رجل مثلك، يفعل من أجله ما تقوم به ضد إلهك، من يفرق بين أوامره، ويعلم رعاياه كيف ينفذوها، وبأي موضع آخر يمكن لهم أن يخالفوها، فإنه سوف يُرسل إلى الإعدام (الخازوق) لا محالة.

ثم ألقيت عليه التحية، وتركته دون أنتظر رده.[1]

من باريس، في الثالث والعشرين من شهر محرم من عام 1714

---

(1) قارن هذه الرسالة برسائل القرويين وسوف تشعر بسرعة أن باسكال لا يُضاهى.

الرسالة الثامنة والخمسون

من ريكا إلى رضي في البندقية

في باريس، عزيزي رضي، مهن كثيرة، حيث يأتي إليك رجل خدوم عارضاً عليك سر الحصول على الذهب مقابل القليل من المال. يعدُك آخر بمضاجعة جنيات الجمال من النساء، شريطة أن تكون قد أمضيت ثلاثين عاماً دون حتى أن ترى امرأة.

ستجد عرّافين ماهرين جداً، يقصون عليك حوادث حياتك كلها، بشرط أن يتحدثوا لمدة ربع ساعة فقط مع خدمك. هناك أيضاً نساء ماهرات قادرات على إعادة العذرية كزهرة تُقطف وتتجدد كل يوم بمنتهى المتعة.

وأُخريات ممن يُصْلِحن بقُوَّة فنِّهن كل ما أفسده الدهر ويعرفن كيف يستعدن الجمال الغابر للوجه، وحتى لإعادة امرأة من ذروة الشيخوخة إلى أرقّ شبابها.

كل هؤلاء الناس يعيشون، أو يطمحون إلى العيش في المدينة التي تُعتبر أرض الإبداع. إيرادات المواطنين في هذه المدينة غير مستقرة إطلاقاً، ولا تعتمد إلا على الذكاء والحرفة التي يعتز بها كل مُتقن لها.

من يريد أن يُحصي رجال القانون الذين يتتبعون إيرادات بعض المعابد،[1] كالذي يريد أن يعد رمال البحر، وعبيد ملكنا.[2]

عدد لا حصر له من أساتذة اللغات والفنون والعلوم يقومون بتدريس ما لا يعرفونه: وهذه الموهبة جديرة بالتقدير، لأن الأمر لا يتطلب الكثير من الذكاء لإظهار ما تعرفه، لكنه يتطلب قدراً غير محدود لتعليم ما نجهله.

لا يمكن للمرء أن يموت هنا إلا فجأة، لأنه لا يستطيع أن يمارس جبروته بخلاف ذلك: ففي كل زاوية أناس لديهم أدوية شافية ضد جميع الأمراض التي يمكن تخيلها.

جميع المتاجر تُعلق شبكات غير مرئية، تصطاد بها جميع المشترين. مع ذلك، يخرج الناس منها أحياناً بثمن بخس: وقد تلاطف بائعة شابة رجلاً لمدة ساعة كاملة، لحمله على شراء علبة من أعواد الأسنان.

لا يغادر هذه المدينة أحد إلا وأصبح أكثر حذراً منه حين دخلها، فمن خلال تعامله المادي مع الآخرين، تعلّم كيف يحافظ على ماله، وهذه هي الفائدة الوحيدة التي يجنيها الأجانب في هذه المدينة الساحرة.

من باريس، في العاشر من شهر صفر من عام 1714

(1) يصف المؤلف تحت هذا الاسم رجال الدين الذين يسعون وراء المنافع. الرسالة 29. «الأساقفة هم رجال القانون، إلخ». أليس في ذلك خلط مع رجال الملالي؟ الرسالة 10.

(2) كتاب روح الشرائع، 29، 4.

الرسالة التاسعة والخمسون

من ريكا إلى أوزبك في...

كنت في ذلك اليوم في بيت وسط جَمْع من الناس شديدي التنوع. تولَّت سيدتان عجوزان زمام الحديث، أمضيتا عبثاً فترة الصباح كلها في محاولة تجديد شبابهما. قالت إحداهما: إن الرجال اليوم مختلفون جداً عن أولئك الذين عرفناهم في شبابنا، إذ كانوا مهذبين وطيبين ولطفاء، أما حالياً فإنهم جلفون بشكل لا يطاق. قال رجل بدت عليه الإصابة بداء النقرس: كل شيء تغير، فهذا الزمن لم يعد كما كان قبل أربعين سنة. كان الجميع بخير، كنا نمشي، مبتهجين، أردنا فقط أن نضحك ونرقص: الآن الجميع حزين بشكل لا يطاق. بعد لحظة تحول الحديث إلى السياسة. يا إلهي! قال سيد عجوز، الدولة عادت غير محكومة: جِد لي الآن وزيراً مثل السيد كولبير. لقد عرفته جيداً، كان أحد أصدقائي. وكانَ يأمر بأن تُدفع إليّ معاشاتي التقاعدية قبل أي شخص آخر: كان لديه تنظيم مالي رائع للغاية، والناس يعيشون في رخاء، أما اليوم فقد أفلست.

فقال رجل من رجال الدين: يا سيدي، أنت تتحدث هنا عن أكثر الأوقات الإعجازية لملكنا الذي لا يقهر: هل هناك شيء أعظم مما قام به للقضاء على الإلحاد؟[1] قال رجل آخر، لم يكن قد تكلم بعد، بشيء من

(1) إلغاء مرسوم نانت، لعام 1683.

الرضا: هل تستهين بإلغاء المبارزات؟[1] ملاحظة حكيمة، همس أحدهم في أذني: إن هذا الرجل معجب بالمرسوم، ويُقدّره كثيراً لدرجة أنه تلقى قبل ستة أشهر مئة ضربة من عصا حتى لا ينتهكه.

يبدو لي يا أوزبك أننا لا نحكم على الأشياء أبداً إلا من خلال أثرها الرجعي حين نجربها على أنفسنا. لست مندهشاً من أن الزنوج يرسمون الشيطان باللون الأبيض المبهر، وآلهتهم سوداء مثل الفحم؛ أن فينوس لديها أثداء تتدلى حتى فخذيها في ثقافة بعض الشعوب. وأن جميع المشركين يصورون آلهتهم بوجوه بشرية ثم ينحنون أمامها كعبادة. كانوا على حق حين قالوا إن من يعبد آلهة ثلاث، فإنه سيعطي للإله الواحد ثلاثة أوجه.

عندما أرى الناس، أيها العزيز أوزبك، يزحفون فوق الذرة، أي الأرض التي ليست سوى نقطة صغيرة في هذا الكون، ويقدمون أنفسهم كنماذج للحكمة الإلهية، لا أدري كيف أوفق بين هذا التطرف وتلك الضآلة.

من باريس، في الرابع عشر من شهر صفر من عام 1714

---

(1) مراسيم 1051 و1679، إعلان عام 1711 إلخ، شاهد مجموعة المبارزات، باريس 1679 في 12.

الرسالة الستون

من أوزبك إلى إيبين في أزمير

هل تسألني إذا كان هناك يهود في فرنسا؟ اعلم أنه حيثما يوجد المال، يوجد يهود. تسألني ماذا يفعلون هناك؟ ما يفعلونه بالضبط في بلاد فارس: لا شيء يشبه اليهودي الآسيوي أكثر من اليهودي الأوروبي.

إنهم يُظهرون مع المسيحيين، كما معنا، تعصباً لا يُقهر على دينهم، يصل إلى حد الجنون.

الديانة اليهودية قديمة جداً، تفرعت إلى طائفتين غطتا الأرض كلها، أعني المحمدية، والمسيحية: أو بالأحرى كانت كالأم التي أنجبت ابنتين سببتا لها ألف جرح.[1] وحسب حقيقة الأديان، فإن الأقرب هم ألد الأعداء. لكن مهما كانت المعاملة السيئة التي تلقتها منهما، فإنها لا تتوقف عن تمجيد نفسها لأنها جلبتهما إلى العالم: إنها تستخدمهما لاحتضان العالم بأسره، في حين أنها، ومن جانب آخر، تحتضن بشيخوختها الموقرة كل العصور.

لذلك يعتبر اليهود أنفسهم مصدر كل ما هو مقدس، وأصل كل دين، في المقابل، يعتبروننا زنادقة غيروا القانون، وأكثر من ذلك، يهوداً متمردين.

---

(1) أخذ فولتير في المعجم الفلسفي، مقال اليهود، هذه الفكرة دون الإشارة إلى مونتسكيو.

وإن كان التغيير قد وقع بشكل غير محسوس، فإنهم يعتقدون أن إغواءهما كان ليكون سهلاً، لكن وبما أن الأمر قد حدث فجأة وبطريقة عنيفة، إلى درجة أن بإمكانهم تحديد يوم وساعة مولد كل ديانة منهما، فإنهم حانقون لرؤية كل هذه العصور[1] التي مرّت علينا، فيتشبثون بحزم بدينهم الذي سبق العالم نفسه.

لم يسبق لهم أن تنعّموا بهدوء كالذي يستمتعون به هنا. لقد بدؤوا، في الأوساط المسيحية، بتهذيب روح التعصب التي كانت تثيرهم، كان وجودهم مزعجاً للإسبان فطردوهم، أما في فرنسا فقد تعبوا من تمييز المسيحيين لديانة ملكهم.[2] من الملاحَظ أن الحماسة لنشر الدين تختلف عن التعلق الذي يجب أن نتمتع به، وأنه لكي تحبه وتحترمه، ليس من الضروري أن تكره وتضطهد من لا يلتزم به.

نتمنى أن يفكر مسلمونا، في هذا الموضوع، بعقلانية مثل المسيحيين، إنه يمكننا أن نصنع السلام مرة وإلى الأبد بين علي وأبو بكر،[3] وأن نترك للّه تقدير فضائل هؤلاء الأنبياء. أود أن يُكَرَّموا بمظاهرِ التبجيل والاحترام، وليس من خِلال تفضيلات عبثية، وأن نسعى إلى استحقاق فَضْلهم، أياً كانت المنزلة التي أعدها اللّه لهم سواء إلى يمينه أو تحت موطئ عرشه.

من باريس، في الثامن عشر من شهر صفر من عام 1714

---

(1) هنا المقصود بداية تاريخ لم تكن المسيحية والمحمدية موجودة قبله. إنه نفس اللوم الذي يوجهه الكاثوليك إلى البروتستانت.

(2) إشارة إلى إلغاء مرسوم نانت، في 1685.

(3) أُعلن أبو بكر، والد زوجة محمد، خليفةً عند وفاة النبي عام 632. وفقاً إلى الفرس، كان هذا التعيين اغتصاباً لحقوق علي، ابن عم محمد وصهره.

الرسالة الحادية والستون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

دخلتُ يوماً إلى كنيسة مشهورة اسمها نوتردام، وبينما كنت أتأمل هذا الصرح الرائع سنحت لي فرصة التحدث إلى رجل كنسي كان فضوله قد قاده مثلي إلى هناك. دار الحديث حول هدوء مهنته. قال لي: إن معظم الناس يحسدون سعادة حالنا، وهم على حق. لكن لها مساوئها: نحن لسنا منعزلين كثيراً عن العالم إلا لكي نُدعى إليه في ألف مناسبة، لدينا في الحياة دور صعب للغاية علينا القيام به.

إن أمر الناس في الدنيا عجيب، لا يكابدون عناء استحسان أو استهجان ما نفعله: إن أردنا إصلاح حالهم سخروا منا، وإن وافَقْناهم فيما هم عليه اعتبروا أننا نخالف سلوكنا. وليس هناك ما هو أكثر مهانة من ظن السوء فينا حتى من الآثمين أنفسهم. لذلك نحن مضطرون إلى اتباع سلوك غامض نفرضه على الفاسقين، ليس بأسلوب محدد وإنما من خلال الشك الذي نضعهم فيه فنحصل بذلك على اعترافاتهم. هذا الأمر يتطلب قدراً من الذكاء لأن حالة الحياد صعبة، ترى الناس في الدنيا يخاطرون بكل شيء، يتقدمون بشجاعة، وتبعاً إلى حظهم إما أن يندفعوا وإما أن يتراجعوا، لكنهم ينجحون بشكل أفضل منا.

ليس هذا كل شيء، فهذه الحالة الهادئة والسعيدة للغاية التي تنال الإشادة، لا نستطيع الحفاظ عليها وسط الناس، فما إن نظهر حتى يشرعون في الجدال معنا، على سبيل المثال، حول فائدة الصلاة لرجل لا يؤمن بالله، أو ضرورة الصوم لمن أنكر طوال حياته خلود الروح: عملنا شاق، ولا يستوجب سخريّة الآخرين. بالإضافة إلى أن الرغبة في جذب الآخرين إلى آرائنا تعذبنا باستمرار، وهي، إذا جاز التعبير، مرتبطة بمهنتنا. إنه أمر مضحك كما لو أن الأوروبيين يحاولون تبييض وجوه الأفارقة خدمةً للطبيعة الإنسانية. نحن نربك الدولة، ونزعج أنفسنا، في سبيل خلق مبادئ ليس لها أساس في الدين، فنحن كفاتح الصين الذي دفع برعَايَاه إلى ثورة عامة لأنه أجبرهم على قص شعورهم أو تقليم أظافرهم. إن حماستنا ذاتها التي نبتغي بها دفع من نحن مسؤولون عنهم[1] إلى أداء واجبات ديننا المقدسة هي حماسة خطرة، ولا تتحلى بقدر كافٍ من الحكمة. كان هناك إمبراطور اسمه تيودور، قتل بسيفه سكان مدينة كاملة، حتى النساء والأطفال، ثم تقدّم لدخول الكنيسة، لكن مطراناً اسمه أمبرواز أغلق الأبواب في وجهه لأنه مجرم دنيء، وهذا عمل بطولي. بعد ذلك كفّر الإمبراطور عن جريمته حسب ما يقتضيه الأمر، قبلته الكنيسة وذهب ليجلس بين الكهنة، لكن ذات المطران أخرجه، وفي هذا فعل متطرف. لذا على الإنسان أن يحذر من حماسته، فما هما الدين أو الدولة إن كان لهذا الأمير مكان بين الكهنة أو لم يكن؟

من باريس، في الأول من شهر ربيع الأول من عام 1714

---

(1) المقصود أولئك الذين نوجه ضمائرهم.

الرسالة الثانية والستون

من زيليس إلى أوزبك في باريس

بلغت ابنتك السابعة من عمرها، أعتقد أنه الوقت المناسب لنقلها إلى الأجزاء الداخلية في القصر، ولن ننتظر حتى تبلغ العاشرة فنعهد بها إلى الخصيان السود. من غير الشائع حرمان فتاة صغيرة من حريات طفولتها في سن مبكرة من أجل تربيتها دينياً بين الجدران المقدسة حيث تجد العفة والحياء.

لست من رأي بعض الأمهات اللواتي لا يعزلن بناتهن إلا قُبيل تزويجهن، فيفرضن عليهن بقسوة أسلوب حياة القُصور وهن غير مستعدات له، هل يجب علينا الأخذ بقوة العقل دون أن نعير اهتماماً لتأثير العادة؟

ومن العبث التحدث عن تبعيتنا لما وضعته فينا الطبيعة، إذ لا يكفي الإحساس بذلك، وإنما يجب ممارسته، حتى نتمكن من تحمله في هذه المرحلة العمرية التي تبدأ فيها المشاعر في الظهور وحثنا إلى الاستقلالية.

إذا لم يكن من رابط بيننا وبينكم إلا الواجب، فقد ننساه أحياناً، وإن كان الميلُ فقط من يغرينا فيهم، فقد يُضعفه ميل أقوى منه. عندما يعطينا القانون رجلاً واحداً فإنه يحرمنا من باقي الرجال، ويبعدنا عنهم كأن بيننا مئة ألف ميل.

إن الطبيعة التي تعمل لصالح الرجل لا تسعى إلى تحقيق رغباته فقط، بل أرادت لنا أن نمتلك هذه الرغبات ونكون آلات في خدمة إشباعها. لقد وضعتنا في نار الشهوات حتى تعيش بسلام. وإن فقد الرجال عاطفتهم، فقد قدّرت لنا أن نعيدهم إليها، دون أن نستطيع الاستمتاع بهذه الحالة السعيدة التي وضعناهم فيها.

ومع ذلك يا أوزبك، لا تتخيل أن وضعك أسعد من حالي: لقد تذوقت هنا ألف متعة لا تعرفها. عملت مخيلتي بلا توقف حتى تجعلني أعرف قيمتها: لقد عشت، أما أنت فقد تراجعت همتك.

إنني، في السجن حيث احتجزتني، أكثر حرية منك. أنت تزيد من اهتمامك لكي تُبقيني فيه، وأنا أستمتع بقلقك، وشكوكك، وغيرتك، وأحزانك، إنها علامات أكيدة على تعلقك بي.

استمر يا عزيزي أوزبك، واسهر عليَّ ليلاً ونهاراً، لا تثق بالاحتياطات المعتادة، ضاعف سعادتي بتحقيق سعادتك، واعلم أنني لا أخشى شيئاً إلا عدم مبالاتك.

من قصر أصفهان، في الثاني من شهر ربيع الأول من عام 1714

الرسالة الثالثة والستون

من ريكا إلى أوزبك في...

أعتقد أنك تريد أن تمضي حياتك في الريف. لم أفتقدك في البداية إلا ليومين أو ثلاثة، وها أنا لم أَرَكَ منذ خمسة عشر يوماً. أنت في منزل ساحر حقاً، تجد فيه صُحبة تناسبك، وتتصرف حسب راحتك، لن يتطلب الأمر أكثر من ذلك حتى تنسى العالم كله.

بالنسبة إليّ، فأنا أعيش نفس الحياة التي رأيتني أحياها: أنطلق في العالم باحثاً عن اكتشافه، روحي تفقد بشكل غير محسوس كل ما تبقى من طابعها الآسيوي، وتستبدله بلا جهد بالعادات الأوروبية. عدتُ غير متفاجئ من رؤية خمس أو ست نساء في منزل بصحبة خمسة أو ستة رجال، ولا أجد ذلك غريباً.

أستطيع أن أقول إنني لم أعرف النساء إلا حين جئت إلى هنا، وإني تعلمت منهن في شهر ما لم أكن لأتعلمه خلال ثلاثين عاماً في القصر.

عندنا، كل شخصيات الناس متشابهة، لأنها مكرهة، فنحن لا نرى الناس كما هم، وإنما كما يجبرهم المجتمع على أن يكونوا: في خضوع القلب والعقل هذا، لا تسمع إلا الخوف الذي ليس له إلا صورة واحدة فقط، وليس كما الطبيعة التي تعبر عن نفسها بأشكال وتجليات مختلفة تماماً.

إن فن الخداع والمواربة، الشائع والضروري جداً عندنا، لا يعرفونه هنا، فكل شيء يُقال ويُرى ويُسمع، كالوجه يظهر القلب، ولسوف ترى دائماً شيئاً من الفطرة الطبيعية في الأخلاق والفضيلة وحتى في الرذيلة.

ينبغي، لإرضاء النساء، نمط مختلف من الموهبة التي تعجبهن عادةً، تقوم على خفة الروح ومرحها، وفي هذا ما يسليهن ويطلبنه في كل لحظة ممكنة فلا يكتفين إلا بعد فترات طويلة.

هذا المرح الذي كان عادةً مخصصاً لمخادع وغرف النساء،[1] يبدو أنه أصبح سمةً عامة للأمة، فهم يمزحون في المجلس، مع قيادة الجيش ومع السفراء. أما المهن فهي عرضة للهزء والسخرية بقدر ما تجده فيها من جدية، فالطبيب مثلاً لن يكون أهلاً للمزاح إلا إذا كانت ثيابه أقل كآبة ونِكَاته قاتلة للمرضى.

من باريس، في العاشر من شهر ربيع الأول من عام 1714

(1) نقول اليوم les boudoirs بدلًا من les toilettes الواردة في النص. في القرن الثامن عشر، كانت النساء تستقبل زوارها في غرف التزين الأنيقة. ويجب أن نعلم أنه كان من الدارج في ذلك الوقت رؤية مجلدات ضخمة من موسوعة ما أو كتاب في الحجرات المذهبة للأب راينال.

الرسالة الرابعة والستون

من رئيس الخصيان السود إلى أوزبك في باريس

أنا مرتبك لدرجة لن أستطع التعبير لك عنها يا سيدي العظيم، فالقصر في حالة رهيبة من الاضطراب والفوضى: حرب تسود بين نسائك، خصيانك منقسمون، ولا يسمع فيه إلا الشكوى، الهمس واللوم، لا يهتمون بتحذيراتي، يبدو أن كل شيء أصبح مباح في هذا الوقت، وعاد لا يكون لدي سوى لقب عديم الجدوى في القصر.

ليس بين نسائك واحدة إلا وتضع نفسها في مكانة أعلى من الأخريات بنسبها وجمالها وثروتها وذكائها وحُبك لها. وليس منهن من لا تتفاخر ببعض هذه الصفات حتى تنال أفضليتها على سواها. لقد أخذ صبري الكبير ينفد في كل لحظة، ومع ذلك أنا مستاء من فكرة أن أوبخهن جميعاً. لم تنفع لا حكمتي ولا مراعاتي لهن، على الرغم من أن هذه الفضائل نادرة في وظيفة كالتي أشغلها.

هل تريدني أن أكشف لك أيها السيد العظيم سبب كل هذه الاضطرابات؟ كل هذا يعود إلى ما في قلبك، وفي عطفك عليهن. لو لم تمسك يدي وتركت طريق التأديب والتهديد، ودون أن تسمح لنفسك بالتأثر بشكاويهن ودموعهن، أرسلتهن إلى البكاء أمامي، حيث لن ألين أبداً، فسوف أقوم

عاجلاً بشد أعناقهن إلى النير الذي يتوجب عليهن حمله، وأرهق مزاجهن المتعجرف والمتحرر.

اختطِفتُ في الخامسة عشرة من عمري من موطني في قلب إفريقيا، باعوني أول مرة لسيد كان لديه أكثر من عشرين زوجة أو محظية. بعد أن أدرك من صلابتي وتحفظي أنني كنت لائقاً لخدمة القصر، أمر بأن أكون كذلك. أجريت لي عملية جراحية مؤلمة في البداية لكنها جعلتني سعيداً بعد ذلك لأنها قربتني من آذان وثقة أسيادي. لقد دخلت إلى هذا القصر، الذي كان بالنسبة إليّ عالماً جديداً. كان رئيس الخصيان، أقوى رجل رأيته في حياتي، يحكم بنفوذ مطلق. لم يكن هناك أي كلام، لا انقسامات ولا خلافات، بل سكون عميق في كل مكان: كان جميع النساء يذهبن إلى الفراش في نفس الوقت على مدار السنة، وينهضن في وقت واحد، يدخلن الحمام بانتظام، ويخرجن عند أدنى إشارة تصدر منا، أما بقية الوقت فكنّ دائماً محجوبات في غرفهن. كانت هناك قاعدة تقضي بإبقائهن في غاية الانضباط، وتراعى بحذر لا يوصف: أدنى رفض للطاعة كان عقابه واجباً وبلا رأفة. قال لي رئيس الخصيان: أنا عبدٌ، لكنني عبد لرجل هو سيدي وسيدك، وإني أستخدم عليك السلطة التي منحني إياها، إنه هو من يعاقبك وليس أنا، لكنني اليد التي تنفِّذ بأمر منه. هؤلاء النساء لا يدخلن غرفة سيدي حتى يُستَدْعَيْن، يستقبلن هذه النعمة بفرح وقد يرين أنفسهن محرومات منها دون أن يشتكين. أخيراً أقول: لقد كنت أقل السود منزلة في هذا القصر الهادئ، لكنني كنت محترماً أكثر بآلاف المرات مما أنا عليه في قصرك، على الرغم من أنني الآمر عليهم جميعاً.

حالما عرف هذا الخصي العظيم عبقريتي، وجه عينيه نحوي. تحدث

عني إلى سيدي كرجل قادر على العمل وفقاً لرغبته، وعلى خلافته في المنصب الذي يشغله: لم يكن متفاجئاً من صغر سني؛ كان يعتقد أن نباهتي ستحل محل التجربة. فماذا أقول لك؟ لقد أحرزت تقدماً كبيراً في نيل ثقته، وعاد لا يكون هناك أدنى مانع حتى يضع بين يدي مفاتيح الأماكن الأكثر رهبة التي يحرسها منذ وقت طويل. لقد تعلمت في عهد هذا المعلم العظيم فن القيادة الصعب، وصنعت نفسي على أسس حكومة لا تلين: تحت قيادته، درست قلوب النساء، فقد علمني الاستفادة من نقاط ضعفهن، وألا أندهش من سموهن. كثيراً ما كان يحب أن يريني كيف يقودهن إلى الخروج على الطاعة، ثم جعلهن يعدن إليها دون أن يشعرن، كان يريد أن أبدو أنا نفسي منقاداً له أحياناً. لكن يجب أن نراه في تلك اللحظات عندما يجدهنّ قريبات جداً من اليأس، وهن بين الرجاء والتوبيخ: كان يساند دموعهن دون أن يتحرك، شاعراً بالرضا على هذا النوع من الانتصار. قال مرةً برضا ظاهر: هذه هي الطريقة التي يجب أن تُحكم بها النساء: عددهن لا يربكني، فأنا أقود كل نساء ملكنا العظيم بنفس الطريقة. فكيف يأمل الرجل بأن يأسر قلوبهن إذا لم يكن قد أخضع خصيانه المخلصين أولاً؟

لم يكن حازماً فقط، ولكنه كان نبيهاً أيضاً. قرأ أفكارهن ودهائهن، حركاتهن المتصنعة، ووجوههن المزيفة، لم يخفَ عليه أي شيء. كان يعرف كل أفعالهن الخفية، وأحاديثهن الأكثر سرية. كان يستخدم بعضهنّ ليعرف الأخريات. وكان يحب أن يكافئ الأدنى ثقة منهن. وبما أنهن لا يقتربن من زوجهن إلا حين يُسمح لهن، فقد كان هذا الخصي يستدعي منهنّ من يشاء موجهاً أنظار سيده إليها، هذه هي الميزة التي كان يكافئ بها من تكشف له سراً ما. لقد أقنع سيده أنه من الصواب أن يُترك هذا الخيار

له، بغية منحه سلطة أكبر. هذه هي الطريقة التي حُكمنا بها، سيدي الرائع، في القصر الذي كان، على ما أعتقد، أحسن القصور تنظيماً في بلاد فارس.

أطلق يدي: اسمح لي بفرض الطاعة، في ثمانية أيام سأحل النظام مكان الفوضى، فهذا ما يليق بمقامك، وما تتطلبه سلامتك.

من قصرك في أصفهان، في التاسع من شهر ربيع الأول من عام 1714

الرسالة الخامسة والستون

من أوزبك إلى نسائه في قصر أصفهان

لقد علمت أن القصر في حالة فوضى، وأنه مملوء بالخلافات والانقسامات الداخلية. ألم أوصيكن عند رحيلي بالسلام وحسن التفاهم؟ لقد وعدتنّني، هل كان وعدكن خدعة؟

لو أردت اتباع النصيحة التي قدمها إليّ كبير الخصيان، ولو رغبت في استخدام سلطتي لجعلتكن تعشن حسب توجيهاتي، عندها ستكن المخدوعات.

لا أُحسن استخدام هذه الوسائل العنيفة إلا بعد أن أكون قد جربت الوسائل الأخرى كافة. عليكن إذن الاهتمام بكل ما لم تردن مراعاته مما يهمني.

إن كبير الخصيان محق في شكواه. فهو يقول إنكن لا تبالين به، فكيف توفقن بين هذا السلوك وتواضع شأنكن؟ ألم أعهد إليه أن يكون أميناً على استقامتكن في غيابي؟ إنه وحده الأمين على هذا الكنز المقدس. لكن هذا الاحتقار الذي تظهرنه نحوه يبين أن من هم مسؤولون عن عيشكن حسب قوانين الشرف جعلتن منهم خصوماً لكن.

غيّرن من سلوككن رجاءً حتى أستطيع فيما بعد أن أرفضَ المقترحات

التي سوف تحد من حريتكن وراحتكن، لأنني أريد أن تنسين أنني سيد وتتذكرن فقط أنني زوجكن.

من باريس، في الخامس من شهر شعبان من عام 1714

الرسالة السادسة والستون

من ريكا إلى...

نحن مرتبطون جداً بالعلوم هنا، لكنني لا أعرف ما إذا كنا متعلمين أشداء. من يشك في كل شيء، كفيلسوف، لا يجرؤ على إنكار أي شيء كعالم لاهوت: هذا الإنسان المتناقض راضٍ دائماً عن نفسه ما دمنا متفقين على قدراته.

إن رغبة الفرنسيين الكبرى هي امتلاك الذكاء، ورغبة هؤلاء الطامحين في الذكاء هي تأليف الكتب.

ومع ذلك، لا يمكن تخيل شيء أسوأ: يبدو أن الطبيعة قد رتبت بحكمة أن تكون حماقات الناس عابرة، أما الكتب فتُخَلّدها. ما يوجب على الأحمق أن يكون سعيداً أنه يزعج كل من عاصره، غير أنه يريد تعذيب الأجيال القادمة أيضاً، يريد لغبائه أن ينتصر على النسيان الذي كان يمكن أن يتمتع به كما يُنسى القبر، كما يريد أن تعرف الأجيال القادمة أنه عاش، وأنه كان دائماً أحمق.

من بين جميع المؤلفين، لا يوجد ما أحتقره أكثر من الجامِعِين الذين يذهبون إلى كل مكان للبحث عن أجزاء من أعمال الآخرين، ويلصقونها في أعمالهم، مثل قطع العشب على الأرضية: فهم ليسوا بأفضلَ من عمال

المطبعة الذين يرتبون الحروف فيصنعون كتاباً لم يبذلوا فيه إلا العمل اليدوي. أود أن يتم احترام الكتب الأصلية. ويبدو لي أن هناك انتهاكاً بأخذ الأجزاء التي تؤلف تلك الكتب من مكانها المقدس لتعرض باحتقار لا تستحقه. عندما لا يكون لدى الإنسان شيء جديد يقوله، فلماذا لا يصمت؟ لمَ هذا العمل المكرر؟ لكني أريد أن أعطي أمراً جديداً. أنت رجل ماهر! تعالَ إلى مكتبتي، وضَعِ الكتُبَ الموجودة في أعلاها مكان التي في الأسفل، وتلك الموجودة في الأسفل في الأعلى: إن هذا لعمل رائع!

أكتب إليك حول هذا الموضوع يا... لأنني مستاء من كتاب تركته لتوي، وهو كتاب ضخم جداً بحيث تظن أنه يحتوي على علوم الدنيا: لكنه صدّع رأسي، دون أن يعلمني شيئاً. الوداع.

من باريس، في الثامن من شهر شعبان من عام 1714

الرسالة السابعة والستون

من إيبين إلى أوزبك في باريس

لقد وصلت إلى هنا ثلاثة سفن دون أن تحمل لي أية أخبار منك، أأنت مريض، أم يسرك أن تقلقني؟

إذا كنتَ لا تحبني وأنت في بلد لا يشغلك فيه شيء، فكيف يكون الحال وأنت في قلب بلاد فارس وفي أحضان عائلتك؟ لكن ربما أكون مخطئاً: فأنت لطيف بما يكفي للعثور على أصدقاء في كل مكان، وقلبك يستوطن كل البلاد، فكيف تمتنع النفس الكريمة عن تكوين علاقات؟ أعترف لك أني أحترم الصداقات القديمة، لكني لست متحمساً لتكوين أخرى جديدة في كل مكان.

في بعض البلدان التي كنت فيها، عشت هناك كما لو كان عليّ أن أمضي حياتي: كان لدي نفس الشغف بالناس الفاضلين، نفس العطف، أو بالأحرى الحنان على البائسين منهم، نفس التقدير لأولئك الذين لم يُعمِهِمُ الرخاء. هذه شخصيتي يا أوزبك: أينما وجدتُ رجالاً، سأنتقي منهم أصدقاء.

معي هنا رجل زَرَادشْتِي، أعتقد أنه يحتل من بعدك المركز الأول في قلبي: إنه الاستقامة بعينها. أجبرتْه ظروف خاصة على الاستقرار في هذه

المدينة، حيث يعيش بهدوء على عائدات تجارة شريفة، مع امرأة يحبها. تتميز حياته بالأعمال السخية، وعلى الرغم من أنه يبحث عن حياة مغمورة، فإن في قلبه بطولة أكثر مما في قلب أعظم الملوك.

لقد حدثته عنك كثيراً، وأريته رسائلك، أعتقد أن ذلك سره، أرى أن لديك الآن صديقاً لا تعرفه.

ستجد هنا أهم مغامراته: كان متردداً في كتابتها، لكنه لم يستطع أن يرفض ذلك من أجل صداقتي، وأنا أعهد بها إليك.

قصة أفريدون وأستارتيه[1]

لقد ولدت بين الزرادشتيين، لديانة ربما تكون الأقدم في العالم. كنت بائساً لأنني عرفت الحب قبل العقل. كنت بالكاد في السادسة من عمري عندما أدركت أنني لا أستطيع العيش إلا مع أختي: كانت عيناي عليها دائماً، وعندما تتركني للحظة تعود لتجدهما قد اغرورقتا في الدموع: كل يوم يمر كان يزيد في حبي أكثر مما يزيد في عمري. كان والدي مندهشاً من هذا الانسجام القوي، وكم تمنى لو تزوجنا، وفقاً للتقاليد الزرادشتية التي أدخلها قمبيز،[2] لكن خوفنا من المسلمين الذين نعيش تحت نيرهم، يمنع أبناء أمتنا من التفكير في تلك التحالفات المقدسة، التي يسمح بها ديننا بل ويأمرنا بها أيضاً، والتي هي صور حقيقية للوحدة التي تشكلت بالفعل من قبل الطبيعة.

---

(1) دو أستارتيه.

(2) المقصود ملك الفرس قمبيز الأسطوري الذي عاش في عهده زرادشت، وهو والد هيستاسبي أو غوستاسبي.

لذلك رأى والدي أنه سيكون من الخطر اتباع ميولي وميولها، فقرر إطفاء اللهب الذي كان يعتقد أنه في بدايته، لكنه كان بالفعل في أوجِه: اختلق رحلة، واصطحبني معه، وترك أختي في رعاية إحدى قريباته، لأن أمي كانت قد ماتت قبل عامين. لن أستطيع أن أخبرك كم كان محبطاً هذا الفراق: لقد قبّلت أختي التي كانت تبكي، لكنني لم أذرف الدمع أبداً، لأن الألم جمّد أحاسيسي. وصلنا إلى تفليس.[1] وأبي، بعد أن عهد بتربيتي إلى أحد أقاربنا، تركني هناك وعاد إلى الديار.

بعد مدة علمت أن أبي أدخل أختي إلى قصر[2] الملك بوساطة أحد أصدقائه، حيث كانت في خدمة إحدى السلطانات. لو أخبروني بوفاتها، لما كان أقسى عليَّ من هذا، إلى جانب حقيقة أنني عدتُ لا آمل رؤيتها مرة أخرى، فإن دخولها إلى القصر جعلها مسلمة، ولن يعود بإمكانها، بسبب أحكام هذا الدين، أن تنظر إليّ بلا كراهية. ومع ذلك، عدتُ غير قادر على العيش في تفليس. متعباً من نفسي ومن الحياة، عدت إلى أصفهان. كانت كلماتي الأولى لوالدي لاذعة. عاتبته لأنه وضع ابنته في مكان لا يمكن دخوله إلا بتغيير الدين. قلت له: لقد جلبت على عائلتك غضب الله والشمس التي تنيرك، لقد فعلت أكثر مما لو كنت قد دنست الفضائل، لأنك دنست روح ابنتك التي لا تقل طهراً عن تلك الفضائل. سأموت من الألم والحب، ولكن عسى أن يكون موتي هو الجزاء الوحيد الذي ستناله من الله. عند هذه الكلمات خرجْتُ. ولمدة عامين، قضيت حياتي في الذهاب للنظر إلى جدران القصر، وتأمل المكان الذي قد تكون فيه أختي،

---

(1) تيفليس، عاصمة جورجيا.

(2) كتاب الحساب.

معرضاً نفسي كل يوم ألف مرة للذبح من قبل الخصيان، الذين يحيطون بهذا المكان الهائل.

في النهاية تُوفي أبي. ورأتِ السلطانة أن أختي التي تخدمها تزداد جمالاً كل يوم، أصابتها الغيرة فزوّجتها من خصي كان يريدها بشغف. بهذه الطريقة، تركت أختي القصر واتخذت معه بيتاً في أصفهان.

انقضت أكثر من ثلاثة أشهر دون أن أتمكن من التحدث إليها، لأن الخصي، وهو أكثر الناس غيرة، كان يصدني متعللاً بذرائعَ مختلِفَة. أخيراً، دخلت بيته وتركني أتحدث إليها من خلف ستارة. لن تستطيع عينا سِنَّوْرٍ اكتشافها، فقد كانت مغطاة بالملابس والحُجب، ولم أستطع التعرف إليها إلا من خلال رنة صوتها. ما أشد انفعالي عندما رأيت نفسي قريباً جداً منها وشديد البعد عنها! سيطرت على نفسي، لأنني كنت مراقَباً. أما بالنسبة إليها، فقد بدا لي أنها تذرف بعض الدموع. أراد زوجها أن يقدم إليّ بعض الأعذار السخيفة، لكنها عاملته كأنه أحط العبيد. كان مرتبكاً عندما رأى أنني أتحدث مع أختي بلغة لم يكن يعرفها. إنها الفارسية القديمة، لغتنا المقدسة. قلت لها: ماذا يا أختي! هل صحيح أنك تركتِ دين آبائك؟ أعلم أنه عند دخولك القصر، يجب أن تكوني قد اعتنقتِ المحمدية: لكن أخبريني، هل كان من الممكن أن يوافق قلبك، مثل فمك، على ترك دين يسمح لي أن أحبك؟ ولأجلِ مَن تركتِ هذا الدين العزيز علينا؟ أمن أجل هذا البائس الذي لا تزال آثار القيد الحديدي ظاهرة عليه، والذي إذا كان رجلاً، سيكون أدناهم جميعاً؟ فقالت: يا أخي، هذا الرجل الذي تتحدث عنه هو زوجي ومن واجبي تشريفه، وإن بدا لك أنه غير جدير بالاحترام فسأكون أنا أيضاً آخر النساء إذا... قلت: آه يا أختي، أنت زرادشتية، إنه

ليس زوجك ولا يمكن أن يكون، وإن كنت مخلصة لدينك مثل آبائك لَمَا نظرتِ إليه إلا كوحش. فقالت: يا للحسرة! هذا الدين الذي يظهر لي من بعيد! بالكاد عرفت مبادئه حتى توجّب عليَّ نسيانها. أترى هذه اللغة، التي أتحدث إليك بها، عادت غير مألوفة بالنسبة إلي، وأجد صعوبة في التعبير عن نفسي بها: لكن ثِق أن ذكريات طفولتنا ما زالت تسحرني، وأنه منذ ذلك الوقت لم أتذوق إلا أفراحاً زائفة. وأنه لم يمر يوم دون أن أفكر بك، وأنك كنت دون أن تدري من أكبر أسباب زواجي هذا، وأنني كنت مصممة على الزواج فقط على أمل رؤيتك مرة أخرى. لكن ذلك اليوم، الذي كلفني الكثير، سيكلفني المزيد! أراك خارجاً عن طورك، زوجي يرتجف من الغضب والغيرة: لن أراك بعد الآن، ربما أتحدث إليكم للمرة الأخيرة في حياتي، والتي على هذه الوتيرة، يا أخي، لن تكون طويلة. عند هذه الكلمات كانت ترتجف. ورأت نفسها غير قادرة على قول المزيد، فتركتني أشد الناس حسرةً.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام، طلبت رؤية أختي: كان الخصي البربري أراد منعي عن ذلك، لكن بالإضافة إلى حقيقة أن هذا النوع من الأزواج لا يتمتع بنفس السلطة التي لدى الآخرين على زوجاتهم، فقد أحب أختي بجنون لدرجة أنه لم يستطع رفض أي شيء تطلبه. رأيتها مرة أخرى في نفس المكان وتحت نفس الحُجب برفقة عبدين. مما جعلني ألجأ إلى لغتنا الخاصة. قلت لها: لماذا لا أستطيع أن أراك يا أختي دون أن أجد نفسي في هذا الموقف المروع؟ الجدران التي تحبسك، هذه الأقفال وهذه القضبان، هؤلاء الحراس البائسون الذين يراقبونك، كل هذا يثير غضبي. كيف فقدتِ الحرية العذبة التي تمتع بها أسلافك؟ إن أمك، التي كانت عفيفة جداً، لم

تعطِ زوجها، كضامن لفضيلتها، إلا فضيلتها نفسها: لقد عاشا معاً سعداء وفي ثقة متبادلة، وكانت بساطة سلوكهما ثروة أغلى ألف مرة من الترف الزائف الذي يبدو أنك تستمتعين به في هذا المنزل الفاخر. بفقدكِ لدينك، فقدتِ حُرّيتك وسعادتك وتلك المساواة الثمينة التي تكرّم جنسك. لكن الأسوأ من ذلك هو أنك لست زوجة، ولا يمكنك أن تكونيها، بل جارية لعبد أحطّتِ الإنسانية من قيمته. فقالت: آه يا أخي، عليك احترام زوجي واحترام الدين الذي اعتنقته، فحسب هذا الدين، لا أستطيع الإصغاء ولا التحدث إليك دون إثم. فقلت لها غاضباً: ماذا؟ هل تؤمنين بصدقِ هذا الدين؟ قالت: كم كان مفيداً ألا يكون كذلك! لقد قدمت تضحية كبيرة من أجله فلا يسعني سوى اعتناقه، وإذا كانت شكوكي... ثم صمتت عند هذه الكلمات، قلت: نعم يا أختي، إن شكوكك لها ما يبررها مهما كانت. ماذا تتوقعين من دين يجعلك تعيسة في هذا العالم ولا يترك لك أملاً في الآخرة؟ تذكري أن ديننا هو الأقدم في العالم، أنه ازدهر دائماً في بلاد فارس، وليس له أصل آخر إلا في هذه الإمبراطورية، التي لا تزال نشأتها مجهولة، وأن الصدفة فقط هي التي أدخلت المحمدية إليها، أن هذه الديانة لم تتأسس عن طريق الإقناع بل الغزو. لو لم يكن أمراؤنا الشرعيون ضعفاء، لرأيت عبادة المجوس القدماء سائدة. ارجعي بالزمن إلى تلك القرون الغابرة: سيحدثك الجميع عن المجوسية، لا عن الطائفة المحمدية التي وبعد عدة آلاف سنة كانت لا تزال في مهدها. قالت: لكن إذا كان ديني أكثر حداثة من دينكم، فهو على الأقل أنقى، لأنه يقوم على عبادة اللّٰه وحده، في حين أنكم ما زلتم تعبدون الشمس والنجوم والنار وحتى العناصر الكونية. قلت لها: أرى يا أختي أنك تعلمت بوجودك بين المسلمين أن تنفري من ديننا

المقدس. لا نعبد لا النجوم ولا العناصر، وآباؤنا لم يعبدوها قط: لم يبنوا لها أبداً معابد، لم يقدموا لها القرابين، لقد جعلوها طقوساً دينية فقط، بما أنها شواهد على آثار ومظاهر العظمة الإلهية. ولكن يا أختي أستحلفك بالله الذي يهدينا أن تقبلي هذا الكتاب المقدس الذي أحمله إليك، إنه كتاب مُشَرّعنا زرادشت: اقرئيه دون تحيز، واستقبلي في قلبك أشعة النور التي ستنيرك وأنت تقرئينه، تذكري آباءك الذين كرموا الشمس لزمن طويل في مدينة بلخ[1] المقدسة، وأخيراً اذكريني، فأنا لا أمل لي في راحة أو ثروة أو حياة، إلا حين تعودين عن معتقدك هذا. تركتها مهتاجاً تماماً، وتركت لها وحدها قرار أعظم قضية يمكن أن أتعرض لها في حياتي.

عدت بعد يومين. لم أتحدث معها، فقد كنت أترقب بصمت قرار حياتي أو موتي. قالت لي: أنت محبوب يا أخي، ومن زرادشتيّ. لقد حاربتُ طويلاً، ولكن يا إلهي! كم يزيل الحب من عقبات! كم يعزيني! عدتُ لا أخشى أن يزداد حبي لك قوة، ولا أستطيع أن أضع حدوداً لهذا الحب، حتى الإفراط فيه مشروع. آه! كم يليق هذا بقلبي! لكن وأنت الذي عرفت كيف تكسر القيود التي صاغتها روحي، متى ستكسر تلك التي تقيد يدي؟ من هذه اللحظة، أمنحك نفسي، فأظهر لي مقدار السرعة التي تتقبلني بها، وكم هي عزيزة عليك هذه الهدية. في المرة الأولى التي يمكنني فيها معانقتك يا أخي، أعتقد أنني سأموت بين ذراعيك. فقلت: لن أستطع أبداً التعبير عن الفرح الذي شعرت به بسبب هذه الكلمات، أنا متيقن وأرى نفسي أسعد الناس في هذه اللحظة، وأكاد أرى جميع الرغبات التي سعيت إليها خلال خمسة وعشرين عاماً من حياتي قد تحققت، وتلاشت جميع

(1) إنها مدينة باكترا القديمة.

الأحزان التي كانت شاقة للغاية بالنسبة إليّ. لكن عندما ألفت قليلاً هذه الأفكار الجميلة، وجدت أنني لم أكن قريباً جداً من سعادتي كما تخيلت فجأة مع أنني قد تغلبت على أكبر الصعوبات. كان من الضروري التغلب على يقظة حراسها، لم أجرؤ على الكشف عن سر حياتي لأي شخص، لم يكن لدي سوى أختي، وليس لديها سواي، إذا أخفقت محاولتي، فأنا أواجه خطر الوضع على الخازوق، لكنني لم أستطع التفكير في عقوبة أقسى من تفويت هذه الفرصة. اتفقنا على أنها سترسل إلي في طلب ساعة حائط تركها لها والدها، وأن أضع فيها مبرد من أجل نشر قضبان النافذة التي تطل على الشارع، وحبلاً ذا عقد للنزول، على ألا أراها مرة أخرى، لكنني سأذهب كل ليلة، تحت هذه النافذة، لأنتظر منها تنفيذ خطتها. أمضيت خمسة عشر ليلة كاملة دون أن أرى أحداً، لأنها لم تجد الفرصة مواتية. أخيراً، في اليوم السادس عشر، سمعت منشاراً يعمل لكنه كان يتوقف من وقت لآخر، وخلال هذه الفترات من التوقف كان خوفي شديداً. بعد ساعة من العمل، رأيتها مربوطة بالحبل، تركت نفسها تنزلق بين ذراعيّ. عدتُ أعرف الخطر، وبقيت لفترة طويلة دون أن أتحرك من مكاني، ثم أخرجتها من المدينة، حيث كان لدي حصان جاهز، وضعتها ورائي، وابتعدت بسرعة لا يمكن تصورها عن هذا المكان المهلك. وصلنا قبل الفجر إلى منزل أحد الزرادشتيين، في مكان صحراوي حيث كان منعزلاً يعيش بتقشف من عمل يديه، لم نقرر إذا كان من المناسب البقاء عنده، وبناءً على نصيحته، دخلنا في غابة كثيفة، وجلسنا في جوف شجرة بلوط قديمة حتى يتلاشى ضجيج هروبنا. لقد عشنا كلانا في هذا المسكن البعيد، بدون رقيب، نخبر بعضنا بعضاً باستمرار أننا سوف نتبادل الحب

دائماً، في انتظار الفرصة التي قد تسمح لأحد الكهنة الزرادشتيين بعقد قراننا حسب كتابنا المقدس. قلت لها: إن هذا الاتحاد مقدَّس يا أختي! لقد وَحَّدتنا الطبيعة، وسوف يوحدنا قانوننا المقدس مرة أخرى. أخيراً، جاء كاهن لتهدئة لهفة الحب. أجرى جميع مراسم الزواج، في بيت فلاح، باركنا وتمنى لنا كثيراً أن تكون لنا عزيمة غوستاسبي، وقدسية هوراسبي.[1] بعد ذلك بوقت قصير، غادرنا بلاد فارس، حيث لم نكن بأمان، واستقررنا في جورجيا. عشنا هناك لمدة عام، كل يوم أكثر سحراً من سابقه. لكن بما أن أموالي كانت على وشك النفاذ، ولأنني كنت أخشى الفقر على أختي لا على نفسي، فقد تركتها لطلب بعض المساعدة من أقاربنا. لم يكن هناك وداع أكثر رقة من وداعنا. لكن رحلتي لم تكن عديمة الفائدة بالنسبة إلي فحسب، بل كانت كارثية. لأنني، من جهة، وجدت كل ممتلكاتنا قد صُودِرَت، ومن جهة أخرى كان والديّ عاجزين تقريباً عن مساعدتي، فلم أحمل من المال إلا بالضبط ما كان لازماً لعودتي. ولكن كل الأسى كان حين لم أجد أختي. قبل أيام قليلة من وصولي، توغل بعض التتار في المدينة التي كانت فيها، ولما وجدوها جميلة، أخذوها وباعوها لليهود الذين كانوا في طريقهم إلى تركيا، ولم يتركوا سوى فتاة صغيرة ولدتها قبل بضعة أشهر. تبعت هؤلاء اليهود، ولحقت بهم على بعد ثلاثة فراسخ: لكن توسلاتي ودموعي ضاعت هباءً، فقد طلبوا مني ثلاثين جنيهاً،[2] ولم يتنازلوا عن جنيه واحد. بعد أن تحدثت إلى الجميع، وبعد أن استنجدت بالكهنة الأتراك والمسيحيين، توجهت إلى تاجر أرمني، بعته ابنتي، وبعت

(1) إنه قمبيز المذكور سابقاً.

(2) الجنيه أو التومان، عملة ذهبية تعادل ثلاثاً وعشرين فرنكاً.

نفسي أيضاً بخمسة وثلاثين جنيهاً. ذهبت إلى اليهود، وأعطيتهم ثلاثين جنيهاً، وأخذت الخمسة الأخرى إلى أختي التي لم أرَها بعد. قلت لها أنت حرة يا أختي، ويمكنني أن أقبلك: إليك خمس جنيهات أحملها لك، وأنا آسف لأنهم لم يشتروني بأكثر من هذا. فقالت: ماذا! هل بعت نفسك؟ أجبتها: نعم. فقالت: يا لك من تعيس! ماذا فعلت؟ ألم يكن كافياً ما أنا فيه من شقاء، حتى تعمل على جعله أكبر؟ قلت: حريتك تعزيني، وعبوديتك ستضعني في القبر. قالت: آه يا أخي! ما أقسى حبك! وابنتي؟ أنا لا أراها! فقلت: بعتها أيضاً. انفجر كلانا في البكاء، ولم يكن لدينا القوة لقول أي شيء. وأخيراً، ذهبت لأرى سيدي، ووصلت أختي إلى هناك حالما وصلت: ألقت بنفسها على ركبتيه. قالت: أطلب منك العبودية كما يطلب الآخرون الحرية، خذني، ستبيعني بأكثر من زوجي. تشاجرنا حتى نزلت الدموع من عيني سيدي. قالت لي: أيها البائس، أتظن أنني أستطيع أن أقبل حريتي على حساب حريتك؟ سيدي، سترى اثنين من الأشقياء يموتان إذا فرقتنا. أهبك نفسي، ادفع لي: ربما ستتمكن هذه الأموال وخدماتي يوماً ما من الحصول على ما لا أجرؤ الآن على طلبه منك. من مصلحتك ألا تفرق بيننا، ثق أنني المسيطرة على حياته. كان الأرميني رجلاً لطيفاً تأثر لعذابنا. قال: اخدماني بأمانة وحماسة، وأعدكما بأنني سأمنحكما الحرية في غضون عام. أرى أن أياً منكما لا يستحق هذه المصائب. حين تصبحان حرين، فستكونان سعيدين لأن هذا ما تستحقانه، وإذا ابتسم لكما الحظ، فأنا متأكد أنكما ستعوّضانني عن الخسارة التي سأتكبدها. كلانا قبّل ركبتيه، وتبعناه في رحلته. أرحنا بعضنا بعضاً في أعمال العبودية. وكم كنت سعيداً عندما أتمكن من القيام بالعمل الذي يقع على عاتق أختي.

حلّت نهاية العام. وأوفى سيدنا بكلمته فحررنا. عدنا إلى تفليس، هناك وجدت صديقاً قديماً لوالدي، كان يمارس الطب بنجاح في تلك المدينة، أقرضني بعض المال فقمت ببعض التجارة. استدعتني بعض الأعمال إلى إزمير، حيث استقْرَرْت. لقد عشت هناك لمدة ست سنوات، مستمتعاً فيها بأجمل وأرقى مجتمع في الدنيا، ساد الوئام عائلتي، ولن أبدل حالي بحال كل ملوك العالم. كنت محظوظاً بما يكفي لأن أقابل التاجر الأرميني الذي أدين له بكل شيء، حيث قدمت له خدمات جليلة.

من إزمير، في السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام 1714

الرسالة الثامنة والستون

من ريكا إلى أوزبك في...

ذهبت في ذلك اليوم لتناول العشاء مع رجل قضاء رجاني عدة مرات. بعد أن تحدثت عن أشياء كثيرة، قلت له: سيدي، يبدو لي أن عملك صعب للغاية. أجاب: ليس بالقدر الذي تتخيله، الطريقة التي نمارس بها مهنتنا تجعل منها مجرد تسلية. فقلت: لكن ماذا! ألا تشغل رأسك دائماً بأعمال الآخرين؟ ألست مشغولاً دائماً بأشياء ليست ممتعة؟ أنت محق، هذه الأشياء غير ممتعة، ولأننا لا نهتم بها كثيراً، فهذا ما يجعل منها مهنة غير شاقة كما تظن. عندما رأيت أنه يتعامل مع الأمر باستخفاف، تابعت وقلت له: سيدي، لم أرَ مكتبتك. قال: أعتقد ذلك، لأنه ليس لدي مكتب، فعندما حصلت على هذا المنصب، كنت بحاجة إلى النقود لأدفعها من أجله، لقد بعت مكتبتي، والمكتبي الذي أخذها، مع عدد هائل من المجلدات، لم يترك لي سوى كتاب العقل الخاص بي.[1] لست نادماً عليها، نحن القضاة لا نثقل كواهلنا بعلوم لا تفيدنا. ما حاجتنا إلى كل هذه المجلدات القانونية؟ جميع الحالات تقريباً افتراضية،[2] وتقع خارج القاعدة العامة. قلت له: لكن أليست كذلك يا سيدي، لأنكم أنتم أخرجتموها منه؟ وإلا

---

(1) سجل الحسابات.

(2) المقصود أنها قضايا من الواقع.

لماذا، في جميع شعوب العالم، نجد قوانين إذا لم تكن لتُطبق؟ وكيف نطبقها إذا كنا لا نعرفها؟ فأجاب: لو كنت تعرف دار القضاء، لما تحدثت هكذا، لدينا كتب حية هي المحامون، إنهم يعملون من أجلنا وهم مسؤولون عن إرشادنا. أجبته: ألن يكونوا مسؤولين عن خداعكم أحياناً؟ لذلك أين الضرر إن حميتم أنفسكم من حيلهم. لديهم أسلحة قد يهاجمون بها عدالتكم، فمن الجيد أن يكون لديكم بعض منها للدفاع عن هذه العدالة، وأنكم لن تدخلوا في معركة بملابسَ خفيفة مع أشخاص يرتدون دروعاً تصل حتى الأسنان.

من باريس، في الثالث عشر من شهر شعبان من عام 1714

الرسالة التاسعة والستون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

لم تكن لتتخيل أبداً أنني أصبحت فيلسوفاً ميتافيزيقياً كما لم أكن من قبل، ومع ذلك ستقتنع بفلسفتي، عندما تتعمق فيها.

قال الفلاسفة الأكثر عقلانية، الذين تأملوا في طبيعة اللّه، إنه كان كائناً مثالياً للغاية، لكنهم أساؤوا استخدام هذه الفكرة بشكل كبير. لقد عدّدوا كل الكماليات المختلفة التي يمكن للإنسان أن يمتلكها ويتخيلها، وحملّوها فكرة الألوهية، دون التفكير في أن هذه الصفات غالباً ما تتعارض بعضها مع بعض، وأنها لا يمكن أن تجتمع في ذات السياق دون أن تدمر بعضها بعضاً.

يقول شعراء الغرب إن الرسام الذي أراد أن يرسم صورة لآلهة الجمال،[1] جمع أجمل النساء اليونانيات، وأخذ من كل واحدة منهن أجمل ما فيها، ثم صنع من كل هذه الصفات أجمل الآلهة على الإطلاق. لو توصل الإنسان إلى فكرة أن تكون هذه الإلهة شقراء وسمراء، وأن تكون عيناها سوداوتان وزرقاوتان، وأنها لطيفة ومتكبرة، فسيكون غايةً في السخافة.

غالباً ما يفتقر اللّه إلى الكمال الذي قد يصيبه بنقص كبير، لكنه وحده

---

(1) زيوس عندما رسم هيلينا لأهالي مدينة جرجنت.

من يحدد ذلك، فهو لازم لوجوده. وهكذا، وإن كان اللّٰه قديراً، فإنه لا يستطيع أن ينتهك وعوده ولا أن يخدع الناس. حتى العجز ليس فيه، وإنما في الأمور النسبية، وهذا هو سبب عدم قدرته على تغيير جوهر الأشياء.

وبالتالي، ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة أكثر من أن بعض علمائنا قد تجرؤوا على نفي معرفة الغيب المطلقة عن اللّٰه، على أساس أنها تتعارض مع عدالته.

مهما كانت هذه الفكرة جريئة، فإن الميتافيزيقيا تتبناها بشكل عجيب. وفق مبادئها، لا يمكن للّٰه أن يتنبأ بأمور تعتمد على تحديد الأسباب الحرة، لأن ما لم يحدث لم يوجد قط، وبالتالي لا يمكن معرفته، لأن العدم الذي ليس له خصائص لا يمكن إدراكه، ولا يستطيع اللّٰه أن يقرأ في إرادة غير موجودة، ويرى في الروح شيئاً غير موجود فيها، لأنه حتى تتحدد، فإن الفعل الذي يحددها ليس موجوداً فيها.

إن الروح هي صانعة وجودها، ولكنْ هناك أوقات تكون فيها غير محددة لدرجة أنها لا تعرف حتى في أي مكان تحدد نفسها. غالباً ما تفعل ذلك فقط للاستفادة من حريتها، حتى لا يتمكن اللّٰه من رؤية هذا العزم مسبقاً، سواء في عمل الروح أو في الفعل الذي يُمارسه عليها.

كيف يمكن إذاً أن يتنبأ اللّٰه بالأشياء التي تعتمد على تحديد الأسباب الحرة؟ لا يستطع رؤيتها إلا بطريقتين: الحدس، الذي يتناقض مع معرفة الغيب اللا نهائية، أو يراها كآثار ضرورية تتبع بشكل قطعي سبباً يُحدثها من ذاته، وهنا تناقض أكبر. لأن الروح ستكون حرة فرضياً، لكنها في الواقع، لن تكون أكثر من كرة البلياردو التي ليست حرة في التحرك عندما تدفعها كرة أخرى.

لا تعتقد، مع ذلك، أنني أريد الحد من علم الله. كما يجعل المخلوقات تتصرف حسب هواه، فهو يعرف كل ما يريد أن يعرفه. ولكن، على الرغم من أنه يستطيع رؤية كل شيء، فإنه لا يستخدم دائماً هذه القوة، إنه يترك للمخلوق عادةً القدرة على التصرف أو عدمه، حتى يترك له استحقاق ذلك أو عدم استحقاقه. لذلك تنازل عن حقه في التصرف وتحديد ماهية الأشياء. لكن عندما يريد أن يعرف شيئاً ما، فدائماً ما يعرفه، لأن عليه فقط أن يريد شيئاً حتى يكون كما يراه، وأن يحدد المخلوقات وفقاً لإرادته. ومن ثم فهو يستمد ما يجب أن يحدث من الأشياء الممكنة بدقة، من خلال تحديد قرارات الأرواح المستقبلية، وحرمانها من القدرة التي أعطاها إليها للتصرف أو عدم التصرف.

إذا كان بإمكاننا الاستفادة من مقارنة، في أمر فوق المقارنات، فإن الملك الذي لا يعرف ما سيفعله سفيره في مسألة مهمة، وأراد أن يعرف، فعليه فقط أن يأمره بالتصرف وفق أسلوب معين، وسيكون قادراً على تأكد أن الأمر سيحدث كما خطط له.

إن القرآن وكتب اليهود تقاوم بلا توقف التشكيك بالبصيرة الإلهية المطلقة، هذا التشكيك الذي يُظهر أن الله في كل مكان يتجاهل تحديد الأرواح المستقبلي، ويبدو أن هذه هي الحقيقة الأولى التي علمها موسى للناس.

وضع الله آدم في الفردوس الأرضي، شريطة ألا يأكل من تلك الثمرة، وصية سخيفة لكائن يعرف قرارات النفوس المستقبلية، فهل يمكن لمثل هذا الكائن أن يضع شروطاً على نِعم الله دون أن يسخر منها؟ كأن رجلاً كان يعلم بأمر الاستيلاء على بغداد، قال لآخر: سأعطيك مئة جنيه، إذا لم يُستولَ على بغداد. ألن تكون هذه نكتة سيئة للغاية؟

عزيزي رضي، لمَ كل هذه الفلسفة؟ إن كان اللّه سامياً إلى درجة أننا لا نرى الغيوم التي بيننا وبينه، ولا نعلم عنه إلا في وصاياه. إنه واسع ولطيف ولا حدود لسلطانه. إن عظمته تعيدنا إلى ضعفنا، نخشع له ونعبده دائماً.

من باريس في آخر أيام شهر شعبان من عام 1714

الرسالة السبعون

من زيليس إلى أوزبك في باريس

سليمان، الذي تحبه، يائس من الإهانة التي تلقاها للتو. شاب طائش يدعى سوفيس كان يرغب في الزواج من ابنته منذ ثلاثة أشهر. بدا مسروراً من شكل الفتاة، حسب الكلام والرسم الذي رسمت به الفتاة من قبل النساء اللواتي كن قد رأينها في طفولتها، اتُّفِقَ على المهر، وكل شيء يجري بدون عقبات.

أمس، وبعد الاحتفالات الأولى، خرجت الفتاة على ظهر الخيل برفقة خصيها، وغطيت حسب العادة من الرأس إلى القدم. ولكن بمجرد وصولها إلى منزل زوجها المزعوم، أغلق الباب في وجهها، وأقسم أنه لن يستقبلها أبداً، إذا لم يُزد المهر. جاء الأقارب يركضون من كل الاتجاهات من أجل تسوية القضية، وبعد مقاومة شديدة وافق سليمان على تقديم هدية صغيرة لزوج ابنته. اكتملت مراسم الزواج، ثم أُخذت الفتاة إلى الفراش بعنف لا بأس به، ولكن بعد ساعة، نهض هذا المجنون بغضب، وشطّب وجهها في عدة أماكن، مدعياً أنها ليست عذراء، ثم أعادها إلى والدها. لا يمكن للإنسان أن يُعرض لإهانة أكبر من هذه. هناك من الناس من يؤكد أن هذه الفتاة بريئة. إن ذويها حزينون جداً لتعرضهم لمثل هذا العار! أعتقد أنني سأموت من الألم إذا ما تلقت ابنتي مثل هذه المعاملة. وداعاً.

من قصر فاطمة، في التاسع من شهر جمادى الأولى من عام 1714

الرسالة الحادية والسبعون

من أوزبك إلى زيليس

إنني أشفق على سليمان، على قدر الشر الذي لا خلاص له منه، صهره لم يستغل إلا حرية القانون. أرى أن هذا القانون جائر جداً، فهو يُعرّض شرف العائلات لأهواء المجانين. من الضلال القول إن لدينا أدلة معينة من أجل بلوغ الحقيقة، إنه خطأ قديم عاد ليسود عندنا اليوم، فأطباؤنا قدموا حُججاً لا تُقهر من أجل دحض هذه الأدلة. ولا أحد من الناس بمن فيهم المسيحيون يعتبرونها أوهاماً، على الرغم من أنها مذكورة بوضوح في كتبهم المقدسة، وقد ربط مُشَرّعهم[1] الأقدم بينها وبين براءة أو إدانة جميع الفتيات.

إني أعلم بسرور الرعاية التي تُربي بها ابنتك. وأرجو الله أن يراها زوجها جميلة ونقية مثل فاطمة،[2] وأن يكون لها عشرة خصيان لحراستها. أتمنى أن تكون شرفاً وزينة للقصر الذي أُعد لها، وألا يعلو رأسها إلا سُقف مزخرفة بالذهب، وألا تمشي إلا على أفخم السجاد! وأقصى ما أتمنى أن تراها عيني بكامل مجدها.

من باريس، في الخامس من شهر شوال من عام 1714

---

(1) موسى، من سفر التثنية، المقطع 22.

(2) أعلاه، الرسالة الأولى، رقم 1.

الرسالة الثانية والسبعون

من ريكا إلى إيبين في...

كنت في أحد الأيام بين جماعة من الناس حيث رأيتُ رجلاً معجباً جداً بنفسه. في ربع ساعة أدلى برأيه القاطع في ثلاثة قضايا أخلاقية وأربع مشكلات تاريخية وخمس مسائل فيزيائية. لم أرَ في حياتي قط إنساناً يُقرر مثله (قادراً على صنع قرارات شاملة كهذه si universel)،[1] فعقله لا يقف أمام أي شك.

تركنا العلوم، وأخذنا نتحدث عن مستجدات الأخبار، أعطى قراره بخصوصها. فأردت أن أتصيده، وقلت لنفسي: يجب أن أكون في أمان، سوف ألجأ إلى الحديث عن وطني. حدثته عن بلاد فارس. لكنني بالكاد تفوهت بأربعة كلمات حتى خالفني مرتين بناءً على رحلتي السيدين تافرنيه وشاردان.[2] فقلت لنفسي: الرحمة يا إلهي! أي رجل هذا؟ سيعرف حالًا شوارع أصفهان أفضل مني! خسرت حيلتي فالتزمت الصمت، وتركته يعود إلى كلامه وقراراته.

من باريس، في الثامن من شهر ذي القعدة من عام 1715

---

(1) كلمة اخترعها مونتسكيو يصف بها الإنسان الذي يقرر في كل شيء.

(2) تافيرنيه 1605 ـ 1689 (Tavernier) وشاردان 1643 ـ 1713 (Chardin) الرحالان المشهوران في بلاد فارس، واللذان ما تزال تُقرأ قصصهما باهتمام حتى اليوم، ومن هذين الكتابين استمد مونتسكيو معارفه ببلاد فارس.

الرسالة الثالثة والسبعون

من ريكا إلى...

لقد سمعت عن نوع من المحكمة يسمى الأكاديمية الفرنسية. لا يوجد هيئة في العالم أقل احتراماً منها، حيث يقال إنها بمجرد أن تقرر أمراً حتى يسارع الشعب إلى مخالفته وفرض قوانينه التي يجب عليها اتباعها.

منذ فترة، ومن أجل إثبات سلطتها، أصدرت مجموعة قرارات.[1] كانت بها كالطفل الذي وِلِد كبيراً في السن لعديد الآباء، ومع أنه كان شرعياً، إلا أن لقيطاً[2] ظهر وكاد يخنقه حين ولادته.

أولئك الذين تتألف منهم الأكاديمية ليس لديهم وظيفة أخرى سوى الثرثرة المستمرة، حتى إنهم يمدحون أنفسهم بفعل هذا الهذيان الأبدي، وبمجرد أن يبدؤوا ألغازهم، يصيبهم جنون مدح الذات فلا يتركهم أبداً.

لهذه الأكاديمية أربعون رأساً (عضواً)، كلها مملوءة بالاستعارات والمجازات والتضاد. أفواه كثيرة تنطق فقط بعبارات العجب وآذان تريد دائماً أن تطرب بالإيقاع والتناغم. أما العيون، فمما لا جدال فيه أنها خلقت

---

(1) معجم الأكاديمية.

(2) معجم فورتيير (Furetière) المنشور في مجلدين، لدار folio ـ in. طُرد المؤلف من الأكاديمية عام 1685 لاتهامه باستغلال أعمال زملائه من أجل تأليف القاموس العالمي الذي يحمل اسمه.

لتتحدث وليس لترى. ليس لحالها ثبات. فالزمن الذي هو بلاؤها يهزها في كل وقت ويقضي على كل ما صنعته. قيل سابقاً إن أعضاءها جشعون. لن أخبرك أكثر حول هذا الموضوع، وسأدع لمن يعرفونها أفضل مني أن يقرروا بخصوصها.

تلك أشياء غريبة يا... لا نراها في بلادنا فارس. لم تتوجه عقولنا إلى مؤسسات فريدة وغريبة كهذه، نسعى دائماً إلى كل ما هو فطري في عاداتنا البسيطة وأساليبنا الساذجة.

من باريس، في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام 1715

الرسالة الرابعة والسبعون

من أوزبك إلى ريكا في...

قبل بضعة أيام قال لي رجل من معارفي: لقد وعدتك بأن أقدمك في بيوت باريس الراقية، سأصحبك الآن إلى بيت سيد عظيم، وهو أحد رجالات الدولة الكبار.

قلت: ماذا يعني ذلك يا سيدي؟ أهو أكثرهم أدباً، وألطف من الآخرين؟ قال لي: لا. فقلت: حسناً لقد فهمت، إنه يجعلك تشعر، في جميع الأوقات، بتفوقه على كل من يقترب منه. إذا كان الأمر كذلك، فلا بد من الذهاب إليه، لأمنحه ذلك وأتلقى الإدانة.

مَشَينا إليه، فرأيت رجلاً قصير القامة مزهواً بنفسه، يُدخن بتعالٍ، يتمخط بشدة، يبصق البلغم ويداعب كلابه بطريقة مهينة كرجل تجعلني لا أستطيع احترامه. قلت لنفسي: لو كنت أتصرف هكذا في بلاط فارس لبدوتُ شديد الحُمق. يجب، يا ريكا، أن تكون طبيعتنا سيئة للغاية حتى نوجه مئة إهانة إلى الناس الذين يأتون إلى منزلنا كل يوم ليظهروا لنا عطفهم. إنهم يعرفون جيداً أننا نعلوهم. ولو كانوا يجهلون ذلك، لَعَلَّمَتْهُم إياه محاسننا كل يوم. لم يكن لدينا ما نفعله لجعلهم يحترموننا، لذلك نقوم بكل شيء لنجعل أنفسنا محبوبين، لقد تواصلنا مع الأقل شأناً. في وسط العظمة التي

تجعلنا أقسى، وَجَدُونا حساسين، لم يروا سوى علوّ مشاعرنا، نزلنا إلى مستوى احتياجاتهم. ولكن عندما كان من الضروري دعم جلالة الأمير في الاحتفالات العامة، وتمجيد الأمة أمام الأجانب، عندما كان من الضروري أخيراً، وفي مناسبات محفوفة بالمخاطر، تحفيز الجنود، ارتقينا مئة مرة أكثر مما هبطنا، الكبرياء على وجوهنا، وكان هناك شعور في بعض الأحيان بأننا ظهرنا بشكل جيد إلى حد ما.

من باريس، في العاش+ر من شهر صفر من عام 1715

الرسالة الخامسة والسبعون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

يجب أن أعترف لك أنني لم ألحظ عند المسيحيين اليقين الحي بدينهم كالذي نراه عند المسلمين. هناك اختلاف كبير بين اعتناق الدين والإيمان به، وبين الإيمان والاقتناع، ثم بين الاقتناع والعمل به. الدين عندهم ليس موضوع تقديس بقدر ما هو موضوع خلاف يجادل به الجميع. ينتفض أهل البلاط، رجال الحرب وحتى النساء ضد رجال الدين، طالبين منهم البرهان على ما صمموا ألا يؤمنوا به. وليس رفضهم لهذا الدين قائماً على تفكير، فلم يتحملوا عناء البحث فيه إن كان حقاً أو باطلاً، إنهم متمردون شعروا بالنير فأرادوا الخلاص منه قبل أن يعرفوه. لذا فهم ليسوا راسخين في شكهم أو إيمانهم، إنهم يعيشون بين مد وجزر ينقلهم باستمرار من حال إلى أخرى. قال لي أحدهم ذات يوم: أنا لا أُومن بخلود الروح إلا في فترات: تعتمد آرائي تماماً على حالة جسدي، على نشاطي الجنسي، على معدتي إن كانت تهضم بشكل جيد أو سيئ، على الهواء الذي أتنفسه إن كان رقيقاً أو غليظاً، على اللحوم التي أتناولها إن كانت خفيفة أو ثقيلة، أنا على فلسفة سبينوزا مرة وعلى مذهب سوسين مرة أخرى، كاثوليكي أحياناً، كافر أو ورع. إذا ما كنت على فراش المرض، سيجدني كاهن الاعتراف في صَفّه. بالمقابل أعرف جيداً كيف أمنع الدين من إزعاجي عندما أكون

بصحة جيدة. لكنني أسمح له بأن يُعزيني عندما أمرض، وعند فِقدان الأمل في شيء يتقدم الدين نحوي حاملاً وعوده فيجذبني إليه مستسلماً ساعياً إلى الموت في جانب الطمأنينة.

لقد حرر الأمراء المسيحيون منذ زمن بعيد كل العبيد في دولهم، قائلين إن المسيحية تجعل جميع الناس سواسية. إن هذا التصرف الديني كان مفيداً للغاية بالنسبة إليهم: فقد خفضوا بذلك من شأن الأسياد بأن سلبوهم سلطتهم على العوام. فقام هؤلاء بالفتوحات في البلدان التي رأوْا أنها تخدم مصلحتهم حيث يمكنهم امتلاك عبيد فيها،[1] وتسمح ببيعهم وشرائهم، متناسين المبدأ الديني الذي قوض سلطانهم.

ماذا تريدني أن أقول؟ الحقيقة في حين قد تكون باطلاً في حين آخر. أفلا نفعل ما يفعله المسيحيون؟ إننا بُسطاء جداً إلى درجة أننا نرفض المستوطنات والفتوحات السهلة في أجواء ملائمة[2] لنا، لأن الماء هناك ليس نقياً بما يكفي لكي نغتسل وفقاً لمبادئ القرآن الكريم.

من باريس، في الثالث عشر من شهر صفر من عام 1715

---

(1) المستعمرات.

(2) لا يهتم المسلمون بفتح البندقية، فلن يجدوا فيها ماءً لطهارتهم (مونتسكيو).

الرسالة السادسة والسبعون[1]

من أوزبك إلى صديقه إيبين في إزمير

إن القوانين في أوروبا صارمة ضد أولئك الذين ينتحرون. يقتلهم الناس مرة ثانية إذا جاز التعبير. يُجَرُّون بسخط في الشوارع، يُوسَمون بالعار وتُصادَر ممتلكاتهم.

يبدو لي، يا إيبين، أن هذه القوانين ظالمة للغاية. عندما يغمرني الألم والبؤس والازدراء، لماذا يريدون منعي من وضع حد لآلامي، وحرماني بقسوة من العلاج الذي في يدي؟

لماذا يريدون مني أن أعمل لمجتمع قبلت التخلي عنه؟ أن ألتزم باتفاقية عُقِدَت بدوني؟ يقوم المجتمع على أساس المنفعة المتبادلة، ولكن عندما يثقل عليّ مَن يمنعني من التخلي عنه؟ مُنحت لي الحياة كنعمة، لذا يمكنني ردها عندما لن تعود كذلك، لقد زال السبب، لذلك يجب أن تزول النتيجة أيضاً.

هل يريد الأمير أن أكون من رعيته وأنا غير مستفيد من مزايا سلطانه عليَّ؟ هل يستطيع أخوتي المواطنون أن يطلبوا هذه المشاركة الجائرة

---

(1) نجد هذا الدفاع عن الانتحار في «ملاحظات حول عظمة الرومان»، المقطع الثامن (في النهاية). «روح الشرائع» الكتاب 14.

لخيراتهم مع يأسي؟ هل يرضى الله الذي يفوق كرمه كل المحسنين، أن أقبل النعم التي ترهقني؟

أنا ملزم باتباع القوانين ما دمت أعيش تحت مظلتها، لكن عندما تنتهي حياتي، أما زال بإمكانها تقييدي؟

لكن سيقال: إنك تُخِلّ بالنظام الإلهي. فقد جمع الله بين روحك وجسدك وها أنت تفصلهما. فأنت تعارض أقداره وتقاومه.[1]

ماذا يعني ذلك؟ هل أُخل بترتيب العناية الإلهية عندما أغير تركيب المادة، وأُرَبِّع الكرة التي كانت قوانين الحركة الأولى، أي قوانين الخلق والحفظ، قد جعلتها مستديرة؟ لا، بلا شك. أنا فقط أستفيد من الحق الممنوح إليّ، وبهذا المفهوم، يمكنني أن أسبب اضطراباً في الطبيعة بأسرها حسب أهوائي، دون أن يكون مسموحاً القول إنني أعارض العناية الإلهية.

هل سيُحدث انفصال روحي عن جسدي خللاً في نظام وترتيب الكون؟ أتعتقد أن هذا النسق الجديد أقل كمالاً وأقل التزاماً بالقوانين العامة؟ أن العالم فقد شيئاً، وأنَّ خَلْقَ الله أقل عظمة، أو بالأحرى أقل اتساعاً؟

هل تعتقد أن جسدي إنْ أصبح سنبلةَ قمح، أو دودة، أو عشباً، قد يتحول إلى عمل من أعمال الطبيعة الأقل شأناً؟ وأن روحي التي تحررت من كل ما فيها صارت أقل سمواً؟

---

(1) هذا هو الاعتراض الحقيقي. أوزبك لا يرد. نعم إن أعطاك الله الحياة فمن أجل أداء واجباتك وليس التخلي عنها. أن نقول إن الروح بمجرد انفصالها عن الجسد، فإن النسق الجديد لن يكون أقل كمالاً أو أقل اعتماداً على القوانين العامة، هو تأكيد مادي يدمر كل الأخلاق. وبنفس المنطق يمكن تبرير القتل.

كل هذه الأفكار يا عزيزتي إيبين ليس لها مصدر آخر إلا غرورنا. نحن لا نشعر بضآلتنا. وعلى الرغم من ذلك فإننا نريد أن نكون ذوو مكانة في الكون، وأن نبرز فيه، وأن نكون شيئاً مهماً. نحن نتخيل أن انعدام كائن على قدر من الكمال مثلنا من شأنه أن يحط من قدر الطبيعة بأكملها، ولا نُحصي إنساناً واحداً أقل أو أكثر في العالم، ماذا أقول؟ كل الناس جميعاً، ومئة مليون رأس مثلنا، ليسوا سوى ذرة دقيقة لا يدركها اللّه إلا بواسع معرفته.

من باريس، في الخامس عشر من شهر صفر من عام 1715

الرسالة السابعة والسبعون[1]

من إيبين إلى أوزبك في باريس

يبدو لي يا عزيزي أوزبك أن المصائب بالنسبة إلى مسلم حقيقي هي إنذار أكثر منها عقاب. إنها أيام ثمينة تلك التي تدفعنا إلى التكفير عن الذنوب. لذلك فإن وقت الرخاء يجب اختصاره. ما جدوى كل هذا التلهف، إلا لإظهار أننا نحب أن نكون سعداء بمعزل عن مانح هذه السعادة، لأنه هو البهجة نفسها؟

لو أن الكائن يتكون من كائنين، وضرورة الحفاظ على هذا الاتحاد تشير أكثر إلى الخضوع لأوامر الخالق، لأمكن للمرء أن يجعل منه قانوناً دينياً، إذا كانت ضرورة الحفاظ على الاتحاد هي الضامن الأفضل لأفعال الناس، لَتَمَكَّنا من جعله قانوناً مدنياً.

من إزمير، في آخر أيام من شهر صفر من عام 1715

(1) أُدرِجَت الرسالة في طبعة 1715، لتصحيح أو على الأقل لتعويض ما يوجد من مبالغة في الرسالة السابقة.

الرسالة الثامنة والسبعون

من ريكا إلى أوزبك في...

أرسل لك نسخة من رسالة كتبها هنا فرنسي موجود في إسبانيا، أعتقد أنك ستكون سعيداً برؤيتها.

منذ ستة أشهر وأنا أسافر عبر إسبانيا والبرتغال، وأعيش بين أناس يحتقرون كل الآخرين، لكنهم يشرفون الفرنسيين بخالص كرههم.

إن الجاذبية هي السمة الرائعة لكلا الأمتين: فهي تتجلى بشكل أساسي بطريقتين: من خلال النظارات ومن خلال الشارِب.

تدل النظارة على أن من يرتديها هو رجل بارع في العلوم، وغارق في قراءات عميقة إلى درجة أن بصره قد ضعف، وكل أنف مزين بها أو يحملها يمكن أن يُقال عنه بلا أدنى شك إنه أنف عالم.[1]

---

(1) «منذ مدة من الزمن، كان لدى اليعاقبة جلسة محاكمة للنطق بالحكم الأخير، لقد كانوا خائفين من الحدث بما يكفي لعدم إهمال أي شيء. كان لأبٍ شابّ في دَيرهم آباء من الدرجة الأولى طلبوا صلاته بقوة. أكد له رئيس الدير أنه لن يرد له طلباً مقابل معروفه في حال كُسِبت القضية بمعيته. أخيراً كُسبت القضية. ركض الأب الشاب، المهتاج فرحاً، لينقل الخبر... قال له الرئيس، بعد أن عانقه، بنبرة جادة: أخي، ارْتَدِ نظارتك. ملأ هذا الإذن الراهبَ الشاب بالشرف والفرح، وجد أنه قد كوفِئ جيداً مقابل صنيعه ولم يطلب شيئاً أكثر».

«كان الماركيز أستورجا، بصفته نائباً لملك نابولي، قد صنع تمثالاً نصفياً له من الرخام،

أما الشارب فهو محترم في حد ذاته وبعيد عن العواقب، على الرغم من إمكانية الاستفادة منه في بعض الأحيان، لخدمة الأمير وشرف الأمة، كما رأينا من جنرال برتغالي شهير كان في بلاد الهند،[1] حيث وجد نفسه بحاجة إلى المال، قص أحد شاربيه، وأرسل ليطلب من سكان جُوا عشرين ألف قطعة ذهبية مقابل هذا الرهن، فأقرضوه وبعد ذلك استرد شاربه مُكرماً.

من السهل ملاحظة أن الشعوب الرزينة الباردة، مثل هذين الشعبين، لديها قدر من الغرور. وعادة ما يقوم هذا الغرور على شيئين مهمين للغاية: أولئك الذين يعيشون في إسبانيا والبرتغال يشعرون بسمو شديد بما أنهم يُلقبون بالمسيحيين القدامى، أي إنهم ليسوا من أولئك الذين أقنعتهم محاكم التفتيش في القرون الأخيرة باعتناق الديانة المسيحية. وهؤلاء الذين يعيشون في بلاد الهند ليسوا بأقل غروراً، فهم يعتبرون أن لديهم ميزة سامية تدفعهم إلى ذلك كما يزعمون، وهي بشرتهم البيضاء.

لم يكن هناك أبداً، في قصر سيد عظيم، سلطانة فخورة جداً بجمالها مثل رجل عجوز قبيح، بشرته في بياض الزيتون، جالس على عتبة باب منزله معقود الذراعين، عندما كان في إحدى مدن المكسيك. رجل بهذه

ولم يفُتْهُ وضع نظارته الجميلة عليه. من الشائع حملها إلى درجة أنني سمعت أن هناك اختلافات في النظارات كما في الرتب. بما يتناسب مع حجم ثروة من يحملها، بأن يكون حجم العدسات أكبر، ويعلو ارتفاعها على الأنف. نبلاء إسبانيا يرتدونها بحجم اليد، تسمى ocales لتمييزها. لقد علّقوها على آذانهم ولا ينزعونها إلا حين ينزعون ياقاتهم (*)... لقد لاحظت أشخاصاً ذوي مكانة عالية في عرباتهم، أحياناً بمفردهم، وأحياناً بصحبة آخرين، أنوفهم محملة بالنظارات، إنهم مخيفون حسب رأيي». الرسالة الثامنة، في التاسع والعشرين من آذار لعام 1679. * المقصود هو الياقة المنشاة.

(1) جان دو كاسترو (مونتسكيو).

الحال، وعلى هذا القدر من الكمال، لن يعمل من أجل كل كنوز العالم، ولن يرضى أبداً بالمساومة على شرف وكرامة بشرته من أجل مهنة ميكانيكية حقيرة.

فمن المعروف أنه عندما يكون للرجل ميزة معينة في إسبانيا، على سبيل المثال، عندما يمكنه أن يضيف إلى الصفات التي تكلمتُ عليها للتو امتلاكه سيفاً عظيماً، أو أنه تعلم من والده فن ضبط القيثارة، فلن يعمل أبداً، وعزه يكمن في الاهتمام براحة أعضائه. مَن يجلس لمدة عشر ساعات في اليوم يَنَلْ بالضبط ضعف احترام الشخص الذي يجلس لمدة خمس ساعات فقط، فعلى الكراسيّ تُكتسب النبالة.

ولكن، مع أنهم أعداء لا يقهرون للعمل ويظهرون هدوءاً فلسفياً، فإن قلوبهم خالية من هذه الطمأنينة، لأنهم دائماً عشاق. إنهم أكثر رجال العالم استعداداً للموت اشتياقاً تحت نوافذ عشيقاتهم، والإسباني الذي لم يعانِ من الزكام في غرامه ليس بأهلٍ للغزل.

إنهم مخلصون أولاً، وغيورون ثانياً. سيحرصون على عدم تعريض نسائهم لخدمة جندي مملوء بالجروح، أو لحاكم هرم، لكنهم سيحبسونهن مع راهب مبتدئ متحمس يخفض عينيه، أو فرنسيسكاني قوي يهتم بهن.

سيسمحون لزوجاتهم بالظهور بصدر مكشوف، لكنهم لا يريدون لأحد أن يرى كعوبهن أو يختلس النظر إلى أصابع أقدامهن.

يقال في كل مكان إن آلام الحب قاسية، وإنها أكثر من ذلك بالنسبة إلى الإسبان. فالنساء لا يشفينهم من أوجاعهم. لكنهن فقط يبدلن آلامهم بآلام أخرى. وغالباً ما يتبقى لديهم ذاكرة طويلة ومؤلمة عن شغف خفت بريقه.

إن لديهم مجاملات صغيرة تبدو، في فرنسا، في غير محلها، على سبيل المثال لا يضرب النقيب جنديه أبداً دون طلب إذنه، ولا تحرق محاكم التفتيش يهودياً أبداً دون أن تقدم له اعتذارها.

يبدو أن الإسبان الذين لم يُحرَقوا مرتبطون بمحاكم التفتيش إلى درجة أنهم يسخطون إن حُرموا منها. أنا فقط أريد محكمة أخرى، ليس ضد الهراطقة، بل ضد المبتدعين الذين ينسبون إلى الممارسات الرهبانية الصغيرة قوة الأسرار السبعة، الذين يعبدون كل ما يمجدونه، والمتدينون إلى درجة أنهم بالكاد مسيحيون.

يمكنك أن تجد الذكاء والحس السليم بين الإسبان، لكن لا تبحث عنهما في كتبهم. انظر إلى إحدى مكتباتهم، ستجد الروايات من جهة، والمناهج المدرسية من الجهة الأخرى، يمكنك القول إن الأجزاء قد اكتملت، وأن عدواً خفياً للعقل البشري قد جمعها.

الكتاب الوحيد الجيد من كتبهم هو الذي يُظهر مهازل جميع كتبهم الأخرى.[1]

لقد حققوا اكتشافات هائلة في العالم الجديد، في حين أنهم لا يعرفون بَعد قارتهم نفسها، على أنهارهم جسر لم يكتشفوه بعد، وفي جبالهم أقوام ما زالت مجهولة.[2]

---

(1) في كتابه دون كيخوته، سخر سرفانتس من كتب الفروسية. لكن من الخطأ الاعتقاد بأن الإسبان ليس لديهم أدب آخر غير الآماديين. يجب ألا ننسى مسرحهم، الذي كان بمثابة نموذج لبيير كورني.
رأي مونتسكيو كان عمومياً في القرن الثامن عشر. «ماذا تعلمنا روايات الفروسية هذه؟ دون كيخوته وحده، هذا الكتاب الرائع الذي فضله سان إيفرموند على جميع الكتب في العالم، ألم يدمرها جميعاً؟» ماريه، الصفحة 339.

(2) الباتويكاس: مجرد فكرة خرجت من عقل جميل ما كان ينبغي لمونتسكيو أخذها على محمل الجد.

يقولون إن الشمس تشرق وتغرب في بلادهم، لكن يجب أيضاً القول إنها في سيرها هذا لا تصادف سوى الأرياف الخربة والمناطق المهجورة.

لن يزعجني، يا أوزبك، أن أرى رسالة كتبها في مدريد إسباني كان مسافراً في فرنسا، أعتقد أنه سينتقم جيداً لأمته. يا له من مجال واسع لرجل بارد مفكر! أتخيل أنه سيبدأ وصف باريس هكذا:

يوجد منزل هنا يضعون فيه المجانين: قد تعتقد في البداية أنه الأكبر في المدينة، لا، فالعلاج قليل جداً بالنسبة إلى المرض. لا شك أن الفرنسيين، الذين ينتقدهم جيرانهم بشدة، يحبسون بعض المجانين في منزل، لإقناع أولئك الذين بالخارج بأنهم ليسوا كذلك.

أكتفي إلى هنا مَن إسبانيا، الوداع عزيزي أوزبك.

من باريس، في السابع عشر من شهر صفر من عام 1715

الرسالة التاسعة والسبعون

من كبير الخصيان الأسود إلى أوزبك في باريس

جلب الأرمن أمسِ إلى القصر جارية شركسية يودون بيعها. أدخلتها إلى الشقق السرية. جردتها من ملابسها وفحصتها بتمعن. وكلما فحصتها أكثر، وجدت فيها مفاتن كثيرة. يبدو أن حياءها العذري أراد أن يخفي مفاتنها عن عيني، لقد رأيتها تكابد لطاعتي، احمَرَّت خجلاً لرؤية نفسها عارية، حتى أمامي، أنا المُعْفَى من العواطف التي يمكن أن توقظ الحياء، فأنا جامد أمام سطوة هذا الجنس، ومحتشم جداً في أفعالي الحرة، نظراتي عفيفة، ولا أستشعر إلا البراءة.

وبمجرد أن رأيتها جديرة بك، أخفضت عيني، رميت عليها عباءة قرمزية، وضعت خاتماً ذهبياً في إصبعها، وسجدت عند قدميها كأنها مليكة قلبك. دفعت للأرمن ثمنها. ثم أخفيتها عن كل العيون. يا أوزبك السعيد! إن لديك من الجمال أكثر مما في كل قصور الشرق.

يا له من سرور أن تجد عند عودتك، كل ما يمكن أن يسحر بلاد فارس! وأن ترى المفاتن تتجدد في القصر الخاص بك، كلما حاول الزمن والمُلكية القضاء عليها.

من قصر فاطمة، في الأول من شهر ربيع الأول من عام 1715

الرسالة الثمانون

من أوزبك إلى رضي[1] في البندقية

منذ أن كنت في أوروبا، يا عزيزي رضي، رأيت العديد من الحكومات. ليس الأمر كما هو الحال في آسيا، حيث أصول السياسة هي نفسها في كل مكان.

لقد تساءلت كثيراً عن الحكومة الأكثر توافقاً مع المنطق. بدا لي أن الأكمل هي التي تبلغ أهدافها بأقل التكاليف، بحيث تقود الناس بالطريقة التي تناسب ميولهم وأهوائهم.

إذا كان الناس خاضعون لحكومة رشيدة، كما هو الحال في حكومة قاسية، فإن الأولى هي الأفضل، لأنها أقرب من العقل، في حين تبدو الشدة أسلوباً غريباً.

ضع في حسبانك يا عزيزي رضي أن قسوة العقوبات أو لينها في دولة

---

(1) هذه الرسالة، التي يكشف فيها مؤلف «روح الشرائع» عن نفسه بالكامل، ألهمت بيكاريا بالفكرة الرئيسية في أطروحته حول الجرائم والعقوبات، التي نُشرت في ميلانو عام 1764. انظر على وجه الخصوص الفصل الخامس عشر، ورسالة بيكاريا إلى موريليه: (منذ خمسة أعوام فقط) في عام 1770. بالنظر إلى تحولي إلى الفلسفة، فأنا مدين لقراءة الرسائل الفارسية. بيكاريا والقانون الجنائي، مقال بقلم كانتو، في فلورنسا. 1862، الصفحة 68. روح الشرائع، الكتاب السادس، المقاطع 9 و12.

من الدول لا تؤدي إلى مزيد من الطاعة للقوانين. ففي البلدان التي تكون فيها العقوبات معتدلة، يُخشى منها كما هو الحال في تلك التي تكون عقوباتها مستبدة ورهيبة.

سواء كانت الحكومة لينة أو قاسية، فالعقاب يكون على درجات، فتُفرَض العقوبة الكبرى للجريمة الكبرى أو أقل على جريمة أقل. حتى تقدير العقوبة ينحني لأعراف البلد الذي نعيش فيه. ثمانية أيام من السجن، أو غرامة خفيفة، تزعج الأوروبي الذين نشأ في بلد ذي حكم رفيق بقدر ما يثير فزع الآسيوي قطع ذراعه. إنهم يربطون درجة الخوف بدرجة الألم، ويتلقاها كل واحد بطريقته الخاصة: فالخوف من العار الذي يصيب فرنسياً محكوماً عليه قد لا يؤرق نوم تركيٍّ لربع ساعة.[1]

إلى جانب ذلك، لا أرى أن النظام والعدالة والإنصاف تُراعى بشكل أفضل في تركيا وفارس وبلاد المغول، منها في جمهوريات هولندا والبندقية وفي إنجلترا نفسها، ولا أرى أنهم يرتكبون عدداً أقل من الجرائم هناك، وأن الناس أكثر خضوعاً للقوانين لأنهم خائفون من شدة العقوبات.

على العكس من ذلك، ألحظ مصدراً للظلم والاضطراب في وسط هذه الدول نفسها. وأجد الملك الذي هو مصدر القانون، أقل سيادة منه في بلدان أخرى.

أرى أنه في الأوقات العصيبة، هناك دائماً حركات فوضى لا يتزعمها أحد، وعندما تُحتَقَر السلطة القوية، لن يعود أحد قادر على استعادتها.

---

(1) روح الشرائع، الكتاب السادس، المقطع 12: «دعونا نتبع الطبيعة التي منحت الناس الخجل كبلاءٍ لهم، وأن الجزء الأكبر من الألم هو العار من المعاناة».

إن الإفلات من العقاب يؤكد الفوضى ويزيدها. ولا وجود لتمرد صغير في هذه الدول، حيث لا فاصل يُذكر بين التذمر والفتنة.

تلك الحوادث الكبيرة لا تحتاج إلى أسباب عظيمة، على العكس من ذلك، فإن أدنى حادث ينتج ثورة كبيرة، لن يتوقعها أولئك الذين يصنعونها ولا أولئك الذين يعانون منها.

عندما أُطيح[1] بعثمان، إمبراطور الأتراك، لم يفكر أي من أولئك الذين ارتكبوا هذا الجُرم في ارتكابه، لقد طلبوا فقط، متوسلين، تحقيق العدالة لهم في ظلمِ أصابهم، فخرج صوت لم يكن معروفاً أبداً من بين الحشد عن طريق الصدفة. نُطق باسم مصطفى وفجأة أصبح مصطفى إمبراطوراً.

من باريس، في الثاني من شهر ربيع الأول من عام 1715

---

(1) في عام 1622.

الرسالة الحادية والثمانون

من نارجوم مبعوث فارس في موسكو إلى أوزبك في باريس

من بين جميع دول العالم، يا عزيزي أوزبك، ما من دولة تجاوزت أمم التتار بالمجد أو بحجم الفتوحات. هذا الشعب هو الحاكم الحقيقي للكون، ويبدو أن كل الشعوب الأخرى قد خُلقت لخدمته، وهو أيضاً مؤسس الإمبراطوريات ومدمرها، وفي كل الأزمان أظهر علامات جبروته على الأرض، لقد كان بلاء الأمم في كل العصور.

لقد قهر التتار الصين مرتين، وما زالت تحت سلطانهم. وهم مسيطرون على البلدان الشاسعة التي تشكل إمبراطورية المغول.

تسَيَّدوا بلاد فارس، فجلسوا على عرش قورش وغوستاسبي[1] وأخضعوا الروس. وتحت راية الأتراك، قاموا بغزوات هائلة في أوروبا وآسيا وإفريقيا. وهم يحكمون هذه الأجزاء الثلاثة من الكون.

وإن تحدثنا عن الماضي البعيد، فقد خرجت منهم بعض الشعوب التي أطاحت بالإمبراطورية الرومانية.[2]

ما هي فتوحات الإسكندر بالمقارنة مع فتوحات جنكيز خان؟ ولا

(1) الرسالة 67.

(2) الهانز (Les Huns): هم قوم رُحل ينتمون إلى المغول.

ينقص هذه الأمة المنتصرة إلا المؤرخون من أجل الاحتفاء بذكرى عجائبها.

كم من الأعمال الخالدة دفنت في طي النسيان! كم من الإمبراطوريات أسسوها، ولا نعرف أصلها! لم تفكر هذه الأمة المحاربة، المشغولة فقط بمجدها الحاضر، والمؤكد أنها ستنتصر في جميع الأزمان، بأن تشير إلى نفسها في المستقبل بذكرى فتوحاتها الماضية.

من موسكو، في الرابع من شهر ربيع الأول من عام 1715

الرسالة الثانية والثمانون

من ريكا إلى إيبين في إزمير

على الرغم من أن الفرنسيين يتحدثون كثيراً، فإنه يوجد بينهم نوع من الرهبان قليل الكلام من أتباع القديس برونو. يقال إنهم قطعوا ألسنتهم عند دخولهم الدير، وكم يتمنى الناس أن يترفع جميع الرهبان الآخرين أيضاً عن كل ما يجعل مهنتهم غير مجدية.

عند الحديث عن هؤلاء الصامتين، هناك بعض الأشخاص الذين يتسمون بالصمت أكثر منهم، والذين لديهم موهبة غير مألوفة أبداً. هم الذين يعرفون كيف يتكلمون دون أن يقولوا شيئاً، والذين يستمتعون بمحادثة لمدة ساعتين، دون أن يكون حديثهم مفهوماً،[1] أو قابلاً للنقل أو حفظ كلمة مما قالوه.

هذا النوع من الناس تعشقه النساء. لكنهم ليسوا مثل أولئك الذين منحتهم الطبيعة موهبة لطيفة هي الابتسام في الوقت المناسب، أي في كل لحظة، والذين يملكون نعمة قبول كل ما تقوله النساء بسعادة.

لكنهم يبلغون أوج ذكائهم عندما يعرفون كيف يفهمون كل شيء بلباقة، ويجدون في الأشياء المألوفة مزايا صغيرة غاية في البراعة.

---

(1) تخمين.

أعرف من الناس أشخاصاً يعرفون جيداً كيف يُدخلون أشياءَ فارغة في أحاديثهم، يتكلمون على معاطفهم المطرزة، والشعر المستعار الأشقر، وعلب التبغ، وعصيّهم، وقفازاتهم. من الممكن أن يبدأ أحدهم حديثه عن الشارع وضجيج العربات والمطرقة التي تدق على الباب، لكي يصغي الناس إليه، هذه المقدمة تدلنا على بقية الحديث، وعندما تكون البداية جميلة، فإنها تجعل من كل الهراء الذي يأتي لاحقاً قابلاً للاحتمال، لكنه ولحسن الحظ يأتي متأخراً جداً.

أؤكد لك أن هذه المواهب الضئيلة، التي لا يوجد أي اعتبار لها عندنا، تُفيد كثيراً أولئك الذين يمتلكونها، وأن الرجل الوقور لا يُرى أبداً في حضور أولئك الناس.

من باريس، في السادس من شهر ربيع الثاني من عام 1715

الرسالة الثالثة والثمانون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

إذا كان هناك إله، يا عزيزي رضي، فلا بد أن يكون عادلاً بالضرورة، لأنه إن لم يكن كذلك، لكان أسوأ الكائنات وأكثرها نقصاً.

العدالة في الواقع علاقة مصلحة بين شيئين، وهذه العلاقة هي نفسها دائماً، بغض النظر عن الكائن الذي يقدرها، سواء كان إلهاً، أو ملاكاً، أو إنساناً.[1]

والحقيقة أن الناس لا يرون دائماً هذه العلاقات، وفي كثير من الأحيان حتى عندما يرونها، فإنهم يبتعدون عنها، لأنهم يفضلون مصلحتهم. والعدالة ترفع صوتها، لكنها تعاني في جعل نفسها مسموعة وسط صخب الأهواء.

يمكن للناس أن يقترفوا ظلماً لأن لهم في ذلك مصلحة، فهم يفضلون إرضاء أنفسهم على رضا الآخرين. إنهم يتصرفون دائماً نسبةً إلى ما يعود عليهم بالنفع، فما من شرير بلا مقابل، يجب أن يكون هناك سبب يحدد السلوك، وهذا السبب دائماً هو المصلحة الذاتية.

---

(1) روح الشرائع، الكتاب 1، الفصل 1.

لكن لا يمكن أبداً أن يرتكب الله ظلماً. بمجرد أن نفترض أنه يرى العدالة، فهو بالضرورة يتبعها، وبما أنه لا يحتاج إلى شيء ومكتفٍ بذاته، كان ليكون أكثر الكائنات شراً، لو كان بلا منفعة ذاتية.

لذلك، حتى لو لم يكن هناك إله، يجب أن نكون محبين للعدل، وهذا يعني أن نبذل جهدنا للتشبه بهذا الكائن الذي لدينا عنه مثل هذه الفكرة الجميلة، والذي إن كان موجوداً، فسيكون بالضرورة عادلاً. قد نكون أحراراً من نَيْر الدين، لكن لا ينبغي أن نكون أحراراً من نَير العدالة.

وهذا يا رضي ما جعلني أعتقد أن العدالة أبدية ولا تعتمد على الأعراف البشرية. ولو اعتمدت عليها، لكانت حقيقة مروّعة عليها أن تتلاشى من تلقاء نفسها.

نحن مَحُوطون بأناس أقوى منا. يمكنهم أذيتنا بألف طريقة، وفي معظم الحالات، يمكن أن يفعلوا ذلك دون عقاب، راحتنا تكمن في معرفة أن لنا في قلوب كل هؤلاء الناس عاملاً داخلياً يحارب لصالحنا، ويحمينا من مكايدهم.

بدون ذلك سنكون في خوف دائم، نمر أمام الناس كما نمر أمام الأُسود. ولن نكون مطمئنين أبداً على خيرنا وشرفنا وحياتنا.

كل هذه الأفكار تُثير حفيظتي ضد هؤلاء العلماء الذين يقدمون الإله ككائن يقوم بتمرين استبدادي لجبروته، والذين يجعلونه يتصرف بطريقة لا نقبل أن نتصرف بها نحن أنفسنا خوفاً من الإساءة إليه، من يحملونه كل العيوب التي يعاقبنا فيها. وفي آرائهم المتناقضة يصورونه أحياناً ككائن شرير، وأحياناً ككائن يكره الشر ويعاقب عليه.

يا له من ارتياح عندما يختبر الإنسان نفسه فيجد أن له قلباً عادلاً! هذه المتعة، على الرغم من قسوتها، يجب أن تسعده، فهو يرى كيانه أسمى بكثير من أولئك الذين لا يمتلكون قلباً، يعلو فوق مستوى النمور والدببة. نعم يا رضي، لو كنت متأكداً دائماً من اتباع هذا الإنصاف الذي أمام عيني، أعتقد أنني سأكون خير الناس جميعاً.

من باريس، في الأول من شهر جمادى الأولى من عام 1715

الرسالة الرابعة والثمانون

من ريكا إلى...

كنت أمسِ في الإنڤاليد: ولو كنت أميراً لكان أحب إلي أن أكون مؤسس هذا البناء على الانتصار بثلاث معارك. في كل مكان تجد أثراً ليد ملك عظيم. أعتقد أنه المكان الأكثر استحقاقاً للاحترام على وجه الأرض.

يا له من مشهد أن نرى في نفس المكان تجمعاً لكل هؤلاء الضحايا من أجل الوطن، الذين لم يعيشوا إلا للدفاع عنه، والذين أحبوه بقلوبهم على اختلاف قوتهم، ولم يشتكوا إلا من عجزهم عن بذل المزيد من التضحية من أجله.

ما الذي يمكن أن يكون أكثر إثارة للإعجاب من رؤية هؤلاء المحاربين الضعفاء في هذا المأوى، وهم يراعون نظاماً دقيقاً كما لو كانوا يفعلون ذلك في وجه العدو، والسعي إلى الرضا الذاتي عن هذه الحرب، ومشاركة قلوبهم وأرواحهم بين واجبات دينهم وواجبات الفن العسكري.

أرغب في حفظ أسماء الذين يموتون من أجل الوطن في المعابد، وتسجيلها في سجلات تكون بمثابة مصدر للمجد والنبل.

من باريس، في الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من عام 1715

الرسالة الخامسة والثمانون

من أوزبك إلى ميرزا[1] في أصفهان

أتعلم يا ميرزا أن بعض وزراء الشاه سليمان دبّروا مخططاً لإجبار جميع الأرمن في بلاد فارس على مغادرة المملكة، أو أن يصبحوا مسلمين، معتقدين أن إمبراطوريتنا ستكون دائماً ملوثة إن بقي هؤلاء الكفار في ربوعها.

وما قد يقضي على العظمة الفارسية، هو الالتفات إلى التفاني الأعمى في هذا الشأن.

لا يعلم أحد كيف فشل هذا المشروع ومدى سوء نتائجه، لا الذين قدموا الاقتراح ولا أولئك الذين رفضوه، لكن الصدفة قامت بما يقتضيه العقل والسياسة، وأنقذت الإمبراطورية من خطر أكبر مما يمكن أن تسببه خسارة معركة أو الاستيلاء على مدينتين.

كان يُعتقد أنه ومن خلال طرد الأرمن، سوف يُقضى وفي يوم واحد على جميع التجار وجميع الحرفيين تقريباً في المملكة. أنا متأكد أن الشاه عباس العظيم كان يفضل قطع ذراعيه عوضاً عن التوقيع على أمر كهذا، وأنه من خلال إرسال رعاياه الأمهر إلى المغول وإلى ملوك الهند، سيكون كمن منحهم نصف إمارته.

(1) كل هذه الرسالة الجريئة بسخاء، عبارة عن احتجاج على إلغاء مرسوم نانت.

إن الاضطهاد الذي مارسه مسلمونا الغيورون على الزرادشتيين، أجبرهم على النزوح بأعداد كبيرة إلى بلاد الهند،[1] وحرم بلاد فارس من هذه الأمة الكادحة، التي كانت وحدها وبفضل جهدها قد تغلبت على عقم أرضنا.

لم يبقَ إلا ضربة أخيرة للدين والمؤمنين: إنها تدمير الصناعة وبذلك تنهار الإمبراطورية من تلقاء نفسها، وكنتيجة حتمية، ينهار هذا الدين الذي كان يُراد له الازدهار.

إذا كان علينا التفكير دون تحيز، فأنا لا أعرف يا ميرزا إذا كان من الخير أن تتعدد الأديان في دولة واحدة.

يُلاحظ أن أولئك الذين يعيشون في ظل ديانات متسامحة عادة ما يكونون أكثر فائدة لبلدانهم من أولئك الذين يعيشون في ظل دين واحد سائد، لأنه وبعيداً عن تشريف الألقاب، فإن الناس غير قادرين على تمييز أنفسهم إلا من خلال رخائهم وثرواتهم التي يميلون إلى اكتسابها من خلال عملهم وتبنيهم لأكثر المهام إرهاقاً في المجتمع.

علاوة على ذلك، وبما أن جميع الأديان تحتوي على مبادئ مفيدة للمجتمع، فمن الجيد أن يُلتَزَم بها بحماسة. وما هو الأقدر على إثارة هذه الحماسة من تعددها؟

إنهم خصوم غير متسامحين. تتسرب الغيرة إلى الأفراد، فالجميع على أهبة الاستعداد، ويخشى القيام بأشياءَ من شأنها أن تسيء إلى شرف مذهبه، وتعرضه لازدراء وتوبيخ لا يغتفر من المذهب الآخر.

---

(1) لا يزالون هناك تحت اسم بارسيس، وقد احتفظوا بكتبهم المقدسة وعبادتهم للنار.

كما لوحظ على الدوام أن حضور طائفة جديدة في الدولة كان أضمن وسيلة لإصلاح كل ما فسُد من المذهب القديم.

عبثاً يقال إنه ليس من مصلحة الأمير أن يتسامح مع تعدد الديانات في دولته، فإذا اجتمعت كل طوائف العالم هناك، لن يضره ذلك، لأنه ما من دين إلا ويأمر بالطاعة ويحض على الخضوع.

أعترف أن التاريخ مملوء بالحروب الدينية، لكن لننتبه، لم يكن تعدد الأديان هو الذي تسبب بهذه الحروب، بل كانت روح التعصب هي التي تدفع المؤمنين الذين يعتقدون أن دينهم هو الأسمى.

إنها روح التبشير التي أخذها اليهود من المصريين، والتي انتقلت منهم، مثل عدوى وباء شامل، إلى المسلمين والمسيحيين.

إنها هذه الروح المريضة، التي لا يمكن اعتبار تقدمها إلا كسوفاً كاملاً للعقل البشري.

ففي النهاية، وبما أن إهانة ضمائر الآخرين لا تخالف الإنسانية، ما لم ينتج عن ذلك آثار سيئة، فسيكون المرء مجنوناً لإيضاح رأيه. من يريد مني أن أغير ديني فهو بلا شك يفعل ذلك لأنه لن يغير دينه إذا ما أُجبِر، ويجد أنه من الغريب أنني لا أفعل شيئاً لا يفعله هو نفسه ولو ملّكوه الدنيا.

من باريس، في السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام 1715

الرسالة السادسة والثمانون

من ريكا إلى...

يبدو هنا أن العائلات تحكم نفسها. ليس للزوج إلا ظل سلطة على زوجته، وكذلك للأب على أبنائه، وللسيد على عبيده. يختلط الأمر على العدل في كل منازعاتهم. وتأكد أنه دائماً ضد الزوج الغيور، والأب الحزين، والسيد غير المرتاح.

ذهبت في ذلك اليوم إلى المكان الذي يُطبق فيه العدل. قبل الوصول إليه، يجب المرور تحت نيران عدد لا حصر له من الشابات البائعات اللواتي يدعونك بصوت ماكر.[1] في البداية يبدو هذا المشهد ممتع إلى حد ما: لكنه يصبح كئيباً عندما يدخل المرء إلى الصالات الكبيرة، حيث

---

(1) دوفريسني Dufresny، تسالٍ جادّة وساخرة، الفصل الرابع: «في وسط باريس يوجد مبنىً رائع مفتوح للجميع، ولكنه يكاد يكون مغلقاً من كثرة الناس الذين يسارعون إلى دخوله والخروج منه. صعِدنا عدة درجات إلى غرفة كبيرة، حيث تفاجأ السيامي الخاص بي برؤية الرجال في نفس المكان مستمتعين بالحلي من جانب، وفي الجانب الآخر تشغلهم الأحكام التي تعتمد عليها كل المصائر».
«في هذا المتجر تُباع الشرائط، في المحل الآخر تباع الأرض بواسطة صك، تسمع على اليمين صوتاً رناناً لبائعة جميلة تدعوك للذهاب إليها، وعلى اليسار صوت أجش لصياح حاجب المحكمة، يا له من تناقض».
نرى أنه في القرن الثامن عشر، كان القصر يُقدم نفس المظهر كما كان في القرن السابع عشر، عندما كتب الشاب (كورني) كوميديا La Galerie du Palais.

لا يرى المرء إلا أُناساً ملابسهم أوقر من وجوههم. أخيراً، ندخل المكان المقدس حيث تُكشف جميع أسرار العائلات، وحيث يُسلط الضوء على أكثر الأعمال خفيةً.

هناك، تعترف فتاة متواضعة بعذاب عذرية طال الحفاظ عليها، ونضالاتها ومقاومتها المؤلمة، إنها غير فخورة كثيراً بانتصارها، بحيث إنها تُنذر دائماً بهزيمة وشيكة، وحتى لا يتجاهل والدها احتياجاتها، تعرضها أمام الناس جميعاً.[1]

وامرأة وقحة تستعرض الشتائم التي وجهتها إلى زوجها بغية الانفصال عنه.

وبتواضع مماثل، تقول أخرى إنها سئمت من كونها امرأة دون الاستمتاع بذلك، فتكشف عن الأسرار المخفية لليلة الزفاف. إنها تريد أن تُسَلم إلى أمهر الخبراء ليفحصوها، وأن تحصل على حكم يعيد إليها جميع حقوق العذرية. بل إن هناك من يجرؤن على تحدي أزواجهن، ويطلبن منهم مواجهة علنية يجعل منها الشهود أمراً صعباً للغاية، تجربة كافية لتمنح الزوجة التي تؤيدها والزوج المستسلم لها حزناً وذبولاً.[2]

عدد لا حصر له من الفتيات المسحورات أو المغرر بهن، يجعلن

---

(1) (روح الشرائع) الفصل 32، الصفحة 8: وفقاً للقانون الروماني المعتمد في فرنسا، في مقاطعات الجنوب يمكن للفتيات إجبار والدهن على وهبهن. من الرسالة 124 حتى النهاية.

(2) هذا ما كان يُعرف بالمؤتمر. (بوالو) يسخر منه في هجاء النساء. مذكرات (ماتيو ماريس)، الصفحات 288، 321،330، 497، 587، كذلك في مجموعة من الوثائق الواردة في محاكمة ماركيز دي جيسفر والآنسة ماسكاني، زوجته، روتردام 1714.

الرجال أسوأ بكثير مما هم عليه. العلاقات الغرامية تدوي في هذه المحكمة، فلا يُسمع فيها إلا عن الآباء الغاضبين، والبنات المُستغَلات، والعشاق الخائنين، والأزواج الحزينين.

بموجب القانون المعمول به هناك، من المفترض أن ينتمي أي طفل يولد أثناء الزواج إلى الزوج، قد يكون هناك أسباب وجيهة لعدم الاعتقاد بذلك، لكن القانون مقتنع، ويريح الزوج من التدقيق والشك.[1]

في هذه المحكمة، يُؤخَذ بأصوات الأغلبية،[2] لكن أثبتت التجربة أنه من الواجب الأخذ بأصوات الأقلية، وهذا طبيعي جداً. لأن النفوس العادلة قليلة جداً، ويتفق الجميع على وجود عدد لا حصر له من الظالمين.

من باريس، في الأول من شهر جمادى الآخرة من عام 1715

---

(1) «إن قانون باتر هو دليل على انتصار المرأة الشجاعة وعار الزوج الفقير. مع هذا القانون، سنعطي الأطفال لمن نريد ولمن لم ينجبهم». ماتيو ماريس، الصفحة 99.

(2) هذا يعني أننا نحكم بأغلبية الأصوات.

الرسالة السابعة والثمانون

من ريكا إلى...

يُقال إن الإنسان مخلوق اجتماعي. على هذا الأساس، يبدو لي أن الفرنسي أكثر إنسانية من غيره، وهذه الإنسانية المتفوقة تجعله كأنما خُلق من أجل المجتمع.

لكنني لاحظت من بينهم أشخاصاً ليسوا اجتماعيين فحسب، بل هم أنفسهم المجتمع العالمي. يكثرون في الأرجاء كافة، يملؤون أحياء المدينة الأربعة في لحظة، مئة رجل من هذا النوع يعمرون أكثر من ألفي مواطن، ويمكنهم أن يُحسِّنوا ويلات الوباء والمجاعة في أعين الأغراب. نتساءل في المدارس، إذا كان يمكن للجسد أن يوجد في عدة أماكن في ذات اللحظة؟ إنهم البرهان على ما يسأله الفلاسفة.

إنهم دائماً في عجلة من أمرهم، لأن قضيتهم الأهم هي سؤال كل من يرونه: إلى أين يتجه؟ ومن أين أتى؟

لن نستطيع أبداً أن نُخرج من رؤوسهم أنه من الملائم زيارة الناس كل يوم بشكل منفرد دون حساب الزيارات التي يقومون بها بشكل جماعي إلى الأماكن التي يتجمعون فيها، ولكن نظراً إلى أن الطريق إليها ميسّر جداً، فإنهم لا يحسبونها في قواعد مراسيمهم.

إنهم أكثر طَرْقاً للأبواب من الرياح والأعاصير. وإذا ما تفحصت قوائم جميع البوابين، لوجدتها كل يوم عامرة بأسمائهم المكتوبة بألف طريقة بالحروف السويسرية.[1] إنهم يقضون حياتهم في الجنازات وتقديم التعازي أو تهاني الزفاف. ولا يقدم الملك أي مكافأة لأحد من رعاياه، حتى وإن كلفه ذلك عربة للذهاب إليه والتعبير عن فرحهم. في النهاية، يعودون إلى منازلهم متعبين جداً من أجل الراحة وحتى يتمكنوا من استئناف أعمالهم الشاقة في اليوم التالي.

في أحد الأيام مات رجل منهم فوضعوا على قبره هذا الرثاء: «يرقد هنا رجل لم يستَرِح أبداً، لقد مشى خلف خمسمئة وثلاثين جنازة. فرِح لمولد ألفين وستمئةِ وثمانين ولداً. والمبالغ التي هنأ بها أصدقاءه في مناسبات مختلفة، تصل إلى مليوني وستمئة ألف جنيه، وقطع دروباً لمسافة تبلغ تسعة آلاف وستمئة ستاد، وفي الريف مسافات بلغت ستة وثلاثين ألفاً. كانت محادثته مسلية. كان لديه مجموعة كاملة من ثلاثمئة وخمس وستين حكاية، علاوة على ذلك، امتلك منذ صغره مئة وثمانية عشر قولاً مأثوراً من القدماء استخدمها في المناسبات. أخيراً، توفي في الستين من عمره. سأصمت أيها العابر، فكيف أخبرك بكل ما فعله وما رآه؟».

من باريس، في الثالث من شهر جمادى الآخرة من عام 1715

(1) كانت مهنة البوّاب منوطة بالسويسريون. «لقد أحضرني من مدينة أميان ليجعلني سويسرياً (بواباً)». يقول بيتي جان في كتاب «المتخاصمون».

الرسالة الثامنة والثمانون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

تسود الحرية والمساواة في باريس. لذلك ليس للنسب ولا للفضيلة ولا حتى لأمجاد الحروب، ليس لأية شهرة مهما كانت، أن تنقذ الإنسان من التماهي مع أقرانه من البشر. والغيرة من الطبقات الأخرى غير معروفة هنا. وإنما يُقال إن أشهرهم من تَجُرّ عربته أفضل الخيول.

السيد العظيم هو من يحظى بلقاء الملك ومحادثة الوزراء، ذو النسب، أو كبير الديون والإنفاق. من يستطيع إخفاء فراغه بمظهر المتعجل، أو عاشق الملذات والمُتع، هو أسعد الناس.

ليس من عظيم في بلاد فارس إلا أولئك الذين يعطيهم الملك منصباً ما في الحكومة. يوجد هنا أناس عظماء بنسبهم، لكنهم بلا مال. لذلك ترى الملوك يتصرفون مثل هؤلاء العمال المهرة الذين يستخدمون دائماً أبسط الآلات من أجل تنفيذ أعمالهم.

إن حظوة الملك دين الفرنسيين المقدس. والوزير الأول هو رئيس الكهنة الذي تُقدَّم له أُضحيّات كثيرة. مَن حولهُ ممن لا يلبسون الأبيض، مُضَحّون أحياناً وضحايا أحياناً أخرى، يكرسون أنفسهم لمعبودهم كما سائر الناس.

من باريس، في التاسع من شهر جمادى الآخرة من عام 1715

الرسالة التاسعة والثمانون[1]

من أوزبك إلى إيبين في إزمير

إن الرغبة في المجد غريزة مثلها مثل غريزة البقاء عند سائر المخلوقات. يبدو أننا نزيد من كينونتنا عندما نتمكن من إحيائها في ذاكرة الآخرين، إنها حياة جديدة نكتسبها، وتصبح ثمينة بالنسبة إلينا مثل تلك التي وهبتنا إياها السماء.

ولكن بما أن التعلق بالحياة غير متساوٍ بين جميع الناس، فهم كذلك ليسوا بنفس القدر من الشعور بالمجد. هذا الشغف النبيل محفور في قلوبهم دائماً. لكن الخيال والتربية يُكيفانه بطرق شتّى.

هذا الاختلاف، الذي نراه بين إنسان وآخر، يكون أوضح بين شعبٍ وشعب.

يمكن افتراض كمبدأ أن الرغبة في المجد، وفي كل دولة، تزداد بازدياد حرية الأفراد، وتتناقص معها، وأن المجد لا يقترن أبداً بالعبودية.

قال لي رجل حكيم ذات يوم: نحن في فرنسا، وفي كثير من النواحي، أكثر حرية من الناس في بلاد فارس، لذلك نحن أكثر حباً للمجد. هذا

---

(1) تحتوي هذه الرسالة على بذرة نظرية مفاهيم الحكومات الثلاث، التي استعرضها مونتسكيو في الكتاب الثالث من روح الشرائع.

التَّصوُّر السعيد يجعل الفرنسي يفعل، بكل سرور وذوق، ما لا يحصل عليه سلطانك من رعاياه إلا من خلال وضع العقوبات بجانب المكافآت بشكل مستمر أمام أعينهم.

عندنا كذلك، قد يحسد الأمير أدنى رعاياه على شرفٍ ناله. وللمحافظة على هذا الشرف، يوجد هنا محاكم محترمة، إنها كنز الأمة المقدس، والوحيدة التي ليس للملك سلطان عليها، لأنه لا يمكن أن يكون كذلك دون الإضرار بمصالحه. وهكذا، إذا وجد أحد الرعايا نفسه مصاباً في شرفه من قبل أميره، إما بسبب تفضيله لمن دونه، أو بأدنى علامة ازدراء، فإنه يترك على الفور بلاطه، وعمله، وخدمته، ويلزم منزله.

الفرق بين القوات الفرنسية وقواتكم هو أن جندكم عبيد جبناء بطبيعتهم، فلا يتغلبون على الخوف من الموت إلا بالخوف من العقاب، الأمر الذي ينتج في أنفسهم نوعاً جديداً من الرعب يجعلهم يبدون كالأغبياء، في حين يقدم الفرنسيون أنفسهم إلى المعارك بلذة، فيطردون الخوف برضا يسمو عليه.

لكن يبدو أن محراب الشرف والسمعة والفضيلة قد أُسِّسَ في الجمهوريات وفي البلدان التي يمكن فيها نطق كلمة الوطن. ففي روما وأثينا وإسبرطة، لا يُنال الشرف إلا مقابل خدمات جديرة بالإشادة. وإكليل من البلوط أو الغار، تمثال أو مديح، يُعتبر مكافأة عظيمة لمعركة كُسِبَت أو للاستيلاء على مدينة.

هناك، إن قام الرجل بعمل صالح، وجد نفسه يُكافأ بما يرضيه لعمله هذا. ولا يستطع رؤية أحد مواطنيه دون أن يشعر بسعادة كونه أحسن إليه،

فكأن خدماته تتعدد بعدد مواطنيه. كل إنسان قادر على فعل الخير لإنسان آخر، لكن مثل الآلهة يساهم في إسعاد مجتمع بأكمله.

ألا ينبغي أن تنطفئ هذه المنافسة النبيلة بشكل كامل في قلوب الفرس، أي حيث لا تُمنح المناصب والرتب إلا حسب أهواء الملك؟ وتعتبر السمعة والفضيلة عندهما ضرباً من الخيال إذا لم ترافقهما حظوة الأمير، اللتان تولدان بوجودها وتموتان بغيابها. والرجل الذي ينال تقديراً اليوم، ليس بآمنٍ من خدش شرفه غداً، فهو اليوم جنرال في الجيش، لكن قد يجعله الأمير طباخاً له، ولن يترك له أمل في أي مدح غير ذلك الذي يستحقه عند تحضيره يخنة لذيذة.

من باريس، في الخامس عشر من شهر جمادى الآخرة من عام 1715

الرسالة التسعون

من أوزبك إلى نفس الشخص[1] في إزمير

من هذا الشغف العام بالمجد الذي تتمتع به الأمة الفرنسية، نشأ في أذهان أفرادها نوع معين مما لا أعلم ماهيته، يُدعى: مبدأ الشرف. إنه بالضبط سمة لكل مهنة، لكنه أوضح لدى الجنود، حيث يبلغ هذا المبدأ قمته. من الصعب جداً بالنسبة إليّ أن أجعلك تشعر بحجمه، لأنه ليس لدينا فكرة دقيقة عنه.

لم يتبع الفرنسيون سابقاً، وخاصة النبلاء منهم، أي قوانين أخرى غير تلك الخاصة بمبدأ الشرف هذا، نظمت مجمل سير حياتهم، وقد كانت صارمة جداً لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يخالفها دون عقوبة أشد قسوة من الموت، ولا أقول بالتعدي عليها، بل مجرد أن يحتال حتى يُفلت من أصغرها.

عندما يتعلق الأمر بتسوية الخلافات، لم يكن هناك إلا وسيلة واحدة، وهي المبارزة التي تحسم جميع الخصومات. ولكن سوء هذا القرار أنه غالباً ما يُصدَر الحكم من قبل أطراف أخرى غير معنية بالقضية.

قد يكون بقدر ما أحد الرجال يعرف رجل آخر، يلتزم بالدخول في

(1) راجعوا روح الشرائع، الكتب: الثالث والرابع والثامن والعشرون.

نزاع، ويُقحم نفسه في الموضوع لصالح من يعرفه، كما لو كان هو نفسه المتأثر. سوف يشعر دائماً بالفخر من خلال هذا الاختيار وهذا الإيثار الرائع، رجل كهذا لم يكن ليمنح قليلاً من المال حتى يُنجي أحدهم وأسرته من المشنقة، لن يجد مشقة في المخاطرة بحياته ألف مرة من أجل مبدأ الشرف. كانت طريقة اتخاذ القرار هذه مُقَدمة بشكل سيئ. انطلاقاً من حقيقة أن أحد الرجال قد يكون أمهر أو أقوى من الآخر، لكن ذلك ليس بالضرورة ما يعني أن لديه أسباباً مُحقة أكثر. لذلك حرّمها الملوك تحت وطأة عقوبات شديدة جداً:[1] لكن عبثاً، فالشرف الذي يريد أن يسود ويثور لا يعترف بأي قوانين.

وهكذا فإن الفرنسيين في حالة اضطراب شديدة. لأن قوانين الشرف نفسها تلزم الرجل الصادق بالانتقام لنفسه عندما يتعرض للإهانة، ولكن، من ناحية أخرى، فإن العدالة تعاقبه بأقسى العقوبات عندما ينتقم لنفسه. إذا اتبع قوانين الشرف، فإنه يهلك على المقصلة، وإذا اتبع العدالة، فسوف يُنفى إلى الأبد من مجتمع الرجال. لذلك لا مفر من هذا الاختيار القاسي: إما أن يموت، وإما أن يحيا بلا كرامة.

من باريس، في الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة من عام 1715

(1) قرار الملك لويس الرابع عشر ينص على تطبيق عقوبة الإعدام بحق من يدخل في مبارزة.

الرسالة الحادية والتسعون

من أوزبك إلى ريستان في أصفهان

تظهر هنا شخصية متنكرة في هيئة سفير فارسي يعبث بوقاحة مع أعظم ملكين في الدنيا. يقدم لملك الفرنسيين هدايا لا ينبغي تقديمها لملك إيريميت أو جورجيا، وببخله الوضيع يُقلل من عظمة الإمبراطوريتين.

لقد جعل من نفسه أضحوكة أمام شعب يرى نفسه الأكثر رُقياً في أوروبا، ودفع الغرب إلى القول إن ملك الملوك لا يحكم إلا البرابرة.

حصل على مرتبة الشرف التي بدا أنه يأباها على نفسه، وكما لو أن البلاط الفرنسي قد أخذ العظمة الفارسية على محمل الجد أكثر مما فعل هو، فقد جعله يظهر مُحترَماً أمام شعب يحتقره.

لا تذكر ذلك في أصفهان، وحافظ على رأس هذا التعِس فلا أريد أن يعاقبه وزراؤنا بفعل حماقتهم هم، وسوء اختيارهم له كسفير.[1]

---

(1) «كانت هذه السفارة دائماً ملتبسة جداً وربما أكثر من ذلك. ما كان يُعتقد أنه أفضل ما يمكن كشفه هو أن وزيراً من إحدى مقاطعات فارس، كما يقول مراقب لانغدوك، أرسل هذا السفير المزعوم من أجل أعمال تجارية مع الباعة، وأنه بغية الاحتيال عليهم، زوّر سفير الفرس. بونتشارترين، التي تتولى إدارة هذه السفارة، لم ترغب في الكشف عن الاحتيال، لتسلية الملك وإرضاء بلاطه، من خلال السماح له بالاعتقاد بأن الشاه كان يُرسل إليه سفيراً». ملاحظات يوميات دانجو. «مهما كان الأمر، فقد استُقبِل بأبهة كبيرة. خطف امرأة متزوجة وردّها عن المسيحية. كانت هذه المرأة

من باريس، في آخر يوم من شهر جمادى الآخرة من عام 1715

ابنة غير شرعية لرئيس دير جرانشاي». راجعوا مراسلات إليزابيث ـ شارلوت، دوقة أورليان، أم ولي العهد (ملاحظة من طبعة داليبون، باريس 1826).

الرسالة الثانية والتسعون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

إن الملك الذي حكم عهداً طويلاً، عاد لا يكون بيننا.[1] لقد كان حديث الناس في حياته، وها هم قد صمتوا جميعاً عند مماته، لقد كان حازماً وشجاعاً في لحظاته الأخيرة، بدا كأنه لم يستسلم إلا لقدره. هكذا توفي الشاه عباس العظيم بعد أن شغل كل الدنيا باسمه.

لا تظن أن هذا الحدث الجلل لم يتسبب إلا في تأملات أخلاقية هنا، لقد فكر الجميع في مصالحهم، والاستفادة من هذا التغيير. أُعلِنَ الملك، حفيد الملك المتوفى، البالغ من العمر خمس سنوات فقط، وخاله[2] الأمير وصياً على عرش المملكة.

كان الملك الراحل قد أعدّ وصية تحد من سلطة الوصي. لكن هذا الأمير الفطِن استعرض في البرلمان[3] حقوقه كافة لجهة نسبه الملكي، كاسراً سطوة الملك الذي أراد الحكم بعد مماته، كما لو أنه ما زال حياً.

---

(1) مات لويس الرابع عشر في قصر فيرساي، يوم الأحد في الأول من أيلول لعام 1715، عن عمر 77 عاماً إلا خمسة أيام، وفي السنة 73 من حكمه. كان قد ولِد في الخامس من أيلول لعام 1638 وبدأ حكمه في الرابع عشر من آذار لعام 1643.

(2) دوق أورليان.

(3) الاثنين في الثاني من أيلول 1715، الجزء الخامس، مذكرات ماتيو ماريس، صـ116 وما بعدها. وسان سيمون (طبعة آشيت) الجزء الثامن.

تشبه البرلمانات تلك الأطلال التي تُداس بالأقدام، لكنها تذكر دائماً بفكرة بعض المعابد المشهورة للديانة القديمة للشعوب. إنها لا تعير اهتماماً لتطبيق العدالة، وسلطتها تضعف باستمرار، ما لم تأتِ بعض الظروف غير المتوقعة تُعيد إليها القوة والحياة. لقد اتبعت هذه الهيئات العظيمة مصير الأشياء البشرية، استسلمت للزمن الذي يهدم كل شيء، لفساد الأخلاق الذي يضعف كل شيء، للسلطة العليا التي تدمر كل شيء.

لكن الوصي الذي أراد أن يكون مقبولاً لدى الشعب، بدا أول الأمر بأنه يحترم صورة الحرية العامة هذه، ولمّا كان فَكَّر في إزالة المعبد والصنم من الأرض، فقد أراد أن يُنظر إلى تلك الهيئات على أنها دعامة للنظام الملكي وأساساً لكل سلطة شرعية.[1]

باريس، في الرابع من شهر رجب من عام 1715

(1) بموجب مرسم صادر في السادس عشر من أيلول لعام 1715، مُثبَت في البرلمان، ألغى الوصي مواد مرسومي 1667 و1673 اللذان كانا في البرلمان فيما يتعلق بحق الاعتراض. مذكرات ماتيو ماريس، الجزء الأول، صـ202.

الرسالة الثالثة والتسعون

من أوزبك إلى أخيه سانتون[1] في خلوة قزوين

إني أخشع أمامك، أيها الولي المقدس، وأركع ناظراً إلى أثر قدميك كأنه بؤبؤ عيني. إن قداستك عظيمة لدرجة تبدو معها أن لك قلب نبينا الطاهر، تقشفك أذهل حتى السماء، نظرت إليك الملائكة من علياء مجدها وقالت: «كيف ما يزال على الأرض وروحه معنا تحلّق حول العرش المتكئ على الغيوم؟».

وكيف لا أُمجدك، أنا الذي تعلمت من علمائنا أن الدراويش، حتى غير المخلصين منهم، دائماً ما تكون لهم صفة القداسة التي تجعلهم مبجلين عند المؤمنين الحقيقيين، وأن الله قد اصطفى لنفسه، في جميع أنحاء الأرض، أرواحاً أنقى من سواها، وخلصها من العالم الآثم، حتى يوقف زهدها وصلواتها الورعة غضبه الذي يوشك أن ينزل على الكثير من الشعوب العاصية؟

يروي المسيحيون أعاجيبَ عن أوليائهم الأولين، الذين لجؤوا بالآلاف إلى صحارى طيبة (جنوب مصر) المخيفة، وكان في مقدمتهم: بولس وأنطوان وباكوم. إذا كان ما يقولونه صحيحاً، فإن حياتهم مملوءة

---

(1) ولي مسلم.

بالمعجزات كحياة أقدس أئمتنا. لقد قضوا في بعض الأحيان عشر سنوات كاملة دون أن يروا إنساناً واحداً، لكنهم عاشوا ليلاً ونهاراً مع الشياطين. كانت هذه الأرواح الشريرة تعذبهم باستمرار، يجدونها في الفراش وعلى المائدة، فلا ملاذ منها. إذا كان كل هذا صحيحاً، يا وليّنا المبجل، فيجب الاعتراف بأنه لن يعيش أحد في صحبة أسوأ من هذه الصحبة.

يعتبر المسيحيون العقلاء كل هذه القصص أنها أساطير رمزية طبيعية جداً يمكن أن تجعلنا نشعر بتعاسة النوع البشري. عبثاً نسعى في الصحراء إلى حالة من الاطمئنان، تلاحقنا التجارب دائماً، فأهواؤنا التي تخلقها الشياطين لم تفارقنا بعد، كما أن وحوش القلب هذه، وأوهام العقل، وأشباح الخطيئة الباطلة والأكاذيب، تظهر نفسها لنا دائماً لإغوائنا ومهاجمتنا حتى في الصيام والتنسك، أي حتى في جوانب قوّتنا.

بالنسبة إليّ، أيها الولي الموقر، أعلم أن رسول الله قيّد الشيطان وألقى به في الهاوية، طهّر الأرض التي كان قد بسط سلطانه عليها، وجعلها جديرة بمسكن الملائكة والأنبياء.

من باريس، في التاسع من شهر شعبان من عام 1715

الرسالة الرابعة والتسعون

من أوزبك إلى رضي في البندقية

لم أسمع قط عن القانون العام، دون أن يبدأ الكلام بالبحث الدقيق عن أصل المجتمعات، الأمر الذي يبدو سخيفاً بالنسبة إليّ. إذا لم يكن الناس يشكلون المجتمعات، وإذا هُجروا وهربوا بعضهم من بعض، فسيتعين علينا أن نسأل عن السبب ونكتشف لماذا ينعزلون، لكنهم جميعاً يولدون مرتبطين بعضهم ببعض، فيولد الولد مع أبيه ويبقى بقربه، هذا هو المجتمع وسبب تكونه.[1]

القانون العام معروف في أوروبا أكثر منه في آسيا. لكن يمكننا القول إن أهواء الأمراء، وصبر الشعوب، وتملُّق الكُتاب، قد أفسد كل مبادئه.

هذا القانون، كما هو عليه اليوم، علم يعلِّم الأمراء إلى أي مدىً يمكنهم انتهاك العدالة دون المساس بمصالحهم. ما هو الغرض، يا رضي، من الرغبة في تقوية ضمائرهم، ووضع الظلم في نظام، وإعطاء قواعد له، وتشكيل أسس له، واستخلاص النتائج منه؟

القوة اللامحدودة لسلاطيننا العظام، التي ليس لها قاعدة أخرى غير

(1) إنه تفنيد متوقع لفلسفة جان جاك روسو، التي تعارض الطبيعة في المجتمع، وتخرجه من عقد كان يمكن للناس أن يُبرموه بشكل تلقائي.

نفسها، لا تنتج إلا وحوشاً مثلها من هذا الفن الحقير، والذي يريد كسر العدالة على الصلابة التي هي عليها.

يقال يا رضي إن هناكَ نوعين مختلفين تماماً من العدالة: أحدهما ينظم شؤون الأفراد ويسوده القانون المدني، والآخر الذي يحسم الخلافات التي تنشأ بين الشعوب والتي يحكم بها القانون العام، كما لو أن القانون العام لم يكن في حد ذاته قانوناً مدنياً، ليس حكراً على دولة، بل هو قانون للعالم بأسره.

سوف أشرح لك، في رسالة أخرى، أفكاري في هذا الشأن.

من باريس، في الأول من شهر ذي القعدة من عام 1716

الرسالة الخامسة والتسعون

من أوزبك إلى الشخص نفسه

على القضاة تحقيق العدالة بين المواطنين، ويجب على كل شعب أن يطبقها على نفسه كما على شعوب أخرى. في هذا النوع الثاني من العدالة، لا يمكن استخدام قواعد أخرى غير القواعد المتبعة في النوع الأول.

من شعب إلى شعب، نادراً ما تكون هناك حاجة لطرف ثالث من أجل الحكم، لأن قضايا الخلاف غالباً ما تكون واضحة ويسيرة الفصل فيها. فعادةً ما تكون المصالح مختلفة بين دولتين بحيث لا يلزم إلا محبة العدالة لإيجادها، ومن غير الممكن توقع ما قد يحدث في قضية بعينها.

لا ينطبق الأمر نفسه على الخلافات بين الأفراد، نظراً إلى أنهم يعيشون في مجتمع، فإن اهتماماتهم مختلطة ومتشابكة للغاية، وهناك أنواع كثيرة من الخلافات بحيث نحتاج إلى طرف ثالث لكي يكشف ما يسعى جشع أطراف الخصومة إلى حجبه.

هناك نوعان فقط من الحروب العادلة: واحدة تُخاض لصد العدو المهاجم، والأخرى لإنقاذ حليف يتعرض للهجوم.

ليس من العدالة في شيء أن تقوم حرب من أجل نزاعات خاصة بالملك، إلا إذا كانت حالة خطيرة تستحق موت الأمير أو الناس الذين ارتكبوها.

وبالتالي لا يمكن لملك أن يخوض حرباً بسبب حرمانه من التكريم الذي يستحقه، أو بسبب تصرفات غير لائقة تعرض لها سفرائه، أو أشياء من هذا القبيل. ولا أن يقتل فرد ذاك الذي رفض عليه الصدارة والأسبقية.

والعقل يوجب أن يكون إعلان الحرب فعلاً مشروعاً، بحيث تكون العقوبة متناسبة مع الخطأ، يجب معرفة ما إذا كان الشخص الذي أُعلنت الحرب عليه يستحق الموت، لأن شن الحرب على أحدهم معناه أننا نريد معاقبته بالموت.

في القانون العام، الحرب هي أشد أعمال العدالة قسوة، لأنها يمكن أن تؤدي إلى تدمير المجتمع.

الثأر في المرتبة الثانية: إنه قانون لا يمكن للمحاكم أن تمتنع عن مراعاته، أن تقيس العقوبة بحجم الجريمة.

يتمثل المظهر الثالث للعدالة في حرمان أمير من المزايا التي يمكن أن يجنيها من هذه العدالة، مع جعل العقوبة تتناسب دائماً مع الفعل المرتكب.

أما المظهر الرابع للعدالة، والذي يجب أن يكون الأكثر شيوعاً، هو التخلي عن التحالف مع الشعب الذي يُشكى منه. تُحاكي هذه العقوبة عقوبة النفي، التي أسستها المحاكم لعزل المذنب عن المجتمع. وهكذا، فإن الأمير الذي يدخل في حلف لا نرتضيه يُنفى عن مجتمعنا، ولن يكون مجدّداً من الأفراد الذين يشكلونه.

لا يمكن أن تُوجه إهانة لأمير أكبر من أن يُرفض التحالف معه، ولا يشرفه شيء أكثر من الرغبة في محالفته. وليس هناك من تمجيد للناس أعظم وأكبر نفع من رؤية الآخرين يصغون بانتباه لأحاديثهم.

لكن لكي يربطنا تحالف واحد، يجب أن يكون عادلاً، وبالتالي فإن التحالف بين دولتين لقمع دولة ثالثة ليس شرعياً ونقضه لا يُعد جريمة.

وليس من شرف أو كرامة أن يتحالف الأمير مع طاغية. يقال إن أحد ملوك مصر حذر ملك ساموس من قسوته واستبداده، ودعاه إلى إصلاح سلوكه، ولما لم يفعل، أرسل له رسالة بأنه تخلى عن صداقته وتحالفه.

لا يعطي فتح البلاد بحد ذاته الحق، فإن استمر بقاء الشعب المفتوح البلاد فهو تعهد بالسلام وإصلاح خطأ الفاتحين، وإذا هلك الناس أو تشتتوا فهذا دليل على الاستبداد.

إن معاهدات السلام مقدسة للغاية بين الناس، كما لو أنها صوت الطبيعة الذي يطالب بحقوقها. كل هذه المعاهدات شرعية عندما تكون الشروط الموضوعة جديرة بمراعاة الشعبان المتحالفان. وإلا فإن أحد المجتمعين الذي يرى نفسه هالكاً، ومحروماً من السلام في حالة الدفاع الطبيعية، يمكنه أن يبحث عن سلامه في الحرب.

فالطبيعة التي أوجدت درجات مختلفة من القوة والضعف بين الناس، لا تزال وفي كثير من الأحيان تساوي الضعف بالقوة في حالة اليأس.

هذا، يا عزيزي رضي، هو ما أسميه القانون العام. إنه حق الناس، أو بالأحرى حق العقل.

من باريس، في الرابع من شهر ذي القعدة من عام 1716

الرسالة السادسة والتسعون

من كبير الخصيان إلى أوزبك في باريس

وصلت العديد من نساء العرق الأصفر إلى هنا من مملكة فيسابور، اشتريت واحدة منهن لأخيك حاكم مازندران الذي أرسل إلي قبل شهر توصية سامية ومئة تومان.

أنا أعرف النساء لدرجة أنهن لا يفاجئنني، ولا تُظهر عيناي ما قد يضطرب في قلبي.

ولم أرَ أبداً جمالاً متناسقاً ومثالياً كجمالها، عيناها اللامعتان تحملان الحياة إلى وجهها، وتُشعان ببريق لون يمكن أن يمحو كل سحر الشراكسة.

لقد ساومني فيها كبير خصيان تاجر في أصفهان، لكنها كانت تتجنب نظراته بازدراء، وبدا أنها تبحث عني، كأنها أرادت أن تخبرني أن تاجراً حقيراً لا يستحقها، وأنها كانت مُقدَّرة لزوج أرقى.

أعترف لك أنني أشعر في نفسي بفرحة خفيّة، عندما أفكر في سحر هذه السيدة الجميلة، كما لو أنني أراها تدخل قصر أخيك ويسعدني أن أتكهن بدهشة جميع زوجاته، الألم المستبد للبعض منهن، أسى الأخريات الصامت ولكنه الأكثر إيلاماً، العزاء الخبيث لمن عُدْنَ لا يأملن شيئاً، والطموح المُثار عند اللواتي لا يزلن يمتلكن الأمل.

سأطوف أرجاء مملكتنا من أجل تغيير كل شيء في القصر تغييراً كاملاً. كم من العواطف سوف أثير! وكم من المخاوف والأحزان أتأهب لها!

ورغم الضيق في الصدور، لن يكون الخارج أقل هدوءاً من المعتاد. ستكون الثورات الكبرى دفينة في أعماق القلوب، سوف تنقضي الأحزان وتتواصل المسرات، لن تكون الطاعة أقل انضباطاً، ولا القانون أقل مرونة، سوف تُجبر العذوبة على الظهور، حتى ولو من أعماق اليأس.

نلاحظ أنه كلما زاد عدد النساء أمام أعيننا، قل الارتباك الذي يسببنه لنا. حاجتهن الكبرى إلى أن يَكُنَّ محل إعجاب تُصعّب من اتحادهن، وكلما زادت الأمثلة على الخضوع، كانت قيودهن أكثر. بعضهنّ يراقبن باستمرار خطوات بعضهنّ الآخر، كأنهن يعملن على جعل أنفسهن أكثر خضوعاً، يُنجزن جزءاً من عملنا، ويفتحن أعيننا عندما نغلقها.

ماذا أقول؟ إنهن يثرن السيد باستمرار ضد منافساتهن، ولا يرين مدى قربهن من أولئك اللواتي يعاقبن.

لكن كل هذا، يا سيدي العظيم، كل هذا ليس شيئاً من دون حضور السيد. ماذا يمكننا أن نفعل بهذا الشبح عديم الفائدة لسلطة لا تتم ممارستها على أكمل وجه؟ نحن لا نكاد نمثل نصف سلطتك، ولا يمكننا إلا أن نظهر لهم قسوةً كريهةً. أما أنت فتُلَطِّف الخوف بالرجاء، وتكون أكثر حزماً وأنت تلاطف منك حين تهدد.

عد إذاً، أيها السيد الرائع، عد إلى هذه الأماكن لتنشر فيها معالم سلطانك. تعال لتهدئة المشاعر اليائسة، تعال فأزل كل ذريعة للفشل، تعال

سكّن الحب الذي يتذمر، واجعل الواجب ممتعاً، تعال لتخفيف العبء الذي يثقل كاهل خصيانك المخلصين كل يوم.

من قصر أصفهان، في الثامن من شهر ذي الحجة من عام 1716

الرسالة السابعة والتسعون

من أوزبك إلى حسن، درويش جبل إيون

أيها الدرويش الحكيم، يا من يتألق عقله الفضولي بالكثير من المعرفة، اسمع ما سأقصه عليك:

لدينا فلاسفة هنا، لا يصلون، في الواقع، إلى ذروة الحكمة الشرقية، لم يبتهجوا يوماً ببلوغ العرش المضيء، لم يستمعوا إلى حديث الملائكة المقدس الذي يدوي في السماء، ولم يشعروا بغضب الإله الجبار، لكن وهم المتروكون لأنفسهم، المحرومون من العجائب المقدسة، يتبعون بصمت آثار العقل البشري.

لا يمكنك أن تصدق إلى أي مدىً قادهم هذا الدليل. لقد اكتشفوا الفضاء، وفسروا بميكانيكا بسيطة نظام الهندسة الإلهية. أعطى خالق الطبيعة المادة حركتها، فعاد هناك لا يوجد من حاجة إلى شيء آخر حتى ينشأ هذه التنوع العجيب الذي نراه في الكون.[1]

إن المشرعين العاديين يقترحون علينا قوانين لتنظم المجتمعات الإنسانية، لكن هذه القوانين تخضع للتغيير مثل عقول من يقترحها وعقول الشعوب التي تتبعها. وهؤلاء لا يحدثوننا إلا عن القوانين العامة، الثابتة

---

(1) روح الشرائع، الكتاب الأول.

والأبدية، التي تُراعى دون استثناء، بترتيب وانتظام وسرعة لا نهائية في هذه الأكوان الفسيحة.

وماذا تعتقد، أيها الرجل المقدس، ماهية هذه القوانين؟ ربما تتخيل أنك داخل في ملكوت الأبدية، ستندهش من سمو المدبرين، ستتخلى عن محاولة فهم ما ترى، ولن يكون منك إلا الإعجاب.

لكنك ستغير رأيك فوراً، فهذه القوانين لا تُبهر باحترام زائف، بل إن بساطتها جعلتها مُبهمة لفترة طويلة، ولم يُرَ مدى خصوبتها وسعتها إلا بعد تفكير طويل.

الحقيقة الأولى أن كل جسم يأخذ في رسم خط مستقيم إلا إذا واجه عقبة تحول مساره، والثانية وهي متممة للأولى، أن أي جسم يدور حول مركز يأخذ بالابتعاد عنه. لأنه كلما ابتعد، اقترب الخط الذي يرسمه من كونه خطاً مستقيماً.

ها هو، أيها الدرويش السامي، مفتاح الطبيعة، وها هي المبادئ المثمرة التي نستمد منها نتائج بعيدة المدى.

إن معرفة خمس أو ست حقائق جعلت فلسفتهم مملوءة بالمعجزات، وجعلتهم يأتون بالعجائب والغرائب، بقدر ما يُروى لنا عن أنبيائنا القديسين.

بعد كل شيء، أنا مقتنع بأنه لا يوجد أحد من علمائنا لم يكن ليُحرج إذا ما طُلب منه أن يزن، في ميزان، كل الهواء المحيط بالأرض، أو يقيس كل الماء الذي يسقط سنوياً على سطحها، وليس من بينهم من يفكر أكثر من أربع مرات قبل أن يقول عدد الفراسخ التي يقطعها الصوت في ساعة

واحدة، وكم من الوقت يستغرق شعاع الضوء ليأتي من الشمس إلينا، كم تبلغ المسافة بيننا وبين زحل، ما هو المنحنى الذي يجب أن يُصنع به الحوض حتى يُشكل أفضل مركب شراعي ممكن.

ربما لو قام رجل تقي بتجميل أعمال هؤلاء الفلاسفة بكلمات سامية ورفيعة، ومزجها باستعارات جريئة مع رموز غامضة، لكان قد أعد كتاباً جميلاً، لن يتفوق عليه إلا القرآن المقدس.

ومع ذلك، إذا كان عليّ أن أخبرك برأيي، فأنا بالكاد أتكيف مع الأسلوب المجازي. فلدينا في القرآن عدد كبير من الأشياء الصغيرة، والتي تبدو لي دائماً مجازية، على الرغم من أنها تُدعم بقوة التعبير وحيويته. يبدو للوهلة الأولى أن الكتب الموحى بها ليست سوى أفكار إلهية مكتوبة بلغة بشرية، أما في القرآن فنجد لغة الله وأفكار البشر. كما لو أن الله، من خلال نزوة رائعة، قد أملى الكلمات، والإنسان هو من قدم الأفكار.

قد تقول إنني أتحدث بحرية كبيرة عما هو الأكثر تقديساً لدينا، ستظن أن هذه الحرية ثمرة للاستقلال الذي نعيشه في هذا البلد. لا، الحمد لله أن العقل لم يفسد القلب. وما دمتُ حيّاً فإن مُحمداً هو نبيّي.

من باريس، في الخامس عشر من شهر شعبان من عام 1716

الرسالة الثامنة والتسعون

من أوزبك إلى إيبين في أزمير

لا توجد دولة في العالم تتقلب فيها الثروة كما في هذه الدولة. تحدث ثورات كل عشر سنوات تلقي بالثري في البؤس، وترفع الفقير بأجنحة سريعة إلى ذروة الثراء. فيَعجب الغني لما بلغ من فقر، والفقير لما نال من غنىً. يشكر الثري الجديد حكمة العناية الإلهية، ويندب الفقير سوء قدره الأعمى.

أولئك الذين يجتبون الضرائب يسبحون في الأموال، ومن بينهم قلة لا تكتفي أبداً. يبدؤون مهنتهم هذه وهم في بؤس شديد، يتعرضون للاحتقار كالطين وهم فقراء. فإذا أصبحوا أغنياء، نالوا احتراماً كبيراً، ولا يُقصرون بشيء من أجل كسب هذا الاحترام.

إنهم الآن في وضع رهيب، فقد أنشئت للتو غرفة تُسمى دار العدل ستحرمهم من جميع ممتلكاتهم، ولا يمكنهم تحويل أو إخفاء قيمة هذه الممتلكات، لأنهم ملزمون بإعلانها بصدق تحت طائلة تهديد حياتهم، وبذلك أصبحوا في مأزق ضيق جداً، أعني أن يُفاضلوا بين الحياة والمال.[1] ولتكتمل مصيبتهم، جاءهم وزير معروف بذكائه، وبخفة روحه

(1) طالعوا على وجه الخصوص قضية بورفاليس وقضية كروزات، مذكرات ماتيو ماريه، ص: 224 و345.

ونكاته، وتهكم على كل مداولات المجلس.[1] لن نجد كل يوم وزراء ميالين إلى إضحاك الناس، ويجب أن نكون شاكرين له على قيامه بذلك.

طبقة الأتباع أكثر احتراماً في فرنسا من أي مكان آخر، إنها مدرسة للسادة العظماء، تملأ فراغ الطبقات الأخرى. أولئك الذين يأخذ أفرادها مكان البائسين العظام، من حكام مفلسين، وسادة قتلوا في غمرة الحرب، وعندما لا يستطيعون سد الفراغ بأنفسهم، فإنهم يُحيون كل البيوت العظيمة عن طريق تزويج بناتهم فيها، كنوع من السماد الذي يُخصب الأرضي الجبلية القاحلة.[2]

أرى يا إيبين، أن العناية الإلهية في الطريقة التي وزعت بها الثروات مبهرة. لو أنها منحتها فقط للأخيار، لما ميزها الناس بما فيه الكفاية من الفضيلة، ولما شعروا بعدمهم عند الفقر. لكن عندما نتأمل الناس الذين نالوا الثراء الأكبر، ولطول احتقارهم للأغنياء، فإنهم في النهاية سيحتقرون الثروات.

من باريس، في السادس والعشرين من شهر محرّم من عام 1717

(1) دوق نويل، مذكرات ماتيو ماريه، ص: 235.

(2) طالعوا مذكرات ماتيو ماريه، ص: 1 و97.

الرسالة التاسعة والتسعون

من ريكا إلى رضي في البندقية

أجد تقلبات الموضة لدى الفرنسيين مذهلة. لقد نسوا كيف كانوا يلبسون هذا الصيف. ويجهلون تماماً ما عسى يكون لباسهم هذا الشتاء. وأكثر من هذا، لا يستطيع أحد أن يتصور كم يكلف الزوج أن يجعل من زوجته عصرية.

ما فائدة إعطائك وصفاً دقيقاً للباسهم ومظهرهم؟ أسلوب جديد من شأنه أن يدمر كل ما سأقوله، مثلما هو حال عمالهم، وقبل أن تتلقى رسالتي، ربما يكون كل شيء قد تغير.

المرأة التي تغادر باريس لتذهب وتقضي ستة أشهر في الريف، تعود قديمة الطراز كما لو أنها نسيت نفسها هناك لمدة ثلاثين عاماً. ابنها لا يتبين صورة والدته، فالزي الذي ترتديه يبدو غريباً، يتخيل أن من تمثل أمامه امرأة أمريكية، أو أن رساماً أراد أن يعبر عن بعض تخيلاته من خلالها.

أحياناً تعلو تسريحات الشعر بشكل هائل، ثم تؤدي ثورة التغيير فجأة إلى نزولها. هناك وقت كانت تضع فيه التصفيفة العالية وجه المرأة في وسطها، في وقت آخر، كانت الأقدام هي التي تحتل هذا المكان، فقد صنع الكعب قاعدة التمثال الذي حملها في الهواء. من يصدق ذلك؟ اضطر

المهندسون المعماريون في كثير من الأحيان إلى رفع أبوابهم أو خفضها أو توسيعها، حسب مظهر النساء الذي يتطلب منهم هذا التغيير، وإخضاع قواعد فنهم لهذه الأهواء. نرى أحياناً عدداً هائلاً من النقاط على وجه، ثم تختفي جميعها في اليوم التالي. كانت المرأة في السابق تتميز بحسن قامتها وأسنانها، أما اليوم فهذا غير وارد. في هذه الدولة المتغيرة، وبغض النظر عما يقوله المتهكمون، تحيا الفتيات بشكل مختلف عن أمهاتهن.

إن من أنماط وأساليب العيش ما يشبه الأزياء، فالفرنسيون يغيرون أعرافهم حسب عهود ملوكهم. يمكن للملك نفسه أن يجعل الشعب جاداً إن هو أراد ذلك، بأن يؤثر في شخصيته في البلاط، ومن البلاط ينتقل الأثر إلى المدينة، ومن المدينة إلى المقاطعات. فروح الملك كالقالب الذي يعطي شكلاً لأنفس الآخرين.

من باريس، في الثامن من شهر صفر من عام 1717

الرسالة المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه

كنت أتحدث إليك قبل أيام عن التقلب المذهل للفرنسيين في أزيائهم. ومع ذلك، فمن غير المعقول مدى تعصبهم لها، ينادون عبرها كل شيء آخر، إنها القاعدة التي يحكمون من خلالها على كل ما يجري عند الأمم الأخرى، وكل ما هو غريب عنهم يبدو دائماً مثيراً للسخرية. أعترف لك أنني بالكاد أستطيع التوفيق بين هذا الولع بالأزياء، والتقلب الذي يجعلهم يغيرونها كل يوم.

عندما أقول لك إنهم يحتقرون كل ما هو غريب عنهم، فإنني أتحدث فقط عن التفاهات، لأنه فيما يتعلق بالأشياء الهامة، يبدو أنهم لا يثقون في أنفسهم لدرجة مكروهة. يعترفون طواعية بأن الشعوب الأخرى أحكم، بشرط الاتفاق على أنهم يرتدون ملابس أفضل، هم على استعداد للخضوع لقوانين دولة منافسة، بشرط أن يتخذ صانعو الشَّعر المستعار الفرنسيون قراراً كمشرعين بشأن شكل الباروكات الأجنبية. لا شيء يبدو عندهم جميلاً كأن يروا مذاق أطباق طهاتهم يسود من الشمال إلى الجنوب، وتنتشر تصفيفاتهم في جميع صالونات التجميل[1] في أوروبا.

---

(1) صالون الزينة أو التجميل.

مع هذه المزايا النبيلة، ما الذي يهمهم إن امتاز سواهم بالحس السليم، وإن أخذوا من جيرانهم كل ما يتعلق بالحكم السياسي والمدني؟

من يستطيع أن يتصور أن المملكة الأقدم والأقوى في أوروبا، تحكمها قوانين لم تُصنع لها منذ أكثر من عشرة قرون؟[1] إذا ما احتُلَّ الفرنسيون، فلن يكون من الصعب فهم ذلك، لكنهم الغزاة.

لقد تخلوا عن القوانين القديمة التي وضعها ملوكهم الأوائل في الجمعيات العمومية للأمة، وما هو فريد، هو أن القوانين الرومانية، التي اتخذوها بدلاً من قوانينهم، وُضع بعضها وصِيغَ الآخر من قبل أباطرة معاصرين لمشرعيهم.

ولكي يكتمل الاستحواذ، وليكون التفكير السليم آتياً إليهم من مكان آخر، فقد تبنوا جميع الدساتير البابوية، وجعلوها جزءاً جديداً من قانونهم، وفي هذا نوع جديد من العبودية.

صحيح أنه صِيغَت في الآونة الأخيرة بعض القوانين لتنظيم شؤون المدن والمحافظات، لكنها كلها تقريباً مأخوذة من القانون الروماني.[2]

هذه الوفرة في القوانين التي تُبُنِّيَت والتي جُنِّسَت إذا جاز التعبير، كثيرة جداً لدرجة أنها أرهقت العدالة والقضاة. لكن هذه المجلدات من القوانين لا تساوي شيئاً بالمقارنة مع هذا الجيش المخيف من المؤلفين والمفسرين والمجمعين، الذين هم ضعفاء بسبب قلة فطنتهم، لكنهم أقوياء بعددهم الهائل.

---

(1) القوانين الرومانية والقانون الكنسي.

(2) هذا الكلام غير دقيق، خصوصاً في شمال فرنسا.

ليس هذا كل شيء، لقد أدخلت هذه القوانين الأجنبية صيغاً مبالغاً فيها هي عار على العقل البشري. أصبح من الصعب تحديد ما إذا كانت الصيغ أَضَرّ من الناحية الفقهية، أم من الناحية الطبية، ما إذا كانت قد أحدثت دماراً أكبر تحت رداء المفتي أم تحت قبعة الطبيب الكبيرة، وإذا كانت في إحداها أضرت أناساً أكثر مما أزهقت الحالة الأخرى أرواحاً.

من باريس، في السابع عشر من صفر من عام 1717

الرسالة الأولى بعد المئة

من أوزبك إلى...

يتحدثون هنا بشكل مستمر عن الدستور.[1] دخلت منزلًا ذات يوم، وأول ما رأيت فيه كان رجلاً بديناً ذا سحنة قرمزية،[2] قال بصوت عالٍ: لقد قدمت بياني، ولن أجيب عن أي من أقوالكم، لكن اقرؤوا هذا البيان، وسترون أنني قد بددت كل شكوككم. لقد بذلت جهداً كبيراً حتى أعددته، قال وقد وضع يده على جبهته، واحتجت إلى ذلك كل علمي ومعرفتي، وكان عليَّ أن أقرأ العديد من المؤلفين اللاتينيين. قال أحد الحاضرين: أنا أصدق ذلك، لأنه عمل رائع، وأود أن أتحدى ذلك اليسوعي الذي يأتي كثيراً لزيارتكم أن يُعد بياناً أفضل. ثم استأنف قائلاً: اقرؤوه وستكونون أكثر اطلاعاً على هذه الموضوعات في ربع ساعة مما لو كنت قد حدثتكم عنها طوال اليوم، هكذا تجنب الدخول في النقاش والتطاول على ثقته بنفسه. لكن إذا وجد نفسه تحت ضغط شديد، اضطر إلى الخروج من حصنه، وبدأ يروي الكثير من الحماقات اللاهوتية، مدعوماً بدرويش كان يُعيدها له باحترام شديد. وعندما عارض رجلان كانا هناك بعض مبادئه، أخذ يقول: هذا مؤكد، لقد حكمنا هكذا، ونحن قضاة لا ننقض أحكامنا. فقلت له:

---

(1) دستور «أونيجينيتوس» الموجه ضد المتزمتين.
(2) أسقُف.

أأنتم قضاة معصومون؟ فأجاب: ألا ترى أن الروح القدس تنيرنا؟ أجبته: من حسن الحظ، لأنه وحسب الطريقة التي تحدثت بها طوال هذا اليوم، أدرك أنك في حاجة ماسة إلى الهداية.

من باريس، في الثامن عشر من شهر ربيع الأول من عام 1717

الرسالة الثانية بعد المئة

من أوزبك إلى إيبين في إزمير

إن أقوى دول أوروبا هي دولة الإمبراطور، وملوك فرنسا وإسبانيا وإنجلترا. أما إيطاليا، وجزء كبير من ألمانيا، فإنها مقسمة إلى عدد لا حصر له من الدويلات، التي يمكن اعتبار أمرائها، بالمعنى الدقيق، شهداء السيادة. إن لدى سلاطيننا العظام زوجات أكثر مما لدى هؤلاء الأمراء من رعية. وإن أمراء إيطاليا غير المتحدين أَوْلى بالشفقة، لأن دويلاتهم مفتوحة مثل الخانات التي عليها إيواء أول القادمين. لذلك يجب أن يُحالفوا الأمراء الكبار وأن يعبروا لهم عن خوفهم أكثر مما يُعربون عن صداقتهم.

معظم الحكومات في أوروبا ملكية، أو هكذا تسمى، لأني لا أعرف ما إذا كان هناك ملكية حقيقية. على الأقل يصعُب أن تظل كذلك لأمد طويل. فالملكية حكم صارم ينحط دوماً إلى الاستبداد أو إلى الحكم الجمهوري، لا يمكن أبداً تقسيم السلطة بالتساوي بين الشعب والأمير، وسيكون من الصعب الحفاظ على التوازن، فعلى السلطة أن تتضاءل من جانب في حين تزداد في الجانب الآخر، لكن الأفضلية عادة ما تكون إلى جانب الأمير الذي يترأس الجيوش.

وهكذا فإن قوة ملوك إسبانيا عظيمة جداً، ويمكن القول إنهم يمتلكونها

كما يريدون، لكنهم لا يمارسونها بقدر سلاطيننا، لأنهم لا يريدون أن يصدموا عادات الناس وديانتهم أولاً، ولأنه ليس من مصلحتهم أن يتمادوا في نفوذهم ثانياً.

لا شيء يجعل أمراءنا أقرب إلى حالة رعاياهم أكثر من هذه السلطة الواسعة التي يمارسونها عليهم، ولا شيء غيرها يمكن أن يعرضهم لتقلبات ونزوات الثروة.

إن ممارستهم المتمثلة في إعدام كل من يغضبهم، لأدنى سبب، تُطيح بالتناسب الذي ينبغي أن يكون بين الأخطاء والعقوبات، والذي هو روح الدول وتناغم الإمبراطوريات. هذا التناغم، الذي يحرسه الأمراء المسيحيون بدقة، يمنحهم ميزة مطلقة على سلاطيننا.

إن الفارسي الذي، لحماقة منه أو لسوء حظ، قد أثار سخط الأمير، أصبح موته محققاً، فأدنى خطأ أو أدنى نزوة يقودانه إلى هذا المصير. وفيما لو كان قد حاول اغتيال ملكه، أو كان يريد أن يسلم مواقعه للأعداء، فإن الموت ينتظره في هذه الحالة أيضاً، لذلك لا يتعرض لخطر في الحالة الثانية أكثر مما كان عليه في الأولى.

وبما أنه يرى موتاً محققاً ولا يرى شيئاً أسوأ منه، فإنه يميل بطبيعة الحال إلى إزعاج الدولة والتآمر على الحاكم المُطلق، فهذه السبيل الوحيدة المتبقية له.

الأمر يختلف مع عظماء أوروبا، الذين لا يأخذ منهم سخط الملك سوى الإحسان والعطف، يغادرون البلاط ولا يفكرون إلا في الاستمتاع بحياة هادئة وبمزايا نسبهم. ونظراً إلى أنهم لا يُعاقبون بالموت إلا لجريمة

التعرض للذات الملكية، فإنهم يتحاشون الوقوع فيها من خلال التفكير فيما سيخسرونه، وقلة ما سيكسبونه، وبالتالي نرى القليل من الثورات ومن الأمراء الذين يُقتلون بعنف.

ومع هذه السلطة غير المحدودة التي يتمتع بها أمراؤنا، لو لم يتخذوا الكثير من الاحتياطات لتأمين حياتهم، فلن يعيشوا يوماً واحداً، ولو أنهم لم يجندوا عدداً لا يحصى من القوات من أجل اضطهاد رعاياهم، فلن تستمر إمبراطوريتهم لشهر واحد.

قبل أربعة أو خمسة قرون فقط، اتخذ ملك فرنسا[1] حرساً له، على غير المألوف في تلك الأزمنة، لحماية نفسه من القتلة الذين أرسلهم أمير صغير من آسيا،[2] حتى ذلك الحين، كان الملوك يعيشون بهدوء وسط رعاياهم كالآباء بين أبنائهم.

ليس أمراً مألوفاً أن يبادر ملوك فرنسا من تلقاء أنفسهم إلى قتل أحد الرعايا كما يفعل سلاطيننا، بل على العكس، فهم يعفون دائماً عن جميع المجرمين. يكفي لرجل محظوظ أن يرى الوجه المهيب لأميرِه، حتى يكون جديراً بالحياة. هؤلاء الملوك كالشمس التي تنشر الدفء والحياة في كل مكان.

من باريس، في الثامن من شهر ربيع الآخر من عام 1717

---

(1) الملك فيليب أوغست.

(2) عجوز الجبل.

الرسالة الثالثة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

استكمالاً لفكرة رسالتي الأخيرة، إليك ما قاله لي، وتقريباً بحذافيره، أوروبي ذو عقل في ذلك اليوم:

«إن أسوأ قرار اتخذه أمراء آسيا هو إخفاء أنفسهم كما يفعلون. وقد أرادوا بذلك أن يجعلوا من أنفسهم أكثر احتراماً، لكنهم زادوا في احترام الملكية وليس الملك، وعلقوا الرعايا بالعرش أياً كان وليس بملك معين.

هذه السلطة الخفية التي تحكم، هي نفسها دائماً بالنسبة إلى الشعب. على الرغم من أن عشرة ملوك، لم تُعرف إلا أسماؤهم، قد قُتلوا الواحد تلو الآخر، فإن الشعب لم يشعر بأي فرق، كما لو كانت الأرواح هي من تحكمه روحاً تلو أخرى.

لو كان القاتل البغيض الذي قتل ملكنا العظيم هنري الرابع قد وجه هذه الضربة إلى ملك من ملوك الهند يحمل الختم الملكي، وكنزاً هائلاً ظن أنه جمعه لنفسه، لكان استولى على عرش الإمبراطورية بهدوء، دون أن يفكر رجل واحد في المطالبة بملكه وعائلته وأطفاله.

من المدهش عدم وجود أي تغيير تقريباً في حكم أمراء الشرق، ومن أين يأتي هذا الجمود في التغيير إلا لكون الحكم استبدادياً ومخيفاً؟

لا يمكن للتغيير أن يقع إلا عن طريق الأمير أو الشعب، ولكن هنا يحرص الأمراء على عدم إجراء أي تغييرات، لأنهم ومع قوة كهذه، لديهم كل ما يمكنهم امتلاكه، إذا غيروا أي شيء فلن يكون ذلك إلا بفِقدان شيء من نفوذهم.

أما الرعايا، فإذا اتخذ أحد منهم قراراً ما لا يدري كيف ينفذه على الدولة، سيضطر فجأة إلى مواجهة قوة هائلة وفريدة من نوعها، إنه يفتقر إلى الوقت والوسائل، لكن لا خيار له إلا أن يذهب إلى مصدر هذه القوة، ولا يحتاج في ذلك إلا إلى ذراع واحدة ولحظة مناسبة. يتولى القاتل العرش أما الملك فيسقط صريعاً عند قدميه.

قد يفكر الساخط في أوروبا بالدخول في بعض المؤامرات السرية، أو الاستعانة بالأعداء، والاستيلاء على موقع ما، أو إثارة بعض الشائعات العبثية بين الناس. أما الساخط في آسيا فيذهب مباشرة إلى الأمير، يُرهب ويضرب ويُطيح بالعرش، يمحو بذلك حتى الفكرة القائمة حول العبد والسيد، حول المغتصب والشرعي، كل هذا في لحظة واحدة».

ويل للملك الذي لا يملك إلا رأساً واحداً فقط، فيبدو كما لو أنه جمع كل سلطته فيه فقط لكي يدل أول طامع بالعرش على المكان الذي سيجدها فيه كاملة.

من باريس، في السابع عشر من شهر ربيع الآخر من عام 1717

الرسالة الرابعة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

لا تخضع جميع شعوب أوروبا لأمرائها بذات القدر، فمثلاً، لا يترك مزاج الإنجليز القلِق وقتاً لملكهم من أجل ترسيخ سلطته. الخضوع والطاعة فضائل قلما يُلدغون بها. وفوق ذلك يقولون أشياء غريبة للغاية. حسب رأيهم، لا يوجد سوى رابط واحد يمكن أن يربط بين الناس، وهو رابط الامتنان، الزوج والزوجة والأب والابن، مرتبطون بعضهم ببعض فقط من خلال الحب الذي يحملونه، والمعروف الذي يتبادلونه. وهذه الدوافع المختلفة للامتنان هي أصل كل الممالك وجميع المجتمعات.

ولكن إذا ما رغب ملك في حرمان رعاياه من العيش بسعادة، وأراد التغلب عليهم وتدميرهم، فإن مبدأ الطاعة يتعطل، لا شيء يربطهم به ولا شيء يربطه بهم، ويعودون إلى حريتهم الطبيعية، ويعتمدون في ذلك على أن أي سلطة غير محدودة لا يمكن أن تكون شرعية، لأنه لا يمكن أن يكون لها أصل شرعي. فنحن لا نستطيع، كما يقولون، أن نعطي الآخر سلطة علينا أكثر مما نملك نحن على أنفسنا، وليس لدينا سلطة غير محدودة على أنفسنا، فمثلاً، لا يمكننا إنهاء حياتنا، لذلك لا أحد يمتلك مثل هذه السلطة على الأرض.

إن جريمة إهانة الذات الملكية، حسب رأيهم، ليست سوى الجريمة التي يرتكبها الأضعف ضد الأقوى بعصيانه، أياً كانت طريقة العصيان هذه. كما أعلن الشعب الإنجليزي، الذي وجد نفسه أقوى ما يكون ضد أحد ملوكه،[1] أن قيام أمير بمحاربة رعيته يعد جريمة إهانة للذات الملكية. لذلك فهم على حق عندما يقولون إن مبدأ قرآنهم[2] الذي يأمر بالخضوع للسلطات ليس من الصعب جداً اتباعه، لأنه لا يستحيل عليهم مراعاته، خاصة وأنهم لا يجبرون على الخضوع للأكثر فضيلة وإنما للأقوى.

يقول الإنجليز إن أحد ملوكهم، بعد أن غزا وأسر أميراً كان يُنازعه على التاج، أراد أن يوبخه على خيانته وغدره، فقال له الأمير الخائب: ما هي إلا لحظة واحدة فقط في حين قَرَّرتَ أيّنا هو الخائن.

إن مغتصباً أعلنهم على أنهم متمردين، لكن كل هؤلاء لم يضطهدوا البلاد مثله، واعتقاده أنه لا يوجد قانون حيث لا يوجد قضاة، فإنه يقدس نزوات الصدفة والحظ كأنها قرارات إلهية.

من باريس، في العشرين من شهر ربيع الآخر من عام 1717

(1) شارل الأول.

(2) العهد الجديد.

الرسالة الخامسة بعد المئة

من رضي إلى أوزبك في باريس

لقد حدثتني كثيراً، في إحدى رسائلك، عن العلوم والفنون الثقافية في الغرب. قد تعتبرني همجياً، لكنني لا أعرف ما إذا كانت الفائدة التي نستمدها منها تعوض الناس عن سوء استخدامهم لها على مر الأيام.

لقد سمعت أن مجرد اختراع القنابل سلب كل شعوب أوروبا حريتها. وعاد الأمراء لا يثقون بحراسة البرجوازيين لمواقعهم، لأنهم يتخلون عنها عند أول قنبلة، متذرعين بالانضمام إلى فيالقَ كبيرة في القوات النظامية، والتي اضطهدوا بها رعاياهم لاحقاً.

أنت تعلم أنه منذ اختراع البارود لم يعد هناك مكان منيع، وهذا يعني يا أوزبك أنه لم يعدْ هناك ملجأ على الأرض ضد الظلم والعنف. دائماً ما أرتعد خوفاً من أن نتوصل إلى اكتشاف سر قد يوفر أيسر الوسائل لإبادة البشر وتدمير الشعوب والأمم بأكملها.

لقد قرأتَ كتب المؤرخين، تأمل فيهم جيداً، لقد أُسِّسَت جميع الملكيات تقريباً على أساس الجهل بالفنون، ولم تندثر إلا لأنها نالت قدراً وافراً من الثقافة. والإمبراطورية الفارسية القديمة تقدم لنا مثالاً جلياً على هذا.

لم أمكث في أوروبا لفترة طويلة. لكني سمعت أناساً عقلاء يتحدثون عن ويلات الكيمياء.[1] يبدو أنها الوباء الرابع الذي يهلك البشر ويدمرهم شيئاً فشيئاً، ولكن بشكل مستمر، في حين أن الحرب والوباء والمجاعة تدمرهم بالجملة وإن كان ذلك على فترات متقطعة.

ما فائدة اختراع البوصلة، واكتشاف العديد من الشعوب، وقد أوصلت إلينا أمراضهم بدلاً من ثرواتهم؟ لقد اختِيرَ الذهب والفضة، حسب الاتفاق العام،[2] ليكونا سعراً كل السلع، وضماناً لقيمتها، لأن هذه المعادن كانت نادرة وغير مجدية لأي غرض آخر،[3] ما الضرر لو كانت أشمل؟ وأنه لتحديد قيمة سلعة ما، يكون لدينا نوعان أو ثلاثة أنواع من العملة بدلاً من واحدة. ألن يكون ذلك مريحاً أكثر؟

لكن، ومن ناحية أخرى، كان هذا الاختراع ضاراً جداً للبلدان التي اخترعته. لقد تدمرت أمم بأكملها، والبشر الذين نجوا من الموت رُدوا إلى عبودية قاسية، يرتجف المسلمون لمجرد ذكرها.

يا لسعادة أطفال المسلمين بجهلهم! البساطة المحببة والعزيزة على نبينا الكريم! إنك تذكرني دائماً ببساطة العصور القديمة والهدوء الذي ساد قلوب آبائنا الأوائل.

من البندقية، في الخامس من شهر رمضان من عام 1717

---

(1) يدعوها مونتسكيو بالخيمياء.

(2) ليس ميثاقاً عاماً، لكنها القيمة المعدنية لسعر كل من الذهب والفضة.

(3) لا يتم استخدام الذهب والفضة فقط كعملات، فهما بالإضافة إلى القصدير والنحاس معادن لها استخدامات أخرى أكثر تنوعاً.

الرسالة السادسة بعد المئة

من أوزبك إلى رضي

إما أنك لا تفكر فيما تقول، أو أنك تفعل أفضل مما تفكر. لقد تركت وطنك لتتعلم، وأنت تحتقر كل تعليم. أتيت لتكوين نفسك في بلد تزدهر فيه الفنون الجميلة، وها أنت تعتبرها ضارة. أأخبرك بذلك يا رضي؟ أنا أتفق معك أكثر مما تتفق أنت مع نفسك.

هل فكرت ملياً في الحالة البربرية التعيسة التي قادنا إليها فِقْدان الفنون؟[1] ليس عليك تخيل ذلك، يمكنك رؤيته. ما تزال هناك شعوب على الأرض يمكن لقرد متعلم قليلاً أن يعيش بينها بشرف، وسيكون فيها إلى حد ما مثل السكان الآخرين، لن يكون غريباً في تفكيره ولا عجيباً في شخصيته، سوف يمضي في حياته مثل أي شخص آخر، بل وسوف يتميز بلطفه.

أنت تقول إن جميع مؤسسي الإمبراطوريات تقريباً تجاهلوا الفنون. أنا لا أنفي لك أن الشعوب البربرية مثل السيول الجارفة، تستطيع أن تنتشر في الأرض، وتغطي جيوشها الشرسة أكثر الممالك تحضراً. لكن انتبه، لقد تعلموا الفنون، أو جعلوا الشعوب المغلوبة تمارسها، ولولا ذلك لاختفت قوتها كما يتلاشى صوت الرعد والعواصف.

---

(1) يضم مونتسكيو تحت هذا المسمى الفنون الجميلة والصناعات.

تقول إنك تخشى اختراع وسيلة تدمير أقسى من تلك المستخدمة حالياً. لا، لأنه إذا اكتُشِفَ اختراع قاتل، فمن حق الناس حظره فوراً، وموافقة الأمم بالإجماع ستدفن هذا الاكتشاف. ليس من مصلحة الأمراء القيام بغزوات بهذه الوسائل، لأنهم يبحثون عن شعوب وليس عن أراضٍ.

أنت تشتكي من اختراع البارود والقنابل. وتجد أنه من الغريب عدم وجود أماكن منيعة، وهذا يعني أنك تعجب لأن الحروب تنتهي اليوم أسرع مما كانت عليه في الماضي.

لا بد أنك لاحظت من خلال قراءة التاريخ، أنه ومنذ اختراع البارود أصبحتِ المعارك أقل دموية بكثير مما كانت عليه في السابق، لأنه من النادر جداً أن يلتحم جيشان.

وعندما يكون الفن ضاراً في حالة ما من الحالات، أينبغي علينا رفضه؟ هل تعتقد يا رضي أن الدين الذي أتى به نبينا الكريم من السماء خبيث، لأنه سيُستخدم في يوم من الأيام من أجل التشويش على المسيحيين الغادرين؟

أنت تعتقد أن الفنون تلين الشعوب، وبالتالي فهي سبب سقوط الإمبراطوريات. وتتحدث عن الدمار الذي لحق بالفرس القدماء، والذي كان نتيجة لينهم، لكن هذا المثال بعيد كل البعد عن اللزوم، لأن الإغريق الذين غزوهم مرات عديدة وأخضعوهم، اهتموا بالفنون اهتماماً لا متناهياً أكثر مما فعلوا هم.

عندما يقال إن الفنون تجعل الرجال مخنثين، فلا ينبغي أن يكون الحديث عن الذين يمارسونها، لأنهم ليسوا في حالة كسل، وهذه أكثر ما تقهر شجاعة الرجال من بين جميع الرذائل.

لذلك فإن الأمر يتعلق فقط بمن يستمتعون بالفن. وفي بلد متحضر، أولئك الذين يتمتعون بأحد الفنون ملزمون بممارسة فن آخر يعتاشون منه، كي لا يروا أنفسهم منحدرين إلى فقر مخزٍ، وعلى ذلك فإن الكسل والتراخي لا يتوافقان مع الفنون.

ربما تكون باريس المدينة الأكثر إثارة في العالم، حيث تتألق فيها الملذات أكثر من أي مكان، ولكنها ربما تكون المدينة الأصعب للعيش. فلكي يعيش فرد واحد في نعيم، يتطلب الأمر جهداً متواصلاً من مئة إنسان آخر. إن قررت امرأة أن عليها الحضور إلى مجتمع بمظهر معين، اعتباراً من هذه اللحظة، على خمسين عاملاً ألا يناموا، وألا يتفرغوا للشرب أو الأكل، لقد أمرت فأُطيعت أسرع مما يُطاع ملكنا، لأن الكسب أعظم ملك على وجه الأرض.

هذه الحماسة للعمل، والشغف بالثراء، ينتقل من طبقة إلى أخرى، من الحرفيين إلى العظماء. ولا أحد يحب أن يكون أفقر من الذي يليه مباشرة. قد ترى رجلاً في باريس لديه ما يكفيه ليعيش حتى يوم القيامة، يعمل بلا انقطاع، ويخاطر مختصراً أيام عمره ليجمع، كما يقول، ما يعيش به.

نفس هذا الاعتقاد يغلب على الأمة كلها. فلا تجد فيها إلا العمل والصناعة. فأين إذن هذا الشعب المخنث الذي تتحدث عنه كثيراً؟

لنفترض يا رضي أن مملكة ما لم تسمح إلا بالفنون الضرورية جداً لحراثة الأرض، وهي مع ذلك فنون شتى، وأنها استبعدت كل الفنون التي تخدم المتعة أو اللذات، أنا أؤيدها، لكن هذه الدولة ستكون واحدة من أكثر الدول بؤساً في العالم.

عندما يكون لدى السكان ما يكفي من الشجاعة للاستغناء عن الكثير من الأشياء التي تلبي احتياجاتهم، فإن الشعب يتدهور يوماً بعد يوم، وتضعف الدولة كثيراً بحيث لن يكون لديها من القوة الكافية لرد الغزاة.

سيكون من السهل الخوض في الإسهاب في التفاصيل، وأوضح لك أن دخل الأفراد يكاد يتوقف تماماً، وبالتالي تنقطع موارد الملك. تكاد تنعدم صلة الكفاءات بين المواطنين، ويبلغ التداول المالي نهايته، ونمو الدخل الذي يأتي من اتصال الفنون بعضها ببعض، كل فرد سيعيش من إنتاج أرضه، ولن يحصل منها إلا على ما يكاد يكفيه حتى لا يموت من الجوع. وبما أن ذلك في بعض الأحيان لا يمثل إلا عشرين في المئة من إيرادات الدولة، فإن عدد السكان يجب أن ينخفض بشكل متناسب، ولن يبقى منهم سوى عشرين من المائة.

انتبه جيداً إلى أي مدىً تبلغ مداخيل الصناعة. إن رأس المال لا يربح سنوياً إلا عشرين بالمئة فقط من قيمته، ولكن بقيمة ضئيلة من الألوان، يرسم الرسام لوحة تساوي خمسين ديناراً. ويمكن قول الشيء نفسه عن الصاغة وعمال الغزل والحرير وجميع أنواع الحرفيين.

من كل هذا يجب أن نستنتج، يا رضي، أنه لكي يكون الأمير قوياً، يجب أن يعيش رعاياه في رخاء، وعليه أن يعمل من أجلهم على تأمين جميع أنواع الكماليات كما هو الحال بالنسبة إلى ضرورات الحياة.

من باريس، في الرابع عشر من شهر شوال من عام 1717

الرسالة السابعة بعد المئة

من ريكا إلى إيبين في إزمير

لقد رأيت الملك الشاب،[1] إن حياته ثمينة جداً عند رعاياه، وليست أقل من ذلك قيمة عند أوروبا كلها بسبب الاضطرابات الكبيرة التي قد يسببها موته. لكن الملوك مثل الآلهة، وأثناء حياتهم، يجب أن يُعتقد أنهم خالدون. وجه جليل لكنه ساحر، يبدو أن التربية الصالحة تعاونت مع طيب أصله[2] ليكون أميراً عظيماً.

يقال إنه لا يمكن الحكم على سلوك ملوك الغرب، حتى يجتازوا الاختبارين العظيمين: النساء، ورجال الدين. وكلا الطرفين يعمل للسيطرة على هذا الملك الذي سيخوض من أجل ذلك معارك كبيرة. فهاتان القوتان متنافستان تحت حكم أمير شاب، لكنهما تتصالحان وتتحدان في ظل حكم ملك عجوز. ففي حكم أمير شاب، يكون دور رجل الدين صعب الرسوخ، لأن قوّة الملك ضعفه، ولكن الأخير ينتصر إذا ضعُف الملك.

عندما وصلت إلى فرنسا، وجدت الملك الراحل محكوماً بالنساء تماماً. ومع أنه في مثل هذا العمر، أعتقد أنه كان أقل ملوك الأرض حاجة

---

(1) لويس الخامس عشر، المولود في 13 شباط 1710.

(2) مذكرات ماتيو ماريه، ص: 104 وما يليها.

إليهن. ذات يوم سمعت امرأة تقول: يجب عمل شيء لهذا الضابط الشاب. فأنا أعرف قدره، وسوف أتحدث إلى الوزير بخصوصه. وقالت أخرى: من الغريب أن هذا الشماس قد نسي، يجب أن يكون قساً، فهو ذو نسب، ويمكنني أن أشيد بأخلاقه. مع ذلك، يجب ألا تتخيل أن أولئك اللواتي تحدثن هكذا كنَّ مفضلات لدى الأمير، ربما لم يتحدثن إليه أكثر من مرتين في حياتهن، وهذا شيء من السهل جداً القيام به عند الأمراء الأوروبيين. ولكن لا يوجد شخص في البلاط، من باريس أو من الأقاليم، ليس لديه امرأة تدفعه بيديها، فينال فضلاً أو ينجو من عقاب على ظلم أقترفه.

كل هؤلاء النساء لديهن علاقات مشتركة، ويشكلن نوعاً من جمهورية أعضاؤها ناشطات، يُساعدن ويخدمن بعضهن بعضاً، وكأنهن دولة جديدة داخل الدولة. إن من يرى في البلاط، في باريس أو في الأقاليم، الوزراء والحكام والأساقفة كيف يتصرفون، ولم يلفت انتباهه أن النساء يهيمنّ عليهم، مثله مثل الرجل الذي يرى آلة تعمل، لكنه لا يعرف الزنبرك الذي يحركها.

هل تعتقد يا إيبين أن امرأةً تقرر أن تكون عشيقة لوزير فقط كي تنام معه؟ أي فكرة هذه! إنما تريد أن تعرض عليه خمس أو ست طلبات كل صباح، وتوحي بأن طبيعتها الطيبة تدفعها إلى فعل الخير لعدد غير محدود من التعساء، لكن هؤلاء يوفرون لها دخلاً يبلغ مئة ألف جنيه.

يشكو الناس في بلاد فارس من أن المملكة تحكمها امرأتان أو ثلاث، لكن الوضع أسوأ بكثير في فرنسا، حيث تحكم النساء بشكل عام، وهذا الحكم لا يكون جماعياً، بل يتقاسمن السلطة بينهن.

من باريس، في آخر يوم من شهر شوال من عام 1717

الرسالة الثامنة بعد المئة

من أوزبك إلى...

يوجد نوع من الكتب لا نعرفه في بلاد فارس، ويبدو لي رائجاً جداً هنا: إنها الصحف.[1] يدفع الكسل إلى قراءتها، فمن الممتع قراءة ثلاثين مجلداً في ربع ساعة.

في معظم الكتب، لا يكاد ينتهي المؤلف من الإطراء المعتاد، حتى يستاء منه القراء، ثم يدخلهم وهم نصف أموات في مادة غارقة وسط بحر من الكلمات. يريد هذا المؤلف تخليد اسمه بالقطع الصغير، وذاك يسعى إلى الخلود بالقطع المتوسط، وآخر بالقطع الكبير. لذلك على المؤلف توسيع موضوعه حسب القطع المناسب، وهو ما يفعله بلا رحمة، دون مراعاة عناء القارئ المسكين، الذي يقتل نفسه في إيجاز ما أجهد المؤلف نفسه في إطالته.

لا أعرف ما الفائدة من القيام بمثل هذه الأعمال، سأفعل الشيء نفسه إذا كنت أرغب في تدمير كلٍّ من صحتي وبائع الكتب.

---

(1) لم تكن الصحف الفرنسية في القرن الثامن عشر سوى نشرات دورية، صغيرة الحجم، ولا تحتوي إلا على مراجعات للكتب الجديدة. لم تظهر حرية الصحافة في فرنسا إلا في عام 1789.

إن خطأ الصحفيين الأكبر هو أنهم لا يتحدثون إلا عن الكتب الجديدة، كما لو أن الحقيقة دائماً جديدة. يبدو لي أنه لو أُتيح لرجل قراءة جميع الكتب القديمة لما بقي لديه سبب لتفضيل الكتب الجديدة عليها.

لكن عندما يفرضون على أنفسهم قانون التحدث عن الأعمال حديثة التأليف فقط، فإنهم يفرضون على أنفسهم قانوناً آخر وهو أن هذه الأعمال ستكون مملة للغاية. وهم غير مهتمون بنقد الكتب التي يقتبسون مقتطفات منها، أياً كانت أسبابهم، فمن هو ذاك الجريء كفاية حتى يصنع لنفسه عشرة أعداء أو اثني عشر كل شهر؟

معظم المؤلفين أشبه بالشعراء الذين يعانون من ضربات العصي المتوالية دون شكوى، والذين يتلقونها على أكتافهم، لكنهم يجزعون على أعمالهم ولا يستطيعون احتمال أقل نقد قد يطالها. لذلك يجب الحرص الشديد على عدم مهاجمتهم من هذه الناحية، يعرف الصحفيون ذلك جيداً، لذلك يفعلون العكس تماماً: يبدؤون بالإشادة بالمادة التي تُحَرَّر، وهذا تملق منهم، ثم ينتقلون إلى مديح المؤلف، وهو مديح قسري، لأنهم يتعاملون مع أناس على أهبة الاستعداد، متأهبين تماماً كي يُعيدوا كل صحفي متهور إلى رشده بجرة قلم منهم.

من باريس، في الخامس من شهر ذي القعدة من عام 1718

الرسالة التاسعة بعد المئة

من ريكا إلى...

إن جامعة باريس هي الابنة البكر لملوك فرنسا، والأكبر على الإطلاق لأن عمرها تجاوز تسعمئة سنة: هكذا تحلم أحياناً.

رُوي لي عن خلاف كان بين بعض علمائها منذ مدة من الزمن، حول الحرف (Q[1]) حيث أرادت الجامعة أن يُنطق مثل K. احتدم الخلاف إلى درجة أن البعض حُرم من ممتلكاته، كان على البرلمان أن يضع حداً للنزاع. وقد منح الإذن بموجب مرسوم رسمي، لجميع رعايا ملك فرنسا، بنطق هذا الحرف كما يشاؤون. كان من الجميل رؤية أكثر الهيئتين احتراماً في أوروبا مشغولتين بتقرير مصير حرف من الأبجدية.

يبدو يا عزيزي... أن رؤوس أعظم الرجال تنكمش عندما تكون مجتمعة، وأن الحكمة تقل حيث يكثر العقلاء. إن الهيئات العظيمة دائماً ما تهتم بالتفاصيل الصغيرة، وبالاستخدامات العبثية، بحيث لا يأتي الجوهري إلا متأخراً. لقد سمعت أن ملك أراغون[2] قد جمع ولاة

---

(1) يقصد حرب راموس (M. Ramus): أستاذ في الكلية الملكية، كان يريد لكلمات مثل kiskis و kankan أن تُنطق quisquis و quanquam. معارض كبير لأرسطو، اغتيل على يد أتباع الجامعة عام 1572.

(2) كان هذا في عام 1610.

أراغون وكتالونيا، وقد شُغلت الجلسات الأولى لتحديد اللغة التي ستتم بها المناقشات. كان الخلاف محتدماً، وأوشكت العلاقات بين الولايات أن تنقطع ألف مرة، لولا أن قُدم الحل بأن يُطرَح السؤال باللغة الكتالونية، والإجابة باللغة الأراغونية.

من باريس، في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة من عام 1718

الرسالة العاشرة بعد المئة

من ريكا إلى...

إن الدور الذي تلعبه امرأة جميلة أخطر مما يمكن لإنسان تصوره. ليس لديها ما هو أهم من الوقت الذي تقضيه صباحاً في زينتها محوطة بخدمها، وإن جنرالاً في الجيش لا يولي اهتماماً لتنظيم فيلقه العسكري كاهتمامها في وضع شامةٍ ليست لديها على وجهها، تأمل وتتوقع نجاحاً بها.

أي جهد فكري، وأي مراعاة ينبغي أن تبذلها للتوفيق المستمر بين مصالح اثنين من المتنافسين في ودها، ولتبدو محايدة لكليهما، بينما تستسلم لهما واحداً بعد الآخر، وأن تصبح وسيطاً في جميع مواضيع الشكوى التي تسببها لهما.

يا له من انشغال في خلق أسباب السعادة وتعاقُبها وتجدُّدها، وتوقُّع كل الحوادث التي يمكن أن تفسد هذه المسرات!

مع كل هذا، لا تكمن الصعوبة في الابتهاج، ولكن في التظاهر به. أزْعِجْهن بقدر ما تريد فسوف يغفرن لك، ما دمْنَ يعتقدن أنهن استمتعن بوقتهن.

قبل أيام قليلة حضرتُ عشاء أقامته بعض السيدات في الريف. كن يقلن على طول الطريق: على الأقل يجب أن نستمتع. وجدنا أنفسنا مجموعة

غير متناسبة، وبالتالي كنا جادين في سهرتنا. قالت إحدى النساء: يجب الاعتراف بأننا تسلينا كثيراً، ولا يوجد اليوم في باريس مجموعة أكثر بهجة من جمعنا. عندما استولى عليّ الملل هزتني امرأة وقالت: «حسناً، ألَنت في مزاج جيد؟ أجبتها وأنا أتثاءب: نعم، أعتقد أنني سأموت من الضحك». ومع ذلك لطالما كان الحزن يهزم الأفكار، بالنسبة إليّ، فقد شعرت أنني منقاد من تثاؤب إلى تثاؤب ثم إلى نوم بليد أنهى كل مسراتي.

من باريس، في الحادي عشر من شهر محرم من عام 1718

الرسالة الحادية عشرة بعد المئة[1]

من أوزبك إلى...

(1) أستعير من نسخة السيد أندريه لوفيفر الملاحظة التالية: هذه الرسالة موجودة بالفعل في جزء كبير منها في الطبعة الثانية في كولونيا لعام 1721، عند ب. مارتو (رقم 58) بعنوان وتاريخ مختلفين. ها هي بدايتها مع التعديلات:

من ريكا إلى...

الناس حيوانات ترى وتسمع لكنها لا تفكر أبداً. سواء كانوا في حالة خمول أو في حالة من الهياج المفاجئ، ويتنقلون باستمرار بين هاتين الحالتين، دون أن تعرف أبداً من أين بدؤوا.

لقد سمعت في فرنسا عن أحد حكام نورماندي، والذي يرغب بلفت الأنظار إليه في البلاط، هو نفسه يثير من وقت لآخر بعض الفتن التي كان يُخمدها على الفور. وقد اعترف حينها أن الفتنة الأكبر لم تكلفه سوى نصف تومان. كان قد جمع عدداً من الأوغاد في ملهى يطلق الشائعة إلى المدينة بأكملها، ثم إلى كامل المقاطعة.

هذا يذكرني برسالة كتبها أحد الجنرالات في تلك المدينة إلى أحد أصدقائه خلال الاضطرابات الأخيرة في باريس.

لقد أرسلت القوات إلى خارج المدينة منذ ثلاثة أيام، لكنهم تعرضوا لهزيمة نكراء. ومع ذلك، فإنني أحسب أنني سأصلح هذا الفشل بسهولة، لدي ست مقطوعات، إلخ...

إذا لم يكن ذلك كافياً، فقد تقرر في المجلس نشر لوحة تظهر مازاران مشنوقاً، وإذا تطلب الأمر أكثر، فستكون لدينا الموارد لإصدار أمر للنقاش برسمه مُعذباً...

احكم بعد ذلك إذا كان الناس مخطئين في الاندفاع وجعل اسم مازاران مصطلحاً، إلخ...

من باريس، في التاسع من ذي القعدة، 1715.

كان عهد الملك الراحل طويلاً إلى درجة أن النهاية جعلت البداية منسية. والدارج اليوم ألا يتم الحديث إلا عن الحوادث التي جرت عندما كان تحت الوصاية، ولا تُقرأ إلا المذكرات التي كتبت عن تلك الحقبة.

إليك الخطاب الذي ألقاه أحد جنرالات مدينة باريس[1] في مجلس حربي، وأعترف أنني لم أفهم الكثير منه:

«أيها السادة، على الرغم من أن جنودنا هُزموا هزيمة فادحة، أعتقد أنه سيكون من السهل علينا إصلاح هذه الخسارة. لدي ست مقطوعات غنائية جاهزة للكشف عنها، وأنا متأكد أنها ستضع الأمور في نصابها. لقد اخترت بعض الأصوات الصافية جداً والتي تخرج من أعماق صدور قوية جداً، ستحرك مشاعر الناس بشكل رائع. فقد لُحنت حتى الآن بشكل فريد جداً.

وإذا لم يكن هذا كافياً، فسوف ننشر لوحة تظهر مازاران مشنوقاً. لحسن الحظ بالنسبة إلينا إنه لا يتحدث الفرنسية جيداً، وقد أساء استخدامها كثيراً لدرجة أن مصالحه قد تنهار جراء ذلك. لن نعجز عن لفت انتباه الشعب إلى اللهجة السخيفة التي ينطق بها.[2] لقد كشفنا قبل أيام قليلة عن خطأ نحوي فادح إلى درجة أنه أصبح مثار ضحك في جميع الأنحاء.

آمل أنه قبل مرور ثمانية أيام، سيصنع الناس من اسم مازاران مصطلحاً للتعبير عن كل البهائم التي تحمل الأثقال، وتجر العربات.

---

(1) يُعتقد أن مونتسكيو يصف هنا شارل دو موشي دو هوكينكورد، الذي أصبح مارشال فرنسا في 1631. يجب الاعتراف هنا أن هذه السخرية أتت متأخرة.

(2) أراد الكاردينال مازاران نطق كلمة مرسوم (union) أمام نواب البرلمان فنطقها (بصل ognon)، وهذا ما أثار سخرية الشعب كثيراً.

منذ هزيمتنا، أغاظته موسيقانا كأنما قد اقترف الخطيئة الآدمية، وحتى لا يرى مؤيديه يتقلصون إلى النصف، اضطر مازاران إلى طرد جميع معاونيه.

انتعشوا إذن، وتحلوا بالشجاعة، وتأكدوا أننا سنجعله يعبر الجبال عند أول نفخة».

من باريس، في الرابع من شهر شعبان من عام 1718

الرسالة الثانية عشرة بعد المئة

من رضي إلى أوزبك في باريس

أثناء إقامتي في أوروبا، قرأت ما كتبه المؤرخون القدامى والمحدثون: وقارنت جميع الأزمنة بعضها ببعض، أسعدني أن أراها، إذا جاز التعبير، تمر أمامي، وكنت أتوقف متأملاً تلك التغييرات العظيمة التي جعلتِ العصور مختلفة جداً عن عصور أخرى، كأنما الأرض عادت غير ذات الأرض.

ربما لم تنتبه إلى شيء يثير دهشتي كل يوم: كيف أصبح السكان في العالم أقل عدداً مقارنة بما كانوا عليه من قبل؟[1] وكيف أمكن أن تفقد الطبيعة خصوبتها المذهلة التي كانت في الأزمنة الأولى؟ هل بلغت شيخوختها؟ واعتراها الوهن؟

مكثت أكثر من عام في إيطاليا، حيث لم أرَ فيها إلا بقايا دولة قديمة كانت مشهورة جداً في الماضي. مع أن الجميع يعيشون في المدن، فإنها بدت مهجورة وخالية من السكان، كأن هذه المدن ما زالت قائمة فقط لتدل على الأمكنة حيث كانت عامرة فيها مدن قوية تحدث عنها التاريخ كثيراً.

---

(1) إن عدد سكان بعض البلدان اليوم أقل مما كانت عليه في العصور القديمة يمكن تفسيره بأكثر من سبب، لكن أن العالم أقل سكاناً من ذي قبل هو ادعاء بلا دليل. يجب إثبات الحقيقة قبل البحث عن الأسباب.

هناك من يدعي أن مدينة روما وحدها كانت تضم في يوم من الأيام عدداً من الناس يفوق ما تضمه مملكة أوروبية عظيمة اليوم.(1) كان لدى أي مواطن روماني عشرة بل وعشرون ألف عبد، دون احتساب أولئك الذين عملوا في بيوته الريفية، وبما أنه كان هناك أربعمئة أو خمسمئة ألف مواطن، فلا يمكن تحديد عدد سكانها دون أن ينشط خيالنا.

كانت هناك في السابق، في صقلية، ممالك قوية، ووفرة من الشعوب التي اختفت منذ ذلك الحين، وعاد لا يوجد في هذه الجزيرة ما يثير الاهتمام إلا براكينها. واليونان غدت مقفرة إلى درجة أنها لا تحتوي إلا على عُشر سكانها القدماء.

أما إسبانيا التي كانت مزدحمة في يوم من الأيام، لا يُرى فيها اليوم سوى أرياف خاوية، وفرنسا ليست شيئاً مقارنة ببلاد الغال القديمة التي تحدث عنها قيصر.(2)

وبلاد الشمال كانت أرضاً جدباء تماماً، مما اضطر شعوبها إلى تقسيم أنفسهم وإرسال أفواج منهم، كأنهم أسراب طيور مهاجرة ومستعمرات وأمم بأسرها، للبحث عن مواطن جديدة.(3)

بولندا وتركيا أيضاً تكاد تخلوان من السكان.

---

(1) إنها معضلة. تثبت مساحة روما التي تم تحديدها من خلال جدارها القديم الذي لا يزال قائماً، أن السكان الذين عاشوا في هذه البقعة لم يكن من الممكن أن يرتفعوا إلى رقم كبير جداً كالمذكور.

(2) هنا أيضاً مفرّقة، فبلاد الغال التي يتحدث عنها قيصر كانت مغطاة بالحصون. ازدهار وسقوط الرومان، المقطع: 16.

(3) لم تتوقف ألمانيا عن الهجرة.

وفي أمريكا لا نجد جزأين من مئة من السكان الذين بنوا مثل هذه الإمبراطوريات العظيمة.

وآسيا ليست في حال أفضل. فهذه آسيا الصغرى التي ضمت العديد من الملكيات القوية، وعدداً هائلاً من المدن الكبرى، لم يبقَ منها سوى مدينتين أو ثلاث. أما بالنسبة إلى آسيا الكبرى التي كانت خاضعة للأتراك فعادت غير عامرة بالسكان، وتلك التي تحت سيطرة ملوكنا، إذا قارناها بالحالة المزدهرة التي كانت عليها سابقاً، فسنرى أنه عاد لا يكون فيها سوى عدد قليل جداً من السكان الذين كانوا هناك بأعداد لا تُحصى في زمن سركسيس وداريوس.

أما الدول الصغيرة التي تحيط بهذه الإمبراطوريات العظيمة، فهي مهجورة تماماً. مثل إيريميت وشركاسيا وجوريل، هؤلاء الأمراء مع ممالكهم الشاسعة، بالكاد يبلغ عدد سكانهم خمسين ألفاً.

ومصر لم تكن أقل تناقصاً بالسكان من الدول الأخرى.

وأخيراً، ها أنا أجوب الأرض، فلا أجد سوى الخراب، كأني أراها خارجة من ويلات الطاعون والمجاعة.

لطالما كانت إفريقيا مجهولة لدرجة أنه لا يمكن الحديث عنها بدقة، كما نتحدث عن أجزاء أخرى من العالم، ولكن إذا لم ندقق إلا على سواحل البحر الأبيض المتوسط المعروفة منذ زمن بعيد، لرأينا أن سكانها قد تناقصوا بشدة عما كانوا عليه في عهد القرطاجيين والرومان، وملوكها اليوم من أضعف ملوك العالم.

بعد إجراء عملية حسابية دقيقة كما هو الحال في هذه المواضيع،

وجدت أنه بالكاد هناك عُشر البشر الذين كانوا على هذه الأرض في الأزمنة القديمة. المدهش في الأمر أنها تُفَرَّغ من سكانها كل يوم.[1] وإذا استمر هذا فستكون الأرض في غضون عشرة قرون مجرد صحراء خاوية.

وهذه يا عزيزي أوزبك أفظع كارثة حدثت في العالم، لكن لم يُلاحظ ذلك أحد قط، لأنها تحدث بشكل غير محسوس، وعلى مدار عدد كبير من القرون، ما يدل على نقيصة داخلية، أو سمٍّ خفيٍّ، أو مرض شديد يصيب الطبيعة البشرية.

من البندقية، في العاشر من شهر رجب من عام 1718

(1) هذا نقيض الحقيقة، على الأقل بالنسبة إلى أوروبا وأمريكا.

الرسالة الثالثة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى رضي في البندقية

إن العالم يا عزيزي رضي غير قابل للفساد، كذلك السماوات، وعلماء الفلك شهود عيان على تغيراته كنتيجة طبيعية تماماً لحركة المادة في الكون.

تخضع الأرض، مثل الكواكب الأخرى، لقوانين الحركة. وتعاني في داخلها من صراع دائم مع مفاهيمها، والبحر واليابسة يبدوان في حرب أبدية تنتج عنها أوضاع جديدة.

والناس، في هذا الملجأ الخاضع للتغيير، في حالة من عدم اليقين، مئة ألف سبب قادر على تدميرهم، وفي حالات أخرى زيادة أو تقليل عددهم.

لن أحدثك عن كوارث محددة ومعروفة لدى المؤرخين، تلك التي دمرت مدناً وممالك بأكملها، هناك كوارث عامة وضعت في كثير من الأحيان الجنس البشري على شفا الانهيار.

التاريخ مملوء بالأوبئة العامة التي تناوبت على تدمير الكون. يتحدث التاريخ عن واحد منها، كان عنيفاً جداً إلى درجة أنه أحرق حتى جذور النباتات، وظهر في جميع أنحاء العالم المعروف، حتى في إمبراطورية كاتاي،[1] ولو اشتد هذا الوباء أكثر، لقضى على البشرية كلها في يوم واحد.

---

(1) الصين.

لم يمضِ قرنان على أشنع الأمراض التي ظهرت في أوروبا وآسيا وأفريقيا، الوباء الذي أحدث في وقت قصير جداً آثاراً فادحة. ولو استمر بنفس الحدة لقضى على البشر. مثقلين بالعلل منذ ولادتهم، وغير قادرين على تحمل ثقل أعباء المجتمع، كان يمكن أن يلقوا حتفهم بشكل بائس جداً.

ماذا كان ليحدث لو انتشر السم أكثر من ذلك؟ وكان من الممكن أن يصبح الأمر كذلك بلا شك، لو لم نكن محظوظين بما يكفي لإيجاد علاج قوي كالذي اكتشفناه.[1] ربما كان هذا المرض الذي قضى على جزء من الجنس البشري، سيقضي على كامل البشرية.

ولماذا الحديث عن الدمار الذي كان يمكن أن يحدث للجنس البشري؟ ألم يحصل بالفعل؟ ألم يُقلصه الطوفان إلى أسرة واحدة فقط؟

هناك فلاسفة يميزون بين نوعين من الخلق: خلق الأشياء وخلق الإنسان. ولا يمكنهم فهم أن المادة والأشياء المخلوقة عمرها ستة آلاف سنة فقط. وأن اللّٰه قد أجّل أعماله منذ الأزل، ولم يستخدم قوته في الخلق إلا أمس. هل يمكن أن يكون ذلك لعدم قدرته، أو لأنه لا يريد؟ لكنه إن لم يستطع الخلق في زمن ما فلن يستطيع الخلق في أي زمن آخر. لذلك فالسبب أنه لم يكن يريد. وبما أنه لا خلف لله، وإذا سلّمنا أنه أراد شيئاً مرة واحدة فهذا يعني أنه يريده دائماً ومنذ البدء.

ومع ذلك فقد حدثنا المؤرخون عن الأب الأول، وأظهروا لنا نشأة البشرية. أليس من الطبيعي الاعتقاد بأن آدم قد نجا من بلاء عام كما نجا

---

(1) الزئبق.

نوح من الطوفان، وأن هذه الحوادث العظيمة تكررت على الأرض منذ خلق العالم؟

لكن لم تكن كل الكوارث عنيفة. ونرى بقاعاً كثيرة من الأرض أُجهدت من توفير لقمة العيش للناس، ما أدرانا إذا لم يكن للأرض أسباب عامة وبطيئة وخفية لهذا الإجهاد؟

كنت سعيداً جداً بتقديم هذه الأفكار العامة، قبل الرد بشكل أكثر تحديداً على رسالتك حول نقص السكان، والذي حدث منذ سبعة عشر إلى ثمانية عشر قرناً. وسأريك في رسالة لاحقة، أنه وبغض النظر عن الأسباب المادية، هناك أسباب أخلاقية أحدثت هذا الأثر.

من باريس، في الثامن من شهر شعبان من عام 1718

الرسالة الرابعة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

إنك تبحث عن سبب انخفاض عدد سكان الأرض عما كانوا عليه قديماً، وإذا تمعنت جيداً سترى أن الاختلاف الكبير يأتي من اختلافٍ حصل في الأخلاق والقيم.

منذ أن اقتسم الدينان الإسلامي والمسيحي العالم الروماني، تغيرت أمور كثيرة، هذه الديانات بعيدة عن أن تكون مواتية لتكاثر النوع البشري كما كان الحال لدى أسياد الكون الرومان.

في المسيحية، كان تعدد الزوجات ممنوعاً، وفي هذا كانت لها ميزة كبيرة على الدين الإسلامي. أما الطلاق فكان مسموحاً في الإسلام، مما أعطاه ميزة مهمة على الدين المسيحي.

لا أرى ما هو أكثر تناقضاً من هذه التعددية في النساء التي يسمح بها القرآن الكريم، وأمر العدل بينهن الوارد في نفس الكتاب. اعتنوا بزوجاتكم، يقول النبي، فأنتم حاجة لهن كحاجتهن إلى الكسوة، وهن حاجة لكم كحاجتكم إلى كسوتكم، إنها وصية تجعل حياة المسلم الحقيقي مرهقة للغاية. من كان له أربع زوجات مُعترف بهن حسب القانون، وعدد محدود من المحظيات أو العبيد، ألا يجب أن يكون مُثقلاً بملابس كثيرة؟

ويقول النبي أيضاً: نساؤكم هن عونكم، لذلك تقرّبوا منهن، وأحسنوا إليهن خيراً، تلقون منهن خيراً.

أنا أرى المسلم الصالح كالرياضي، مُقدّراً له القتال بلا كلل، لكنه سرعان ما يَضعُف ويُثقل بتعبه، ويدركه الهوان في ميدان النصر ذاته، ويجد نفسه إن جاز التعبير مدفوناً تحت وطأة انتصاراته.

تعمل الطبيعة ببطء دائم، وإذا جاز التعبير باقتصاد، فعملياتها غير عنيفة أبداً. حتى في إنتاجها تطلب الاعتدال، ولا تسير إلا بالمسطرة والقياس. وإذا تعجلناها، سرعان ما تُصاب بالوهن، فتوظف كل القوة المتبقية لديها لحماية نفسها، فاقدةً بذلك فضيلتها الإنتاجية وقدرتها الإبداعية.

يضعنا العدد الكبير من الزوجات في حالة من الفشل المشابه لحالة الطبيعة، وبشكل منهك أكثر من كونه مُرضياً، ومن المألوف جداً لدينا أن نرى رجلاً في قصر عجيب مع عدد قليل جداً من الأطفال الذين هم، في معظم الوقت، ضعفاء وغير أصحاء، ويشعرون بفتور والدهم.

ليس هذا كل شيء، فهؤلاء النساء اللائي أُجبرن على كبح أنفسهن عَنوةً، يحتجن إلى من يحرسهن، وهؤلاء الحراس لا يمكن أن يكونوا سوى خصيان، فالدين والغيرة والمنطق نفسه لا يسمحون للآخرين بالاقتراب منهن، ويجب أن يكون هؤلاء الحراس بأعداد كبيرة، إما من أجل الحفاظ على الهدوء وسط الحروب التي تخوضها هؤلاء النساء باستمرار في الداخل، أو لمنع المؤامرات من الخارج. والرجل الذي له عشر زوجات أو محظيات ليس لديه ما يكفي من الخصيان لحراستهن. يا لها من خسارة للمجتمع هذا العدد الكبير من الرجال

الذين يموتون منذ ولادتهم! ويا له من انخفاض في السكان يتوجب على تلك الخسارة.

فالفتيات المستعبدات اللائي يعملن في القصر مع الخصيان في خدمة هذا العدد الكبير من النساء، غالباً ما يتقدّمن في السن عذراوات حيث لا يمكنهن الزواج أثناء إقامتهن في القصر، وسيداتهن المعتادات وجودهن نادراً ما يتركنهن يرحلن.

هذه هي الطريقة التي يسيطر بها رجل واحد على الكثير من رعاياه من كلا الجنسين من أجل ملذاته، يدفعهم إلى الموت من أجل الدولة ويقضي على دورهم في تكاثر النوع البشري.

القسطنطينية وأصفهان عواصم لأكبر إمبراطوريتين في العالم، هناك حيث يجب أن يكون المبتغى، فالشعوب التي وصلت لأسباب شتى، تنطلق في جميع الأصقاع. لكن هذه الإمبراطوريات تقتل نفسها بنفسها. وسرعان ما ستفنى، إذا لم يأتِ الملوك هناك بأمم كاملة ويعيدوا توطينهم كل قرن تقريباً. سوف أستفيض في هذا الموضوع في رسالة أخرى.

من باريس، في الثالث عشر من شهر شعبان من عام 1718

الرسالة الخامسة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

لم يكن لدى الرومان عبيد أقل مما لدينا، بل كان لديهم عبيد أكثر مما نملك، لكنهم استفادوا منهم بشكل أفضل.

وقد كانوا أبعد ما يكونون عن منع تكاثر هؤلاء العبيد بالطرق القسرية، بل على العكس كانوا يشجعونهم بكل قوتهم، فقاموا قدر استطاعتهم بالجمع بينهم بمختلف أنواع الزيجات، وبهذه الطريقة ملؤوا منازلهم بالخدم من كلا الجنسين والأعمار، كما ملؤوا الدولة بشعب لا يُحصى عدده.

هذا النسل الذي أكسب سيده ثروة على المدى الطويل، أولاد بلا حصر من حوله، وهو وحده المسؤول عن إطعامهم وتربيتهم، أما الآباء المتحررون من هذا العبء، فيتبعون فقط نداء الطبيعة ويتكاثرون دون الخوف من تضخم حجم العائلة.

لقد قلت لك إن كل العبيد عندنا مشغولون بحراسة نسائنا، ولا شيء غير ذلك، أما فيما يتعلق بالدولة، فهم في سبات دائم، بحيث من الضروري أن يوكل إلى عدد قليل من الرجال الأحرار ومن أرباب الأسر ممارسة الصناعة وحراثة الأرض، التي لا يبذلون فيها إلا جُهداً يسيراً.

لم يكن الحال نفسه لدى الرومان. فقد استفادت الجمهورية فائدة لا حصر لها من هؤلاء العبيد. كان لكل منهم مبلغ من المال يمتلكه وفقاً للشروط التي فرضها عليه سيده، وبهذا المبلغ يعمل ويتحول إلى المجال المناسب لمهاراته. فهذا يتاجر بالعملة، وذاك يتجه نحو تجارة البحر، وثالث يبيع السلع بالمفرق، ورابع يمارس صناعة ميكانيكية، أو يستأجر أرضاً ويستثمرها، ولم يكن من بينهم أحد لم يبذل كل جهده لتحقيق الاستفادة من هذه المدخرات التي توفر له الراحة في العبودية الحالية في آن معاً، والأمل في حرية مستقبلية، هذا ما أدى إلى شعب يعمل بجد، ويجتهد في الفنون والصناعة.

هؤلاء العبيد الذين أصبحوا أغنياء بجهدهم وعملهم، تحرروا وأصبحوا مواطنين، بذلك تتجدد الجمهورية باستمرار، وتستقبل في أحضانها عائلاتٍ جديدة كلما هلكت عائلات قديمة.

ربما في رسائلي التالية أجد الفرصة لأثبت لك أنه كلما زاد عدد الناس في الدولة، ازدهرت التجارة فيها، وسأثبت كذلك بسهولة، أي إن ازدهار التجارة يزيد من عدد الناس، فهذان أمران متلازمان ومؤثران بعضهما في بعض.

إذا كان الأمر كذلك، فتخيل مقدار زيادة هذا العدد الهائل من العبيد الكادحين! حيث الصناعة والرخاء تؤمنان وجودهم، وهم من جانبهم يحققون الرخاء ويطورون الصناعة.

من باريس، في السادس عشر من شهر شعبان من عام 1718

الرسالة السادسة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

لقد تحدثنا حتى الآن عن البلدان الإسلامية وبحثنا عن سبب كونها أقل كثافة سكانية من تلك التي كانت خاضعة لسيطرة الرومان، دعنا نستكشف الآن عما أحدث هذه الظاهرة لدى المسيحيين.

الطلاق جائز في الديانة الوثنية، ومحرم على المسيحيين. كان لهذا الاختلاف، الذي يبدو للوهلة الأولى ذا أثر صغير، عواقب وخيمة بشكل غير محسوس، ولا يمكن لأحد تصديقها.

لم يسلب ذلك حلاوة الزواج فحسب، بل قوض نهايته أيضاً، ورغبتهم في إحكام عقد الزواج أدى إلى حله، وبدلاً من الجمع بين القلوب كما يزعمون، فصلوا بينها إلى الأبد.

وفي حدث حر لأبعد حد كهذا، وحيث يجب أن يكون للقلب دور كبير، حلَّ بدلاً من ذلك الضيق والإلزام وحتى عبثية القدر. ولم يحسبوا حساباً لتنافر الأذواق وللنزوات ولانعدام التواصل لاختلاف الطبائع. أرادوا تثبيت القلوب، وهي المتغيرة وغير الثابتة في طبيعتها، لقد ربطوا بلا عودة وبلا أمل بين شخصين يضيق أحدهما بالآخر، ومتنافرين أغلب الوقت. وبذلك فعلوا فعل الطغاة الذين ربطوا الأحياء بأجساد الأموات.

لا شيء يساهم في الارتباط المتبادل أكثر من حق الطلاق.[1] فالزوج والزوجة على استعداد لتحمل أعباء الحياة الزوجية بصبر، مع علمهما أنهما يملكان في أي وقت وضع حد لها.[2] وغالباً ما يحتفظان بهذه القوة في أيديهما طوال حياتهما دون استخدامها، لمجرد إحساس كل منهما أنه حر في فعل ذلك.

الأمر يختلف عند المسيحيين، الذين تسبب أحزانهم الحالية اليأس من المستقبل، ولا يرون قُبحاً في الزواج إلا دوامه، وأقصد أبديته، من هنا يأتي السأم والخلافات والازدراء، ولذلك أثره في تناقص الأجيال. ما إن تنقضِ ثلاث سنوات على الزواج حتى تُهمل الأساسيات، ثم يقضي الزوجان ثلاثين عاماً من البرود معاً، تنشأ انفصالات داخلية عنيفة، وربما أكثر ضرراً مما لو كانت علنية، وكل شخص يعيش في حيز عن الآخر، وكل هذا على حساب ذرية المستقبل، وسرعان ما يمل الرجل الذي يشعر بالنفور من امرأة أبدية، ويسلم نفسه لبنات الهوى، وتلك تجارة مخزية ومخالفة تماماً للمجتمع، ولا تحقق الغرض من الزواج، بل مُتعه فقط.

وإذا كان من بين شخصين مرتبطين بعقد الزواج هذا، شخص غير مؤهل للزواج وتكاثر النوع، إما لضعف بنيته أو لتقدُّم عمره، فإنه يدفن شريكه معه، ويجعله عقيماً مثله تماماً.

لذلك لا ينبغي أن نتفاجأ إذا رأينا بين المسيحيين الكثير من الزيجات التي لا توفر إلا مثل هذا العدد القليل من المواطنين. الطلاق ملغي، ولا

---

(1) ليس هذا ما يُخبرنا به الكُتاب القدامى.

(2) يبدو على العكس من ذلك أن سهولة وضع حد للمشاكل الداخلية بين الزوجين يجب أن تُضعف بشكل كبير من الصبر الذي يحملانه.

وثام يُرجى من الزيجات غير المتوافقة، والنساء عُدْنَ لا يتنقّلن، كما كان الحال عند الرومان، بين أيدي العديد من الأزواج الذين كانوا يحرصون على أن يظفروا منهن بأوفر نصيب.

أجرؤ على القول: إذا كانت جمهورية مثل جمهورية لاسيديمونيا [إسبرطة]، حيث يتعرض مواطنوها باستمرار لعرقلة من قبل قوانين غريبة ودقيقة، وحيث لم يكن فيها إلا عائلة واحدة، وهي الجمهورية، قد قررت أن يغير الأزواج زوجاتهم كل عام، فإن هذا سيضمن أن يولد شعب لا يُحصى عدده.

من الصعب جداً فهم السبب الذي دفع المسيحيين إلى إلغاء الطلاق. فالزواج عند جميع دول العالم عقد مرن خاضع لجميع الشروط، وفقط الشعوب التي كان من الممكن أن تُضعف قيمته هي من ابتعدت عن ذلك، لكن المسيحيين لم يأخذوا ذلك بالاعتبار، كما أنهم يجدون صعوبة كبيرة في تفسيره. إنهم لا يقيمونه على أساس لذة الحواس، بل على العكس من ذلك، كما أخبرتك بالفعل، يبدو أنهم يريدون إبعاده قدر الإمكان عن الملذات، لكن هذا مجرد صورة وخيال وشيء غامض لا أفهمه.

من باريس، في التاسع عشر من شهر شعبان من عام 1718

الرسالة السابعة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

إن تحريم الطلاق ليس السبب الوحيد لقلّة عدد السكان في البلدان المسيحية، فالعدد الكبير من الخصيان بينهم لا يقل أهمية. سأتحدث عن الكهنة والرهبان من كلا الجنسين الذين كرسوا أنفسهم للزهد الأبدي، وتعد هذه الفضيلة من أكبر الفضائل، التي لا أفهمها، عند المسيحيين. ولا أعرف ما هي الفضيلة التي لا تُثمر شيئاً.[1]

وأجد أن علماءهم يناقضون أنفسهم بشكل واضح عندما يروحون إلى أن الزواج مقدس، وأن العزوبة في الوقت عينه، والتي تتعارض مع الزواج كلياً، هي أعظم تقديس، دون مراعاة أنه من حيث المبادئ والعقائد الأساسية فإن الخير هو الأفضل دائماً.

إن عدد هؤلاء الذين ألفوا العزوبة هائل. كان الآباء في الماضي يئدون أطفالهم وهم في المهد، واليوم هم يكرسونهم[2] للكنيسة منذ سن الرابعة عشرة، والنتيجة في الحالتين واحدة.

لقد قضت حرفة كبح النفس هذه على بشر أكثر مما قضت عليهم أكثر

---

(1) روح الشرائع.

(2) المقصود الأطفال.

الأوبئة والحروب دموية على الإطلاق. نرى في كل دير عائلة أقامت فيه للأبد، لا تُنجب أطفالاً، وتعيش على حساب الآخرين. هذه الأديرة منازل مفتوحة دائماً، لكنها أشبه بالحُفر العميقة التي تُدفن فيها الأجيال المستقبلية.

هذه السياسة مختلفة تماماً عن تلك التي اتبعها الرومان، الذين سنوا قوانين عقوبات ضد الذين رفضوا قوانين الزواج، وأرادوا التمتع بحرية تتعارض مع المنفعة العامة، أنا أتحدث إليك هنا فقط عن الكاثوليكية. أما في الديانة البروتستانتية، لكل فرد الحق في إنجاب الأطفال، ولا تعاني لا من كهنة ولا من رهبان. وإذا عدنا إلى نشأة هذا المذهب في الأزمنة الأولى، فلم يُتهم مؤسسوها بالتعصب الدائم، فلا شك في أنهم بعد أن جعلوا ممارسة الزواج عامة، قد خففوا من وطأة ديانتهم، وكسروا الحاجز الذي يفصل بين المسيحية والإسلام في هذا الأمر. ومهما كان الأمر، فمن المؤكد أن الدين منح البروتستانت ميزة كبرى لم يحظَ بها الكاثوليك.

وأجرؤ على القول إن أوروبا في حالها الراهنة، لا يمكن للدين الكاثوليكي أن يعيش فيها أكثر من خمسمئة عام. قبل انهيار عظمة إسبانيا، كان الكاثوليك أقوى بكثير من البروتستانت، الذين قد وصلوا تدريجياً إلى مساواة الكاثوليك، وسوف يصبحون أثرى وأقوى في حين يضعُف الكاثوليك مع تقادم الزمن.

تبعاً لما سبق، لا بد وأن تكون البلدان البروتستانتية أكثر سكاناً من الكاثوليك، وهي بالفعل كذلك، ويترتب على ذلك أولاً أن الضرائب هناك أكبر لأنها تزداد طرداً بما يتناسب مع عدد الذين يدفعونها، ثانياً، غدت الأرضي هناك مزروعة بعناية أفضل، وأخيراً، ازدهرت التجارة أكثر بسبب

تزايد الناس الذين يمتلكون ثروات يستغلونها ولديهم احتياجات كثيرة تتطلب المزيد من الموارد لتلبيتها. عندما يكون هناك عدد كافٍ من الناس فقط لزراعة الأرض، يجب أن تهلك التجارة، وعندما لا يكون هناك إلا ما هو ضروري للحفاظ على التجارة، فإن الزراعة تختفي، وهذا يعني أنه من الضروري أن تقوم كلتاهما في نفس الوقت لأن ارتباطهما وثيق وضعف إحداهما يعني اضمحلال الأخرى.

أما بالنسبة إلى الدول الكاثوليكية، فلم يُتَخَلَّ فقط عن زراعة الأرض، ولكن حتى الصناعة هناك قد انهارت، ويقتصر الأمر على تعلم خمس أو ست كلمات من لغة ميتة، بمجرد أن يحصلها الإنسان لم يجد من الضروري أن يهتم بثروته، ويفضل الحياة الهادئة في الدير على الحياة العامة التي ستكلفه العرق والجهد.

هذا ليس كل شيء، فالرهبان يملكون في أيديهم كل ثروات الدولة تقريباً، وهم مجتمع من الناس الجشعين الذين يأخذون دائماً ولا يعطون أبداً، ويراكمون ما يتلقون باستمرار لتكوين رؤوس المال، مما يجعل الكثير من مناحي الحياة تصاب بالشلل، فعدم التداول يعني لا تجارة ولا فنون ولا مصنوعات.

لا يوجد ملك بروتستانتي لا يفرض ضرائبَ على شعبه أكثر بكثير مما يفرضه البابا على رعاياه، لكن هؤلاء الرعايا فقراء في حين يعيش البروتستانت في رخاء، لأنه بينما تعيد التجارة إحياء كل شيء، فإن الرهبنة تسبب الموت في كل مكان.

من باريس، في السادس والعشرين من شهر شعبان من عام 1718

الرسالة الثامنة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

عدنا لا نملك ما نقوله عن آسيا وأوروبا، فلننتقل إلى إفريقيا. لا يسعنا إلا أن نتحدث عن سواحلها، لأننا لا نعرف شيئاً عن الداخل.

إن سواحل البربر، حيث استقر الدين الإسلامي، عادت غير مأهولة بالسكان كما كانت في العصر الروماني، للأسباب التي ذكرتها لك آنفاً.

أما بالنسبة إلى سواحل غينيا، فلا بد أنها أُخليت بشدة من سكانها منذ مئتي عام، إذ إن صغار الملوك، أو رؤساء القرى، باعوا رعاياهم لأمراء أوروبا من أجل إرسالهم إلى مستعمراتهم في أمريكا.

إن الفريد في الأمر هو أن أمريكا التي تستقبل العديد من السكان الجدد كل عام، هي نفسها مقفرة، ولم تستفد من النقص المستمر الذي أصاب إفريقيا. هؤلاء العبيد الذين انتقلوا إلى مناخ آخر مختلف يموتون هناك بالآلاف. وكانت أعمال المناجم حيث يشتغل كل من السكان الأصليين للبلاد والأجانب من دون توقف، إضافة إلى الروائح الكريهة التي تنبعث منها، والزئبق الذي عليهم استخدامه باستمرار، هي أشياء مجتمعة لتهلكهم ولا عوض عنهم.

ليس هناك ما هو أعجب من أن يهلك عددٌ لا يحصى من الرجال من

أجل استخراج الذهب والفضة من أعماق الأرض، هذه المعادن التي هي في حد ذاتها عديمة الفائدة، ولم تكن ثروات إلا لأن الإنسان اختارها حتى تكون رمزاً لذلك.[1]

من باريس، في آخر يوم من شهر شعبان من عام 1718

---

(1) راجع ملاحظات الرسالة 105.

الرسالة التاسعة عشرة بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

تعتمد خصوبة شعب في بعض الأحيان على أصغر الأمور في العالم، فلا يلزم غالباً إلا جولة جديدة في مخيلته ليصل إلى ما يجعله أكثر عدداً مما كان عليه.

فاليهود الذين يبادون دائماً، ويتوالدون من جديد دائماً، يعوّضون خسائرهم وإبادتهم المستمرة من خلال هذا الأمل الوحيد لدى جميع العائلات والذي يتجلى برؤية ملك عظيم من نسلها، يصبح سيد الأرض.[1]

لم يكن لملوك بلاد فارس القدامى آلاف الرعايا إلا بسبب هذه العقيدة الدينية، بأن أكثر الأعمال التي ترضي الله والتي يمكن أن يفعلها الناس هي إنجاب طفل، أو حرث حقل، أو زراعة شجرة.

وإذا كان في رحاب الصين مثل هذا الشعب الهائل، فما ذلك إلا من طريقة معينة في التفكير، فالأطفال يعتبرون آباءهم آلهة، ويحترمونهم على هذا النحو في الحياة، ويكرمونهم بعد وفاتهم بالتضحيات، ويعتقدون أن أرواح أسلافهم التي تتلاشى في الرب تيان[2] تستأنف حياة

---

(1) المسيح.

(2) إنه جنة الصينيين.

جديدة، لذلك يميل كل صيني إلى زيادة أفراد عائلة خاضعة لهذه الحياة وضرورية لحياة أخرى.

من ناحية أخرى، فإن البلاد الإسلامية يتناقص سكانها مع مرور الأيام لرأي مقدس ما كان ليثمر عندهم آثاراً ضارة لو لم يكن متجذراً في أرواحهم: نرى أنفسنا كمسافرين، لا يجب أن نفكر إلا في وطن آخر، فالعمل المفيد والدائم، والاهتمام بضمان ثروة لأطفالنا، والمشاريع التي تمتد إلى ما بعد الحياة القصيرة والعابرة، تبدو لنا فعلاً زائلاً. نحن مطمئنون إلى الحاضر، غير قلقين على المستقبل، فلا ينبغي أن نحمل عناء إصلاح المباني العامة، أو إعمار الأرضي الجرداء، أو زراعة تلك التي تحتاج إلى عنايتنا، نحن نعيش في حالة جمود عامة، ونترك كل شيء للعناية الإلهية.

إن روح التفاخر هي من قادت الأوروبيين إلى إرساء قانون الحقوق الشرعية[1] المكتسبة غير العادل، ذات التأثير السلبي على النمو والانتشار، حيث يوجه الأب اهتمامه إلى واحد فقط من أبنائه، ويصرف اهتمامه عن الآخرين، مما يحمله على تكوين ثروة لواحد منهم تتعارض وتكوين الثروة للآخرين، وهذا ما يقضي على المساواة بين المواطنين والتي هي مصدر الرخاء.

من باريس، في الرابع من شهر رمضان من عام 1718

(1) يقصد قانون البكورية أو الابن البِكر المعروف. [المراجع]

الرسالة العشرون بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

البلدان التي يسكنها الهمجيون عادة ما تكون ذات كثافة سكانية منخفضة، بسبب النفور الذي يتمتع به معظمهم من العمل وزراعة الأرض. إن هذا النفور الشنيع شديد لدرجة أنهم عندما يلعنون أحد أعدائهم، فإنهم لا يريدون منه شيئاً سوى أن يتحول إلى حرث الحقل. وهم يعتقدون أنه ليس هناك من مهنة نبيلة تليق بهم سوى الصيد في البر والبحر.

ولأنه غالباً ما تكون هناك سنوات يشح فيها الصيد في البر والبحر، تراهم يفجعون بمجاعاتٍ متكررة، ناهيك بعدم وجود بلد به وفرة في الطرائد والأسماك بدرجة تكفل العيش لشعب كامل، لأن الحيوانات تهرب دائماً من الأماكن المأهولة بالسكان.

إلى جانب ذلك، فإن قرى الهمج، التي يسكنها مئتان أو ثلاثمئة ساكن منعزلة بعضها عن بعض، ولها مصالح منفصلة كانفصال مصالح إمبراطوريتين لا يمكنهما دعم بعضهما بعضاً، لأنها لا تملك موارد الدول الكبرى، حيث تتكافل جميع الأجزاء، وتساعد بعضها بعضاً بشكل متبادل.

هناك عادة أخرى بين الهمج لا تقل ضرراً عن الأولى، إنها عادة

قاسية تتمثل في أن النساء يجهضن، حتى لا تجعلهن أعراض الحمل غير مرغوبات لدى أزواجهن.

هناك قوانين صارمة إزاء هذا الاضطراب تصل إلى درجة الهوس، فكل فتاة لم تعلن حملها للحاكم تُعاقب بالموت إذا هلك جنينها،[1] ولا يشفع لها لا الحياء ولا الخجل ولا حتى الحوادث التي تتعرض لها.

من باريس، في التاسع من شهر رمضان من عام 1718

(1) مرسوم الملك هنري الثاني لعام 1550.

الرسالة الحادية والعشرون بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

يتمثل التأثير المألوف للمستعمرات في إضعاف البلدان التي خرجت منها، دون إعمار تلك التي أُرسلت إليها.[1]

يجب على الناس البقاء حيث هم،[2] فهناك أمراض تأتي من تغيير الهواء الجيد بآخر رديء، وأخرى تأتي من التغيير بحد ذاته.

إن الهواء يحمل مثل النباتات جزيئات الأرض إلى كل بلد من البلدان. فيؤثر فينا إلى درجة تجعله يحدد مزاجنا. ونمرض[3] إذا ما انتقلنا إلى بلد آخر. وبما أن للسوائل قواماً معيناً، وللمواد الصلبة تركيباً خاصاً، فلكل منها درجة معينة من الحركة ولا يحتمل درجة أخرى سواها، ويقاوم أي وضع جديد.

وعندما يكون بلد ما بلا سكان، فإن ذلك يُنبئ بعيب معين في طبيعة أرضه أو مناخه، لذلك عندما نخرج الناس من جو ملائم ونرسلهم إلى بلد ما، فإن ما يحدث في الواقع هو عكس ما نقصده.

---

(1) يتمثل التأثير المألوف للجاليات في زيادة عدد سكان البلدان التي جُلِبوا منها، وإعمار تلك التي أُرسِلوا إليها. لنلقِ نظرةً على إنجلترا بمستعمراتها ونقارنها بفرنسا لمدة قرن.

(2) يثبت التاريخ العكس.

(3) إنها مسألة مناخ، ففي مناخ مشابه للمناخ الذي كان فيه، يحيا المُهاجر بخير.

عرف الرومان ذلك بالتجربة، فقد أرسلوا جميع المجرمين إلى سردينيا، وكانوا يمررون اليهود إليها. كان لزاماً أن يتعزوا على خسارتهم، والواقع أن الاحتقار الذي يكنونه لهؤلاء البائسين هوّن عليهم هذا الفقد.

أراد الشاه عباس العظيم حرمان الأتراك من وسائل إمداد جيوشهم الكبيرة على الحدود، فنقل جميع الأرمن تقريباً خارج بلاده، وأرسل أكثر من عشرين ألف عائلة منهم إلى مقاطعة جيلان، فهلك أكثرهم في وقت قصير جداً.

ولم تنجح عملية توطين الشعوب في القسطنطينية على الإطلاق، فها هو ذا العدد الهائل من الزنوج الذين تحدثنا عنهم سابقاً لم يُعمر أمريكا.[1] ومنذ إبادة اليهود في عهد أدريان، ظلت فلسطين بلا سكان.

لذلك يجب الاعتراف بأن الدمار الكبير يكاد يكون غير قابل للإصلاح، لأن الشعب الذي ينقص إلى درجة معينة سيظل في حالة نقص، وإذا أتاحت الصدفة فرصة للتعافي، فسيستغرق ذلك قروناً.

وفي حال فشل التعافي ونقص السكان، فإن أسهمت أقل الظروف التي حدثتك عنها آنفاً في ذلك، فلن يصعب إصلاح الأمر وحسب، بل إن النقص سيستمر يوماً إثر يوم حتى ينتهي إلى الفناء.

لا يزال طرد المسلمين من إسبانيا يبدو ملحوظاً كأنه حدث الآن، وبدلاً من ملء هذا الفراغ، فقد أصبح أوسع مع مرور الأيام.

---

(1) لقد عاش الزنوج وتكاثروا في أمريكا الشمالية، وفي كل مكان حيث لم يُبَادوا من خلال أعمال التطهير.

ومنذ الإبادة التي حلت بأمريكا، لم يتمكن الإسبان الذين حلوا محل سكانها الأصليين من إعادة إعمارها، بل على العكس من ذلك، فالقدر الذي أستطيع أن أسميه العدالة الإلهية دفع المدمرين إلى تدمير أنفسهم وهلكوا على مر الزمن.

لذلك يجب على الأمراء ألا يحلموا بإعمار الدول الكبيرة بالجاليات.[1] ولا أقول بأنهم لم ينجحوا في بعض الأحيان، فهناك مناخات ملائمة جداً إلى درجة تسمح للأنواع بأن تتكاثر فيها، والشاهد على ذلك تلك الجزر[2] التي كان يسكنها مرضى تركتهم فيها بعض السفن، فاستعادوا صحتهم على الفور.

ولكن عندما تنجح هذه الجاليات فإنها، وبدلاً من زيادة قوة الدولة التي انتقلت إليها، تراها تقاسمها السلطة، ما لم تكن محدودة العدد كتلك التي تُرسَل لاحتلال مكان ما بغية التجارة.

كان القرطاجيون، مثل الإسبان، قد اكتشفوا أمريكا، أو على الأقل جزراً كبيرة أقاموا فيها تجارة هائلة، لكن عندما رأوا أن عدد سكانهم يتضاءل، حرمت هذه الجمهورية الحكيمة رعاياها من التجارة والملاحة.

وأجرؤ على القول إنه بدلاً من ترحيل الإسبان إلى الهند، يجب أن يُنقل الهنود وأبناء السلالات إلى إسبانيا، وسيكون من الضروري إعادة جميع رعاياها المشتتين إلى هذه المملكة، ولو حُفِظ نصف هذه الجاليات العظيمة، لكانت إسبانيا قد أصَبحت من أكثر دول أوروبا مهابةً.

---

(1) أليست أمريكا الشمالية وأستراليا شواهد على ذلك؟

(2) ربما يتحدث المؤلف عن جزيرة بوربون.

يمكننا مقارنة الإمبراطوريات بشجرة تمتص أغصانها الممتدة كامل العُصارة من الجذع، ولا تُفيد إلا في توفير الظل.

ليس هناك من عبرة للأمراء الذين يندفعون في غزوات بعيدة كالبرتغاليين والإسبان، فقد غزت هاتان الأمتان ممالك هائلة بسرعة لا يمكن تصورها، وقد أذهلتهما انتصاراتهما أكثر مما أذهلت الشعوب المهزومة هزيمتها، وفكرتا في وسائل الحفاظ على هذه الممالك، فاتخذت كل منهما مساراً مختلفاً عن الأخرى. قرر الإسبان، اليائسون من ضمان ولاء الأمم المهزومة، إبادتهم وإرسال جماعات موالية من إسبانيا، ولم تُنفذ خطة فظيعة بمثل هذه الدقة مطلقاً. لقد رأى الناس شعباً يعادل جميع سكان أوروبا عدداً، يختفي من على سطح الأرض عند وصول هؤلاء البرابرة، الذين لم يفكروا عند اكتشافهم للهند إلا في أن يُظهروا للناس أعلى درجات القسوة.

بهذه الوحشية، أبقوا على هذا البلد تحت سيطرتهم. احكم من خلال هذا على مدى فجاعة الفتوحات عندما تكون لها مثل هذه النتائج. وعلى الرغم من كل شيء، كان هذا العلاج المروع فريداً من نوعه.[1] وإلا فكيف أمكنهم إخضاع الملايين من الناس لطاعتهم؟ وكيف يمكن مساندة حرب أهلية في مكان بعيد؟ ماذا كان سيحدث لهم لو منحوا هذي الشعوب وقتاً لتفيق من دهشتها التي كانت فيها عند وصول هذه الآلهة الجديدة، ومن الخوف من غضب هذه الآلهة؟

أما بالنسبة إلى البرتغاليين، فقد سلكوا مساراً معاكساً تماماً لما استخدمه

(1) لم يدمر الإنجليز شعوب الهند، ومع ذلك فالهنود يطيعونهم.

الإسبان. لم يستخدموا القسوة، لذلك سرعان ما طُرِدوا من جميع البلدان التي اكتشفوها. أما الهولنديون فقد ساندوا تمرد هذه الشعوب، ثم استغلوها لصالحهم.

أي أمير قد يرغب في مصير هؤلاء الفاتحين؟ من يريد هذه الفتوحات في ظل ظروف كهذه؟ لقد طُرِد بعضهم على الفور، وبعضهم الآخر جَعَل من البلاد المفتوحة أطلالاً، كما فعل في بلاده نفسها.

إن مصير الأبطال الذين يدمرون في الغزو بلداناً يخسرونها حال فتحها، أو الذين يقهرون أمماً يضطرون إلى تدميرها بأنفسهم، كمصير ذلك الأحمق الذي استهلك ماله في شراء تماثيل يرميها في البحر ومرايا يكسرها حال شرائها.

من باريس، في الثامن عشر من شهر رمضان من عام 1718

الرسالة الثانية والعشرون بعد المئة

من أوزبك إلى الشخص نفسه

يساهم رفق الحكومات بالرعية بشكل رائع في تكاثر النوع الإنساني، وفي كل الجمهوريات دليل واضح على ذلك، وأكثر ما يتضح ذلك في سويسرا وهولندا أسوأ دولتين في أوروبا من حيث طبيعة الأرض، ومع ذلك فهما أكثر الجمهوريات اكتظاظاً بالسكان.

ما من شيء يجذب الأجانب إلى بلد ما أكثر من الحرية، والرخاء الذي ينشأ عنها دائماً، أما الحرية فتُطلب لذاتها، وأما الرخاء فنحن مدفوعون إليه بفعل الحاجة التي نجدها فيه.

تتكاثر الأنواع في البلاد التي يتوفر فيها الرخاء للأطفال، دون التقليل من مستوى معيشة الآباء.

إن المساواة بين المواطنين، والتي تثمر عادةً مساواةً في الثروات، تجلب الرغد والحياة لجميع الهيئات السياسية، وتنشرها في كل أرجاء البلاد.

لكن الأمر يختلف مع البلدان الخاضعة لسلطة مطلقة، حيث يمتلك الملك ورجال الحاشية وقلة من الأفراد كل الثروات، في حين يئن الآخرون من فقر مدقع.

إذا كان الانسان ضيق الحال، وشعر أنه سينجب أطفالاً أفقر منه، فلا

يتزوج، وإن تزوج، فسيخاف من إنجاب الكثير من الأطفال، الذين قد ينتهي بهم الأمر إلى إرهاق ثروته، أو تدني مستوى معيشته.

أعترف أن الريفي أو الفلاح، بعد زواجه، سوف يُنجب، وبلا مبالاة، سواء أكان غنياً أم فقيراً، فهذا الجانب لا يؤثر فيه، لأن لديه ميراثاً مضموناً سيتركه لأبنائه، وهو المِعوَل، فلا شيء يمنعه من اتباع غريزته الطبيعية اتباعاً أعمى.

لكن، بالنسبة إلى الدولة، ما فائدة هذا العدد من نسلٍ يلتوي تحت لواء الفاقة؟ إنهم يكادون يموتون إثر ولادتهم، ولا يتكاثرون أبداً، ضعفاء وهزيلون، يموتون توالياً بطرق شتى، في حين تجتاحهم الأمراض الشائعة المتكررة، التي ينتجها البؤس وسوء التغذية، ومن ينجو منهم من الموت يصل إلى مرحلة الرجولة دون أن يكون لديه قوة الرجال، ويظل ضعيفاً بقية حياتهم.

والناس مثل النباتات التي لا تنمو بشكل سليم مطلقاً إذا لم تُزرَع بعناية، فينقص النوع الإنساني ويتدهور في الشعوب الفقيرة. يمكن لفرنسا أن تقدم مثالاً كبيراً على كل هذا، ففي الحروب الماضية، أجبرهم الخوف من التجنيد على الزواج، وذلك في سن صغيرة جداً وفي خضم الفقر، ومن هذه الزيجات ولد العديد من الأطفال الذين فقدتهم فرنسا، حيث قضى عليهم الفقر والجوع والمرض.

إذا رأينا هذا تحت سماء سعيدة، وفي مملكة مثل فرنسا، فماذا عساها تكون النتيجة في الممالك الأخرى؟

من باريس، في الثالث والعشرين من شهر رمضان من عام 1718

الرسالة الثالثة والعشرون بعد المئة

من أوزبك إلى الملك محمد علي حارس القبور الثلاث في مدينة قم

ماذا يفيدنا صيام الأئمة وأزياء الملوك؟ ولتثقل يد الله مرتين على الفقهاء الصغار، ويحتجب نور الشمس، وبدأت لا تضيء بسوى هزائمهم وجيوشهم المحتشدة، وهي في النهاية تتبدد كالغبار، فالإمبراطورية العثمانية تزعزع كيانها بأشد إخفاقين لم ترَ مثلهما قط.

مفتٍ مسيحي يدعم ذلك بعناء والوزير الأعظم في ألمانيا[1] هو بلاء من الله مرسل ليقتص من أتباع عمر ويحمل في كل مكان غضب السماء ساخطاً من تمردهم وغدرهم.

روح الأئمة المقدسة تبكي ليل نهار على أولاد النبي الذي أضلهم عمر البغيض، فأحشاؤك تتزعزع على رؤية مصائبهم وترغب في هدايتهم وليس فِقدانهم، وتود رؤيتهم مجتمعين تحت لواء علي بدموع القديسين غير المتناثرة في الجبال والصحارى من رعب الأوغاد.

من باريس الواقع في الأول من شهر شوال من عام 1718

---

(1) الأمير أوجين الذي هزم الأتراك في بيتر فاردن واستولى على بلجراد في أغسطس 1717 حاصل على الكثير من المنافع الأخرى وحقق السلام الملائم له في باساروا فيتس 1718.

الرسالة الرابعة والعشرون بعد المئة

من أوزبك إلى رضي في فينيسيا

أي دافع وراء هذه المكرمات العظيمة التي يغدقها الأمراء على رجال حاشيتهم؟[1] أيريدون الصلة الوثيقة معهم؟ لقد استحوذوا عليهم كما جعلوا من ذلك ملكية تامة، ومن جهة أخرى فإن كسبوا ود بعض الرعايا عبر تقديم العطايا، لا بد وأنهم قد خسروا عدداً لا يحصى منهم بسبب الحرمان.

عندما أفكر بحال هؤلاء الأمراء المحوطين بأناس جشعين ونهمين، ليس بمقدوري إلا أن أشفق عليهم. ويزداد إشفاقي عليهم عندها لينفذ صبرهم من مقاومة الطلبات المكلفة لأولئك الذين لا يطالبونهم بشيء إطلاقاً.

لم أسمع أبداً حديثاً عن مكرمات أو نِعم أو حتى أجور يمنحونها لهم إلا وأستسلم لأفكار كثيرة وتزدحم الأفكار في خَلَدي. ويبدو لي أنني أسمع إصدار هذا القرار:

«إن من الشجاعة التي لا تكل أن يطلب منا أحد رعايانا أموالاً بشكل

---

(1) حول خطأ الأجور (5) مذكرات ماتيو ماريه (الصفحة 233) روح الشرائع الجزء العاشر.

مستمر، ولهذا تأثيره عند جلالتنا، ونميل آخر الأمر إلى عدد كبير من الطلبات الملحة، مقابل ما قاموا به من أجلنا وكان محط اهتمام كبير عند الملك.

لقد مثلوا أمامنا ولم يتغافلوا عن ذلك منذ ارتقائنا العرش، وهم حاضرون عند صحوتنا، وإننا نراهم في طريقنا ثابتين كالأوتاد، وإنهم لتشرئب أعناقهم من أعالي أكتافهم، ليشاهدوا سكينتنا. لقد تلقينا طلبات كثيرة من جانب الجنس اللطيف يرجوننا أن نعيرهن اهتماماً، فإنهن، ومن المعلوم لدينا، أصبحن يلقين معاملة قاسية جداً، وإن بعضاً منهن، ممن انتهت خدمتهن، رجوننا أن نستذكرهن حين كن زينة بلاط أسلافنا الملوك، وإن كان قادة الجيوش قد رفعوا الدولة إلى شأن مهيب بأعمالهم العسكرية، فإن دسائسهن لم تكن أقل قيمة في حياة البلاط.

وبناء عليه، ورغبة منا في معاملة هؤلاء المطالبين بطيب خاطر، وتلبية رجائهم، أمرنا بما يلي: سيخصم يومياً خُمس نصيب كل فلاح لديه خمسة أولاد، وسيلزم الآباء بهذا الأمر وعلى كل واحد منهم أن تكون قسمته عادلة فيما بينهم.

ثم إننا نمنع وبشكل قاطع على من يمارسون الزراعة في أراضٍ ورثوها أو من أعطي لهم لقب المزارعين إصلاحها أياً كان نوع هذا الإصلاح. ونأمر جميع الأشخاص الذي يمتهنون أعمالاً دنيئة وآليةً ليست تليق بمستوى جلالتنا، ألا يشتروا من الآن الملابس بهم أو بنسائهم وبأطفالهم إلا مرة واحدة كل أربع سنوات، ونحرم عليهم المسرات الصغيرة حتى المحددة منها والاعتيادية بين عائلاتهم والأعياد الأساسية التي كانوا يحتفلون بها كل سنة.

وعلى اعتبار أننا على علم بأن غالبية برجوازيي مدننا الغنية منكبّين على تزويج بناتهم القاصرات من الأشراف، وبهذا لا يغلبن الشرف إلا بتواضع محزن ومحرج في بلادنا، فإننا نأمر بعدم السماح بتزويجهن حتى يصلن السن المحدد ضمن القوانين التي نسنها، كما نمنع القضاة من تربية أطفالهم.

من باريس في الأول من شهر شوال من عام 1718

الرسالة الخامسة والعشرون بعد المئة

من ريكا إلى...

تصاب بالحيرة من جميع الأديان، عندما تكون الفكرة المحورية هي المسرات التي أعدت لأهل الخير والعذابات طويلة الأمد التي أعدت بدورها لتفزع أهل الشر، ولكن يبقى مجهولاً ما وعد به الصالحون. يبدو أن طبيعة المتع أن تكون قصيرة الأمد، ويصعب على الخيال تقديم صورٍ أخرى منها.

رأيت أوصاف الفردوس قادرة على جعل ذوي المنطق السليم يعزفون عنها: فمنهم من هرب إلى ظلالها الوارفة دوماً، ومنهم من حكم عليها بشقاء النزهة الأبدية، وهناك أيضاً مَن حلم بعشيقات فيها. هم لا يعتقدون بأن مئات الملايين من السنين هي زمن طويل وكفيل بجعلهم يتخلصون من هذه الانشغالات الغرامية.

وأتذكر بهذا الخصوص قصة سمعتها تروى لرجل كان يعيش في بلاد المغول، توضح لنا أن كهنة الهند ليسوا في تفكيرهم أقل عقماً من غيرهم فيما يخص متاع الفردوس.

ذات مرة فقدت امرأة زوجها وجاءت بموكب إلى حاكم المدينة، لتطلب منه الإذن بحرق نفسها، لكن هذه العادة القاسية قد ألغيت في البلدان التي تنهج الإسلام، لذا رفض الحاكم ذلك رفضاً قاطعاً. عندما وجدت بأنّ

التماساتها عاجزة عن تحقيق رغبتها، تَمَلَّكها غضب حانق وقالت حينها: يا لحرجنا! ألا يسمح لامرأة مسكينة أن تحرق جسدها متى شاءت ذلك! ألم يَرَ الناس مثيلاً لذلك؟ أمي وخالتي وأخواتي أحرقوا أنفسهن، وعندما أطلب الإذن لفعل هذا من الحاكم اللعين، يغضب ويصرخ مثل المسعور! بمحض الصدفة كان هناك راهب بوذي[1] شاب، فخاطبه الحاكم: أيا أنت، أأنت من دب الذعر في عقل هذه المرأة؟ فرد عليه: أنا، لا لم أحادثها قط. لكنها إن صدقتني ستكون كأضحية وستكون بهذا العمل قد أرضَتِ الإله براهما، وسيكون جزاؤها عنده من المحسنين، وستجد زوجها في العالم الآخر، وتستأنف معه حياة زوجية أخرى، ما قولكِ في هذا؟ فقالتِ المرأة مندهشة: ماذا تقول؟ سأجد زوجي! آه لن أحرق نفسي إذن، لأنه كان غيوراً وحزيناً، وأضِفْ إلى ذلك أنه كان عجوزاً، حتى إنه إن كان الإله براهما لم يقم بإصلاح شيء في كيانه، فمن المؤكد بأنه لا يحتاج إلى أن أحرق نفسي من أجله ولا قيد أنملة، كي أنتشله من قاع الجحيم.

أغرياني راهبان بوذيان عجوزان، وكانا يعرفان بأي حياة كنت أعيش معه، كانا حريصين على قول كل شيء لي، وإن لم يكن للإله براهما سوى هذه الهدية ليقدمها إليّ، فإني أرفض هذه النعيم. سيدي الحاكم سأعتنق الإسلام. وهمست في أذن البوذي وهي تنظر إليه قائلة: بإمكانك أن تذهب إلى زوجي وتخبره أنني بصحة جيدة، إن وددت ذلك.

باريس في الثاني من شوال من عام 1718

---

(1) الكهنة البوذيون: هم رجال دين بوذيون من الصين ولا يوجد منهم إطلاقاً في الهند، أراد مونتسكيو أن يدمجهم مع أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس.

الرسالة السادسة والعشرون بعد المئة

من ريكا إلى أوزبك في...

أنتظرك هنا غداً، ومع ذلك أرسل إليك رسائلك من أصفهان. أما رسائلي فتتضمن أن سفير المغول الأعظم تلقى أمراً بالخروج من المملكة.[1] ويضاف إلى ذلك أنه قُبض على الأمير عم الملك المكلف بتربيته،[2] واقتيد إلى قصر حيث ضاعفوا عليه الحراسة فيه وحُرم من كل ألقاب الشرف.

أنا مصدوم من مصير هذا الأمير، وأرثي لحاله، أعترف لك يا أوزبك، لم أرَ على الإطلاق دموعاً تذرف من عيني شخص إلا ورَقّ قلبي لذلك، وأشعر بالإنسانية تجاه التعساء، كما لو أن ما من أناس سواهم في هذه الدنيا، بل وأشعر بالقسوة تجاه العظماء عندما يكونون في مرتبة عليا، ولكني أحبهم حالما يسقطون.

حقيقة، ما الذي عليهم فعله بازدهار ودٌّ عديم الجدوى؟ هذا الود يلازم المساواة، هم يفضلون الاحترام الذي لا عودة منه، بيد أنهم حالما يسقطون من عظمتهم، ما من سبيل يلفت انتباهنا إلى عظمتهم إلا للرثاء.

---

(1) المغول العظيم هنا هو ملك إسبانيا وسفيره ملك سلامار تم توقيفه في 8 ديسمبر 1718، مذكرات ماتيو ماريه (الصفحة 239).

(2) دوق (مين) الإصدار (A) يقول إن هناك أخطاء بلا شك (هو حزين على تربيته).

أرى شيئاً من السذاجة المفرطة ومن العظمة الجمة، في ذات الوقت، فيما قاله الأمير الذي سقط بين يدي أعدائه وهو يرى حاشيته تبكيه من حوله: «دموعكم وحدها من تجعلني أرى أنني ما زلت ملككم».

من باريس في الثالث من شوال من عام 1718

الرسالة السابعة والعشرون بعد المئة

من ريكا إلى إيبين في إزمير

سمعت أحاديث كثيرة عن ملك السويد[1] الشهير، وأنه كان يحاصر مكاناً في مملكة تدعى النروج، وبينما كان يتفقد خندقاً مع أحد المهندسين تلقى ضربة على رأسه، أودت بحياته، وعلى الحال قُبض على رئيس وزرائه،[2] واجتمعت الهيئات القضائية وأدانته وحكمت عليه بالموت، إنه متهم بجريمة كبيرة فقد تآمر على الأمة وفقد ثقته عند ملكه وبرأيي إنها جريمة تستحق الموت ألف مرة، إذ إن وشاية الأمير بأصغر فرد من رعاياه هو عمل شائن، فكيف بوشاية أمة بأسرها، وحرمانها من رعاية مَن أقامته العناية الإلهية في سبيل سعادتها؟

أنت تعرف أن في الولائم المقدسة، التي ينزل فيها رب الأرباب[3] من عرشه الجلي إلى العالم لتفقد عبيده، أضع نفسي تحت حكم قانون صارم، وهو أن أروض لساني الجامح، فلا تراني أتلفظ بكلمة قد تؤذي أدنى العباد، وعندما تجبرني الحال على الزهد، فهذا لا يعني ألا أكون إنساناً

(1) مقتل شارل الثاني عشر في 30 نوفمبر 1718 في حصار فريدريك شيل برصاصة اخترقت صدغه الأيمن، روح الشرائع الجزء العاشر.

(2) بارون كورتز.

(3) شاهانشاه، ملك الملوك، ملك فارسي.

فاضلاً، في هذه التجربة التي تختبر وفاءنا، خاطرت بحياتي ولكن ليس بفضيلتي. لا أعرف كيف لا يكاد يوجد على الإطلاق ملك شرير للغاية، إلا ويكون وزيره أكثر شراً منه، ولو ارتكب هذا الملك عملاً فظيعاً لا يكون إلا وكان السبب مبلغ فظاعته انحطاط نفوس المستشارين.

لكن هل تعرف أن رجلاً لم يدخل في الوزارة إلا البارحة، وربما لن يكون فيها غداً، ربما يصبح في لحظة عدواً لنفسه حتى، ولوطنه ولأسرته والشعب المتوالد للأبد هو وحده الذي سيعاني من الاضطهاد؟

للملك أهواؤه والوزير هو من يحركها، وتبعاً لهذا، يدير وزارته، دون أن تكون لديه وجهة أخرى، ولا يريد أن يعرف رغبة سوى رغبة الملك، فالحاشية تغويه بكيل من المديح، ويتملقه الوزير بنصائحه وخططه الأخطر، تلك التي يوحي بها إليه، وبالأحكام التي يقترحها عليه.

من باريس في الخامس والعشرين من شهر صفر من عام 1719

الرسالة الثامنة والعشرون بعد المئة

من ريكا إلى أوزبك

مررت ذات يوم بالبونت نوف (الجسر الجديد) مع أحد أصدقائي، فقابل رجلاً يعرفه، وقال لي إنه من علماء الهندسة، وليس هناك من شيء يدل في هيأته على ذلك، لأنه كان في خيال عميق، وكان على صديقي أن يسحبه طويلاً من كمه ويهزه ليترجل من خياله إليه.

وقد كان منصبّ الاهتمام بخط منحنٍ، وقد أرهقه ذلك من ثمانية أيام أو أكثر ربما، وكلاهما قال كثيراً من الأشياء المشرفة تتعلق بالعلم وتبادلا بعض الأخبار الأدبية، هذه الأحاديث التي قادتهما إلى باب المقهى ودخلت معهما.

لاحظت بأن الجميع قد استقبلوا مهندسنا بحفاوة، وأقام له خدم المقهى شأناً كبيراً أكثر من فرسان ملكيين كانوا في الميدان، أما هو فقد بدا المكان محبباً إليه، إذ انبسطت أساريره وأخذ يضحك لكأنه يمتلك ولو معرفة سطحية بعلم الهندسة.

إلا أنه ذو ذهن منظم يقيس كل ما يقوله في حديثه، وكان شبيهاً بمن هو في حديقة يقطع بسيفه رأس الزهور التي تعلو فوق الأخريات، وهو شهيد سداد رأيه يهان بالبديهة كالنظر الرهيف المهان بالضوء الساطع، لم يكن مبالياً بشيء شريطة أن يكون حقيقياً، كان قوله فريداً من نوعه.

لقد أتى في ذلك اليوم إلى الريف، مع صديق كان يرى قصراً بهياً وحدائق غنّاء، فلم يرَ سوى بناء بطول ستين قدماً وعرض خمسة وثلاثين قدماً، كانت كثافة أشجاره بشكل مستطيل من جانب أكثر من جانب آخر[1] بعشر فدانات، ورغب رغبة شديدة في أن تكون قواعد فن الرسم المنظوري قد أخذت بعين الاعتبار بجودة أكيدة، وأن تكون ممرات صفَّيِ الأشجار الموجودة في كل مكان بذات الاتساع، فلعلها بذلك تعطي منهجاً علمياً بحتاً.

بدا راضياً للغاية عن ساعة شمسية كان قد فصّلها تفصيلاً بتركيبة فريدة، واحتد ضد عالم كان بجواري ولسوء الحظ كان قد سأله إن كانت هذه الساعة تحدد الساعات البابلية، إلا أن القصصي تحدث عن قصف قصر فونتارابي، وعلى حين غرة شرح لنا ميزات الخط التي سلكته القنابل في الهواء وكان مغتراً بنفسه لمعرفته ذلك، لكن هذا العالم تجاهل تماماً هذا النجاح.

رجل بدأ يرثي حاله لأنه قد أفلس الشتاء الماضي من جراء الفيضان، فقال المهندس: ما قلته لي مريح جداً لي. أدركت أنني لم أخطئ في مراعاة ما قمت به، وإنه على الأقل سقط على الأرض بوصتان من الماء أكثر من العام الماضي. بعد لحظة خرج وتبعناه وبما أنه كان يمشي مسرعاً ولا ينتبه أمامه التقى برجل آخر واصطدما بعنف، ومن جراء هذه الصدمة ارتد كل واحد إلى طرف لسبب مشترك هو سرعتهما وحجمهما، وعندما استعادا

---

(1) محرود أو مستطيل من جانب أكثر من جانب آخر، هو مربع طويل ومستطيل في نفس الوقت حسب ما يقول قاموس تريفو بكلمة المحرود التي استخدمت بأواخر القرن في فن تشكيل الحدائق.

وعيهما من تلك الصدمة، قال هذا الرجل واضعاً يده على جبهته: إنه لمن دواعي سروري أنك صدمتني فلدي خبر أزفه إليك، هو أنني نشرت كتاباً يدعى هوراس، قال المهندس: كيف ذلك، كان ذلك منذ ألفي سنة؟ رد الرجل: أنت لم تفهمني، إنها ترجمة لهذا الكتاب القديم، وقد جعلتها تبصر النور، فأنا منكب على عمل هذه الترجمات منذ عشرين سنة.

قال المهندس: ماذا يا سيدي، منذ عشرين سنة لم تفكر؟ أنت تتحدث من أجل الآخرين وهم يفكرون من أجلك. فأجابه: هل تعتقد أنني لم أؤدِّ خدمة لعامة الناس بجعلهم يقرؤون لمؤلفين جيدين ومعروفين؟ فقال المهندس: لم أعنِ ذلك تماماً، أنا أقدّر العبقريات العظيمة التي تقوم بإلباسها ثوباً جديداً مثل أي أحد آخر لكنك، لا تشبهها بشيء، لأنك إذا ترجمت لن تترجم أعمالك قط، الترجمة مثل هذه العملات النحاسية، التي لها نفس قيمة العملة الذهبية، بل وهي أكثر تداولاً بين الناس، لكنها هشة وذات نوعية رديئة. تريد أن تقول بأنك تقوم بإحياء هذه الأشكال بيننا وأنا أعترف لك أنك أعطيتها أجساماً ولكنك لم تعطها الحياة وتنقصها الروح لإحيائها، ماذا لو كانت مثابرتك بالبحث عن الحقائق الجيدة، والتي بحساب بسيط تجعلنا نكتشف الأشياء كل يوم؟ بعد هذه النصيحة المقتضبة افترقا، وأظن بأن كل واحد كان مغتاظاً من الآخر.

من باريس في أواخر شهر ربيع الثاني من عام 1719

الرسالة التاسعة والعشرون بعد المئة[1]

من أوزبك إلى رضي في البندقية

غالبية المشرعين كانوا رجالاً قصيري النظر، وحالفهم الحظ بأن يكونوا على رأس غيرهم، ويكادون ألا يعودوا إلا إلى تحيزاتهم وأهوائهم، ويبدو أنهم ينكرون عظمة وكرامة ما عليهم أن يكتبوا، ويستمتعون بكتابة أنظمة تافهة تتماشى مع عقولهم الصغيرة، في الواقع وهم سيئو السمعة عند أصحاب المنطق السليم. إنهم في خضم تفاصيل لا جدوى منها وقدموا في حالات استثنائية ما ينمّ عن الأفق المحدود، ويرون الأشياء مجتزأة ومغيّبة الشمولية.

منهم من تأثر باستخدام لغة أخرى غير اللغة السوقية، وكان ذلك عبثياً بالنسبة إلى واضعي القوانين، فكيف نراعيها إن كانت مبهمة؟ وغالباً ما يقومون بإلغاء تلك القوانين التي أحدثت من دون حاجة، أي إنهم زجوا شعوباً في معمعات لا تفارقها التغيرات.

الحق يقال: تأتي العجائب من طبيعة عقول هؤلاء الرجال، فأحيانا لا بد من تغيير بعض القوانين، لكن ذلك يحدث نادراً، وإن حدث فهو لا يؤثر كثيراً، وبتردد واضح، فمن الواجب مراعاة ذلك بكثير من التبجيل

---

(1) الملاحظة الأولى من الرسالة 129.

والحيطة، وبطبيعة الأحوال فإن الناس تستخلص من القوانين قدسيتها التامة، ويجب أن تكون هناك إجراءات كثيرة واجبة لإلغائها.

غالباً ما جعلوها تمتاز بدقة متناهية وتبنوا أفكاراً منطقية أكثر من العدالة القائمة، وبذلك تأتي قاسية جداً حتى على روح العدالة، ويعتقد أن من الواجب الابتعاد عن ذلك فإنه علاج يحمل شراً جديداً.

أياً كانت صيغة القوانين، لا بد من اتباعها والنظر إليها كما لو أنها ضمير جمعي، ويتوجب على الأفراد أن يَمْثُلوا إليها دائماً. ومع ذلك لا بد أن نقر أن منها ما يتضمن فتنة تعبر عن حكمة واسعة فيها، فقد منحت الآباء سلطة كبيرة على أبنائهم،[1] فلا شيء يريح القضاة ولا شيء يجرد المحاكم، ولا ينشر الهدوء في الدولة، ولا تبنى أخلاق مواطنين صالحين إلا عبر القوانين.

من بين كل السلطات تلك التي لا يساء استعمالها، وهي الأقدس لكل هيئات القضاء، هي السلطة الأبوية، فوحدها لا تتعلق بالاتفاقيات، فهي فوق ذلك.

من الملاحظ أن البلدان التي تكون فيها السلطات الأبوية، تثيب بسخاء وتعاقب بصرامة وحتى إنها تترأس العائلات بحكمة، فالآباء صورة عن مبدع كوني، فعلى الرغم من أنه قادر على قيادة الناس بحب فهو لا يهمل مكانته بينهم أيضاً من خلال دوافع الأمل والخوف.

سأنهي هذه الرسالة دون أن ألفت انتباهك إلى غرابة عقول الفرنسيين،

---

(1) من كتاب روح الشرائع، الجزء السابع.

ويقال إنهم تأثروا بالقوانين الرومانية وبعدد لا حصر له من التفاهات، والأسوأ من ذلك أنهم لم يكترثوا بالقوانين ولا بالسلطة الأبوية وهي الموجودة كأول مرجع شرعي.

من باريس في الرابع من شهر جمادى الآخرة من عام 1719

الرسالة الثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى...

سأحدثك في هذه الرسالة عن زمرة من الناس تدعى القصصيين، الذين يجتمعون دائماً في حديقة[1] فخمة، في وقت فراغ مملوء بالوهم، لا نفع منهم في الدولة فخطابهم منذ قرابة خمسين سنة لم يتغير أثره كما لو أنهم بقوا صامتين لزمن طويل، إلا أنهم يعتقدون بأن لهم اعتبارهم لأنهم يتحدثون في مشاريع هامة ويعالجون مصالح كبرى.

أساس أحاديثهم هو فضول تافه ومثير للسخرية، ولا يوجد وزارة يكتنفها الغموض إلا ويدّعون أنهم دخلوا فيها، ولا يعترفون بجهلهم للأمور، وهم يعرفون عدد نساء سلطاننا العظيم، وعدد أولاده في مجمل السنين الفائتة، وبالرغم من أنهم لا يتحملون عناء الجواسيس، فإنهم مزودون بالمكاييل التي تهين إمبراطور الأتراك والمغول.

وما إن يفرغوا من الحاضر حتى يندفعوا نحو المستقبل، قبل العناية الإلهية، فيتنبؤوا بأحوال الناس وبيدهم يصطحبون قائد جند بعد كيل من

---

(1) التويليري، دوفرسني، التسليات، إلخ، الجزء السادس الضيق من هذه النزهات أي التويليري، وهو أن نتألم من حشرات كثيرة فالذباب في الصيف والبعوض في الخريف والقصصيون في كل الأوقات.

المديح، إلى ألف حماقة لم يرتكبها ويعدون ألفاً منها لم ترتكب بعد. يجعلون الجيوش تحلق كطيور الكراكي، ويُسقطون الحصون كأنها من الورق المقوَّى،[1] ويشيدون الجسور على الأنهار، ويشقون الطرق الخفية في الجبال، ويعدون مخازن ضخمة في الرمال الحارقة، ولا ينقصهم سوى المنطق السليم.

هناك رجل أسكن معه تلقى هذه الرسالة من قصصي وبدت لي فريدة من نوعها واحتفظت بها وها هي ذي:

«سيدي، أنا نادراً ما أخطئ في حدسي على أحوال الزمان، ففي الأول من يناير 1711 توقعت موت الإمبراطور جوزيف خلال هذه السنة، فحقيقةً وبما أن صحته بخير، اعتقدت أنني سأكون موضع سخرية حتى من نفسي، وإذا شرحت بوضوح شديد سأضطر إلى استخدام مصطلحات يكتنفها الغموض، لكن الناس الذين يتعمقون بتفكيرهم قد يفهمونني جيداً، وفي السابع عشر من إبريل من نفس السنة تُوُفّي بالجدري.

ولما أعلنت الحرب بين الإمبراطور والأتراك، ذهبت طالباً أسيادنا في كل مكاتب التوليري، واجتمعت بهم عند الحوض وأنبأتهم بأن حصاراً سيقع على بلغراد وسيستولى عليها، وكنت سعيداً لتحقق نبوءتي، والحق يقال إنني في وسط ذاك الحصار راهنت بمئة قطعة نقدية على أنهم سيستولون على المدينة في الثامن عشر من أغسطس،[2] فاستُولِيَ عليها بالغد، هل أستطيع الخسارة بضربة حظ كهذه؟

---

(1) يبدو اليوم كلعبة الورق.

(2) 1717 (مونتسكيو).

عندما أرى أسطول إسبانيا يرسو في سردينيا، أرى أنه يقوم بالغزو وأصرح بذلك، وسيتحقق. مغتر بنجاحي، وأسهبت في الكلام على هذا الأسطول المنتصر بقولي إنه سيرسو في فينال لاجتياح ميلانو، وبما أنني لم أتقبل هذه الفكرة أردت أن أدعمها معتذراً، فراهنت بخمسين قطعة نقدية، وخسرتها لأن ذلك الشيطان البيروني وبالرغم من المعاهدات أرسل أسطوله إلى صقلية، فخدع أعظم السياسيين في نفس الوقت: الدوق سافوي وأنا.

كل ذلك يا سيدي غير طريقي كلياً، وها أنا أتنبأ على الدوام من دون أي رهان، وفي التوليري سابقاً كنا لا نعرف تداول المراهنات، وقلما كان يعاني كونت ليون الراحل[1] منها، لكن منذ أن اختلطت بنا مجموعة من الأسياد الشبان عدنا لا نعلم أين نحن، وما نكاد نفتح أفواهنا لنقول خبراً إلا وأحد من هؤلاء المغرورين ينتهز الفرصة بين الكلمة الأولى والثانية ويقول لي: أراهن بمئة قطعة نقدية أن لا صحة لهذا الخبر، تظاهرت أنني لم أُعِرِ انتباهاً لهذا الهوس، وتابعت الكلام بصوت عالٍ، أنا أقول: يا سيدي مارشال... إنني علمتُ... فقال لي المتعجرف: إنه من الخطأ تناولك لأخبار مبالغ بها، ولا يوجد معنىً مدرَك من خلالها.

أتوسل إليك سيدي المارشال بأن تسدي إليّ معروفاً وتقرضني ثلاثين قطعة نقدية، لأني أعترف لك أن هذه الرهانات ضايقتني كثيراً وأرسل صورة الرسالتين اللتين كتبتهما للوزير، أنا إلخ...».

---

(1) كونت ليون.

رسالة من قصصي إلى وزير

سيدي، إني من الرعايا الأكثر غيرة على الملك بالمطلق، وقد ألزمت أحد أصدقائي بتنفيذ مشروع كونته عن كتاب يظهر أن لويس العظيم كان أعظم الأمراء جميعهم، واستحق هذا اللقب. وأعمل منذ زمن طويل في وضع عملٍ كتابيّ آخر، سيرفع من شأن أمتنا، وإن كانت فخامتكم تريد أن تمنحني امتيازاً فخطتي هي أن أبرهن من بداية الحكم الملكي، أنه ما من عدو بعد سيهزم الفرنسيين، وإن ما يدّعيه المؤرخون عن خسائرنا هو محض بهتان، وأنا ملزم بتصحيح ما قالوه عن كثير من الحوادث التي ذكروها، وأفتخر بأنني لامع وخصيصاً في النقد.

أنا يا سيدي...

سيدي، منذ فقدان السيد الكونت[1] نتضرع لكم بأن تتكرم وتسمح لنا بانتخاب رئيس، إن الفوضى أخذت مكان جلساتنا، ثم إنّ شؤون الدولة عادت لا تعالج بنفس النقاش الذي كان عليه سابقاً، وشبابنا يعيش دون أي اعتبار للكبار، وهم بين أنفسهم غير منضبطين. إنها نصيحة حقة من روبوم يفرض فيها الشباب على الكهول، وعبثاً أظهرنا لهم حيازتنا الهادئة والخيالية في نزاع التويليري قبل عشرين سنة، أي قبل وجودهم في العالم، وأعتقد بأنهم سيطردوننا في نهاية المطاف، وأننا مضطرون إلى ترك هذه الأماكن التي فيها استحضرنا أرواح أبطالنا الفرنسيين مراراً وتكراراً، وسيكون لا بد لنا أن نعقد جلساتنا بحديقة الملك أو في مكان بعيد جداً، أنا...

من باريس، في جمادى الآخرة من عام 1719

---

(1) كونت ليون.

الرسالة الحادية والثلاثون بعد المئة[1]

من رضي إلى ريكا في باريس

من أكثر الأشياء التي أثارت فضولي هو تاريخ وأصول الجمهوريات، أنت تعلم أن غالبية الآسيويين ليس لديهم فكرة حول هذا النوع من الحكومات، وأن المخيلة لا تنفع في إفهامهم أنه بالإمكان الحصول عليها على الأرض من غير طغيان.

الحكومات الأولى التي نعرفها كانت ملكية السلطان، ولم تكن سوى مصادفة وعلى مر القرون تشكلت الجمهوريات، ودمر الطوفان اليونان وقَدِم سكانٌ جُدد ليقطنوها، وقد جذبت تقريباً كل المهاجرين من مصر ومناطق من آسيا الأقرب إليها. إن هذه البلدان التي يحكمها الملوك والتي قد خرجت شعوبها منها، كان يحكمها ذات الحكام، لكن طغيان حكامها أثقل عليهم بشدة، فتمردوا ضد الظلم، وعلى أنقاض هذه الممالك الكثيرة قامت الجمهوريات التي ساهمت بازدهار اليونان، والتي كانت الوحيدة قد صقلتها هذه التجربة من بين الأمم المتخلفة لتصبح راقية.

---

(1) هذه الرسالة تعطي المفتاح لكتاب روح الشرائع، ونعني بذلك التقسيم الاستثنائي للحكومات الجمهورية والملكية والمستبدة. بنظر مونتسكيو إنه تقسيم تاريخي وجغرافي، فالحكومة الجمهورية كانت في الأمَّتَيْن اليونانية والرومانية، والاستبداد لم يكن من آسيا، والملكية لم تكن سوى في أوروبا عند الشعوب المتحضرة التي هي مزيج من الرومان والجرمان.

حب الحرية وكره الملوك حافظ على اليونان مستقلة لوقت طويل، وتوسع الحكم الجمهوري إلى أراضٍ شاسعة، ووجدت المدن اليونانية حلفاء لها في آسيا الصغرى، وأرسلت إليها مهاجرين أحرار مثلهم بنوا لهم المتاريس ضد ما يدبره ملوك فارس.

ليس هذا كل شيء، فاليونان عمرت إيطاليا وإسبانيا وربما بلاد الغال،[1] ونعلم أن الهاسبري العظمى المشهورة جداً عند القدماء، وفي البداية كانت هي اليونان وكان ينظر إليها جوارها كملاذ للسرور، واليونانيون لم يجدو فيها أبداً البلاد المنشودة للسعادة، فهمّوا بالبحث عنها في إيطاليا، ومن هم في إيطاليا بحثوا عنها في إسبانيا، ومن هم في إسبانيا بحثوا عنها في البيتيك أو البرتغال، وهكذا حملت كل هذه المناطق هذا الاسم[2] عند القدماء.

هذه الجاليات اليونانية حملت معها روح الحرية، وتوسعت في هذا البلد المحبب، وقلما نرى في الأزمنة الغابرة ملكيات في إيطاليا وإسبانيا وبلاد الغال، وقريباً سترى شعوب الشمال وألمانيا لا تنعم ولو بقليل من الحرية، وإذا وجدت آثار الملكية بينهم توسعت بالملوك وبالقادة العسكريين وحتى بالجمهوريات.

كل هذا يجري في أوربا، لأن الاستبداد أرهق آسيا وإفريقيا، وإن استثنيت بعض مدن في آسيا الصغرى التي تحدثنا عنها سابقاً، وجمهورية قرطاج في إفريقيا، فالعالم منقسم بين جمهوريتين جبارتين: واحدة لروما وأخرى لقرطاج، ولا يوجد شيء معلوم حتى بدء الجمهورية الرومانية، لا

(1) هذه المزاعم يصعب تزويدها بإثبات.

(2) اسم هيسبري أو المختفي.

شيء إلا القليل عن أصل الجمهورية القرطاجية، وبالإجمال نجهل بقية أمراء إفريقيا ما بعد ديدون، كونهم فقدوا سيطرتهم. وكان التوسّع المهيب للجمهورية الرومانية سيدِرّ نفعاً عظيماً على العالم لو لا هذه التفرقة الظالمة بين المواطنين الرومانيين والشعوب المهزومة، ولو كان لحكام المقاطعات سلطة أقل سطواً، ولو أن أقدس القوانين التي سُنَّتْ لمنع طغيانهم تُوبِعَت وطُبِّقَت، ولو أن حكّام هذه المقاطعات لم يستخدموا الكنوز التي جمعوها من جراء ظلمهم في تقويض هذه القوانين.

ويبدو كما لو أن الحرية قد صيغت من أجل عبقرية الشعوب الأوربية، وعبودية الشعوب الآسيوية. إنه لمن العبث أن يقدم الرومان للكابوديسيين هذه الكنوز الدفينة، وأن ترفضها أمة متراخية وتتمسك بالعبودية بنفس الرضى الذي تُهرع إليها شعوب تنشد الحرية.

اضطهد القيصر جمهورية الرومان وأخضعها لسلطانه المستبد، وتشكوا أوربا ومنذ زمن طويل حكم العسكر وقسوته، إلا أن لين التعامل الروماني كان مختلفاً عن هذه الوحشية الظالمة.

إلا أن عدداً لا متناهياً من الأمم مجهولة الهوية تدفّقَ من الشمال، وكسيل جارف انتشر في المناطق الرومانية، ووجد من السهل القيام بفتوحات كما لو أنه قراصنة، وجزّأَ الإمبراطورية وأسس الممالك. لقد كانت هذه الشعوب حرة وقوية جداً في الحد من سلطة ملوكها، لدرجة أنها كانت جميعها أشبه في الواقع بالقادة أو الألوية.

ولهذا، فمع أن هذه الممالك أُسِّسَت بالقوة، فإنها لم تشعر قطّ بقَيْد الفاتحين. وعندما قامت بعض الشعوب الآسيوية، كالتتار والتُّرك،

بفتوحها، وكانت رَهْناً لإرادة رجل واحد، فإنها لم تفكّر إلا في منحه رعايا جدداً وإقامة سلطته القاسية بقوة السلاح، إلا أن شعوب الشمال كانت حرة في أوطانها، وتحتل الأقاليم الرومانية، ولا تمنح أبداً قادتها سلطة مطلقة، ومن هذه الشعوب الفاندال في إفريقيا والقوط في إسبانيا، حيث قاموا بتنحية ملوكهم لأنهم لم يكونوا راضين عنهم. أما عند الآخرين فسلطة الأمير محدودة بطرق كثيرة ومختلفة، وكان عدد من السادة يشاركونهم السلطة، والحروب لا تقع إلا بموافقتهم، وتقسم الغنائم بين القائد والجنود، وليس هناك أي ضريبة لصالح الأمير، وتسن القوانين في مجالس الدولة، وهذا المبدأ الجوهري لكل الدول التي تكونت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

من البندقية في العشرين من شهر رجب من عام 1719

الرسالة الثانية والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى...

كنت ومنذ خمسة أو ستة أشهر في مقهى، لاحظت هناك رجلاً نبيلاً كان يتعمد إسماع مَن حوله يتحدث عن لذة العيش في باريس. كان يشكي حاله كونه مُضْطَر إلى الذهاب مستضعفاً إلى المقاطعة، قال: «لدي خمسة عشر ألف جنيه كدخل من أملاكي».

كنت أعتقد أنني كنت سأصبح أسعد لو كان لدي ربع هذا المبلغ من النقود الذي سيكون ذا قيمة في كل مكان، لكنت ضغطت عبئاً على مزارعيّ، وأرهقهم بنفقات المحاكم وكنت لأجعلهم أكثر إفلاساً، ولم أستطع يوماً رؤية حتى مئة وحدة نقدية في الوقت ذاته، ولو تحتم عليّ استدانة عشرة آلاف فرنك سيقومون بالاستيلاء على أرضي وممتلكاتي، وبنهاية المطاف سأودع في المشفى.

خرجت دون الاكتراث بهذا الكلام، إلا أنني كنت البارحة في هذا الحي ودخلت النُّزل نفسه، ورأيت هناك رجلاً صارماً ذا وجه شاحب وطويل، كان من بين خمسة أو ستة متحدثين، بدا عليه الحزن والتفكير، أخذ بالحديث فجأة رافعاً نبرة صوته: «نعم يا سادة، أنا انتهيت وعاد لا يكون لدي ما أعيش منه، إذ إن لدي حالياً في منزلي

مئتي ألف جنيه من الفئة الورقية ومئة ألف ريال فضي،[1] وإنني لفي وضع رهيب».

كنت أظن نفسي غنياً وها أنا ذا في المستشفى، فعلى الأقل لو كنت أمتلك أرضاً صغيرة فقط، أعود إليها، لكنت على يقين أن لدي ما أعيش منه، لكن ليس لدي عظمة هذه القبعة من الأملاك.

التَفَتُّ صدفةً إلى جهة أخرى، ورأيت رجلاً استولى عليه الانزعاج، صاح قائلاً: «بمن تثق بعد الآن؟ لقد خانني أعز أصدقائي، أقرضته نقودي فأعادها إلي، أي خيانة فظيعة هذه! عبثاً، برأيي سيلاحقه العار دوماً».[2]

على مقربة مني كان هناك رجل يرتدي ثياباً رثة جداً يرفع عينيه للسماء يقول: «ليبارك الله بمشاريع وزرائنا لأرى أعمالاً[3] بألفي قطعة نقدية،[4] وعندئذٍ سيصبح كل خدم باريس أغنى من ساداتهم! كان لدي الفضول لأسأل عن اسمه، قيل لي إنه رجل فقير للغاية ولديه حرفة فقيرة كذلك، إنه عالم أنساب ويعتاش من مهنته، وتنهال عليه الثروات. حيث إن كل هؤلاء الأغنياء الجدد سيحتاجون إلى تعديل أسمائهم والتخلص من ألقاب أجدادهم وتزيين عرباتهم. كان يتخيل أنه يصنع أناساً رفيعي المستوى كما سيحلو له، وينتفض[5] من الفرح لرؤية العديد من أعماله.

---

(1) عاد لا يُدفع من خلال البطاقات البنكية، وتوجب استبدال الفضة والكنوز بزوج من الأوراق التي لا قيمة لها (الرسالة 142).

(2) الورقة لا قيمة لها، إنما تحفظ قيمتها الاسمية وتسمح للدائن بإهلاك من استدان بتحصيل ذلك من خلال خرقة لا قيمة لها. وأيضاً قيل إنه في شارع (كينكامبو) مستدين سحب سيفه على الدائن الذي حصَل منه على الدين، مذكرات ماتيو ماريه.

(3) أعمال مصرف (لو).

(4) ألفا جنيه.

(5) الشكل المستخدم tressaille.

أخيراً، رأيتُ عجوزاً شاحباً ونحيفاً يدخل، وعرفت أنه صحفي قبل أن يجلس، لم يكن واحداً من أولئك الذين لديهم إصرار المتنصرين ضد كل العوائق التي تعرف مسبقاً كل الانتصارات والجوائز، على خلاف ذلك فإنه كان واحداً من هؤلاء المضطربين الذين ليس لديهم سوى أخبار محزنة، قال: «الأمور في إسبانيا تتجه إلى السوء، ونحن ليس لدينا بتاتاً خَيّالة، ويخشى من الأمير (بيو) الضخم أن يقوم بإشراك كل (اللانغادوك)».

على محاذاتي كان هناك فيلسوف خارج التصنيف، كان ينظر إلى الصحفي بعين الشفقة، ويهز كتفيه كلما علا صوته، اقتربت منه فهمس في أذني: هل ترى أن هذا السمين يحادثنا منذ ساعة عن خوفه من (اللانغادوك)، لاحظتُ أمسِ مساءً بقعةً من الشمس لو توسعت ستنتهي كل الطبيعة مخدَّرة، وها أنا لم أنطق بكلمة واحدة.

من باريس الواقع في السابع عشر من شهر رمضان من عام 1719

الرسالة الثالثة والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى...

في يوم آخر، ذهبت لرؤية مكتبة عظيمة في دَير الرهبان الدراويش، والذين هم أمناء عليها، لكنهم مجبرون على ترك الجميع يدخلون إليها لبعض الساعات.

وأنا أدخل رأيت رجلاً رزيناً[1] كان يتجول وسط عدد لا محدود من المجلدات التي تحيط به، فذهبت إليه ورجوته أن يحدثني عن هذه الكتب التي كنت أراها وقد أُولِيَت لها عناية تفوق العناية بالكتب الأخرى. قال لي: «يا سيدي أنا أقطن هنا في أرض غريبة ولا أعرف فيها أحداً، وكثير من الناس طرحوا أسئلة مشابهة عليّ، لكنك ترى جيداً أنني لن أقرأ كل هذه الكتب لإرضائهم، فلدي أمين مكتبة يلبي لك رغبتك، إذ إنه يهتم ليلاً نهاراً بفك رموز كل ما تراه هناك. إنه رجل لا ينفع لشيء ونحن نكلفه بكل شيء لأنه لا يعمل إطلاقاً في الدير»، سمعت وقتها ساعة قاعة الطعام تقرع وهو يتابع قائلاً: «إن الذين مثلي على رأس الطائفة، عليهم أن يكونوا أول كل المناورات دائماً»، يقول هذا وهو يدفعني للخارج مغلقاً الباب مختفياً عن عيوني، كما لو أنه طار.

من باريس الواقع في الحادي والعشرين من رمضان 1719

---

(1) كاهن أو كبير الدير.

الرسالة الرابعة والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه

في اليوم التالي، عدت إلى هذه المكتبة ووجدت رجلاً آخر مختلفاً تماماً عن الذي رأيته في المرة الأولى، هيأته كانت بسيطة وسحنته روحانية والتقرب منه ودود جداً.

حالما أعلمته عن فضولي، أخذ على عاتقه تلبية هذا الفضول لا سيما أنني غريب ويرشدني، قلت له: «يا أبتاه ما هذه المجلدات الضخمة التي تأخذ حيزاً كبيراً من المكتبة؟»، رد قائلاً: «شروح الكتاب المقدس» أجبته: «يوجد منها عدد كبير! لا بد وأن يكون الكتاب المقدس غامضاً جداً في سالف الزمان وقد غدا الآن واضحاً جداً، وقد زالت بعض الشكوك، وبعض النقاط متنازع عليها» أجابني: «حتى وإن كان فيه مما ذكرت! يا إلهي الطيب! فهي إن وجدت فلا تتعدى مقدار أسطر وحسب»، قلت له: «إذن، ما الذي فعله كل هؤلاء المؤلفون؟»، فأجابني: «هؤلاء المؤلفون لم يبحثوا في الكتاب المقدس عما يجب الإيمان به، بل عما يؤمنون به هم أنفسهم، فهم لا ينظرونه إطلاقاً ككتاب يحتوي عقائد وعليهم اعتناقها، بل كعمل كتابي قد يمد أفكارهم الخاصة بالسلطة، ومن أجل ذلك أفسدوه بكل المعاني وحرفوا كل المقاطع. إنه بلد فيه أناس من كل الطوائف التي انحدرت منها، ويقومون بالاختلاس، إنها ساحة معركة، فيها الأمم

العدوة تتلاقى وتعلن الصراعات بعنف، وفيها الناس تهاجم بعضها بعضاً حتى بكلامٍ قاسٍ من كل الأصناف. بالمحاذاة من هناك، ترى كتب الزهد والتقوى ثم كتب الأخلاق المفيدة جداً وكتب اللاهوت غير المفهومة إلى حد كبير، فهي مادياً قد عولجت بوسيلة ما لغاية ما، وأخيراً الأعمال الصوفية التي تختص فيما يتعلق بالمتدينين ذوي القلوب العطوفة».

قلت له يا أبت: «لحظة لا تغادر بهذه السرعة، حدثني عن هذه الأعمال الصوفية».

قال لي: «يا سيدي... إن التقوى توقد القلب الراغب في الحنان، وتجعله يرسل الروحانيات إلى العقل الذي بدوره يوقدها أيضاً، وهناك تولد الروحانيات والنشوة. إنها حالة من هذيان التقوى، وغالباً إنّ كل من يتقن أداءها يفضل التحول إلى (السكينة)، وعليك أن تدرك أن مؤيد هذا المذهب ليس سوى إنسان مجنون أو متدين أو كافر».

انظر لمن يحلون القضايا الضميرية، ويكشفون الأسرار، ويركبون في مخيلتهم كل الوحوش التي يفرزها شيطان الحب، ليجمعوها، ويقارنوها، ويجعلوها محوراً أزلياً لأفكارهم.[1] إن لمن السعادة ألا ينكمش قلبهم ولا يتآمر مع كثير من الضلالات الموصوفة بصراحة شديدة ومكشوفة للغاية.

سيدي كما ترى أنا أفكر بحرية، وأقول لك ما أفكر به، وقد كنت صريحاً وبأريحية تامة وبالأخص معك، كونك غريباً وتريد معرفة الأشياء كما هي. إذا أردت قد لا أحدثك عن ذلك سوى بإعجاب وقد أحدثك بلا توقف:

---

(1) إشارة إلى معاهدة (دو مارتيميمنيو) لليسوعي سانشيز.

عن روعة هذا الإلهي والمقدس، وإن حصل ذلك فسيكون أحد الأمرين: إما أنني أخدعك أو أكون عديم شرف في رأيك.

بعدما مكثنا هناك... طرأ أمر مستعجل على الراهب الدرويش وانقطعت محادثتنا للغد.

الرسالة الخامسة والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه

عدت في الساعة المحددة واصطحبني صديقي بالتحديد إلى المكان الذي كنا قد غادرناه.

قال لي: «ها هم النحويون والمفسرون واللغويون»، قلت له: «يا أبتِ، أكلّ هؤلاء الناس ممن ذكرت لا يستطيعون الاستغناء عن المنطق السليم؟» قال: «أجل بمقدورهم فعل ذلك ولا يظهر ذلك، فمؤلفاتهم ليست أسوأ من منطقهم وهذا يناسبهم جداً».

قلت له: «إنها حقيقة فأنا أعرف الكثير من الفلاسفة قد يطبقون هذه الأنواع من العلوم».

تابع قائلاً: «إن الخطباء يملكون قدرة الإقناع بعيداً عن الحجج، وعلماء الهندسة يجبرون المرء على أن يقتنع رغماً عنه وإن لزم الأمر أقنعوه بالقوة، وها هي كتب ما وراء الطبيعة تعالج مصالح كبرى جداً لتلتقي اللا نهاية في كل مكان، وأما كتب الفيزياء فلا تجد فيها من الروعة في تدبير الكون الواسع وإنما آلة بسيطة جداً لحرفيينا.

أما كتب الطب هي آثار لضعف الطبيعة وقوة الفن، فهي مضطربة عندما تعالج الأمراض حتى الخفيف منها، وهي تجعل لنا الموت حاضراً، إلا

أنها تضعنا في موقع آمن تماماً عندما نتحدث عن فضل الأدوية كما لو أنها ستجعلنا خالدين.

بالقرب من هنا، كتب علم التشريح التي تحتوي وصفاً مقتضباً لأجزاء الجسم البشري، وقد أعطيت أسماء غريبة، وهو أمر لا يشفي المريض من علته ولا الطبيب من جهله.

«ها هي الكيمياء[1] التي تتوطن إما في المشفى أو في الأكواخ، لكأنها الأماكن المخصصة لها.

ها هي كتب العلوم أو بعبارة أخرى الجهل المستتر، فهي تحوي نوعاً من السلوك الشيطاني ويحتقرها معظم الناس، برأيي إنها مثيرة للشفقة. وهناك كتب مثل علم التنجيم القضائي...»، قاطعته على فوري: «ماذا تقول يا أبت؟ كتب علم التنجيم القضائي! إنه علم له وضع خاص في فارس حيث ينظم شؤوننا ويحدد ما تقوم به مؤسساتنا برمتها، والمنجمون يديرون شؤوننا بدقة ويقومون بأشياء كثيرة ويدخلون في حكومة الدولة».

قال لي: «إذا كان الأمر كذلك فأنتم تعيشون تحت عبوديةٍ أقسى من عبودية العقل، إنها أغرب الإمبراطوريات، فأنا أشفق جداً على عائلة وعلى أمة تسيطر عليها الكواكب بشدة».

قلت له: «نحن نستخدم علم التنجيم كما تستخدمون علم الجبر، فكل أمة لها علمها بحسب ما تدير سياستها، وكل منجمي فارس لا يقترفون حماقات بقدر التي يقوم بها عالم من علماء الجبر[2] خاصتكم، ألا يظنون بأن

---

(1) الفكرة هنا أن الكيمياء [الخيمياء] لا تشترك سوى بالاسم مع علم الكيمياء الحديث.
(2) مونتسكيو يعبر هنا عن كلمات الجبر وعلمائها بمعنىً خاص جداً، فالجبر يجيب

المسار العرضي للنجوم ليس نظاماً أكيداً كبراهين جيدة لصنع نظامكم؟[1]
ولو أحصينا الأصوات التي في فرنسا وفي فارس، بهذا الخصوص، فقد يكون انتصار علم التنجيم موضوعاً هاماً، وسترى الرياضيين يعتريهم الخذلان قبالة أية نتيجة مهينة لا يستطيعون استخلاصها فيما بينهم».

انقطع جدالنا وتوجب على كل واحد منا المغادرة.

من باريس في السادس والعشرين من شهر رمضان من عام 1719

عن الحسابات الخيالية لصانعي النظام (الرسالة 138). ليس مونتسكيو من ابتكر هذا المعنى لكلمة شاهدة القبر للقانون وهي تقرأ بسخرية في شهر نوفمبر 1720 عند سقوط النظام:
هنا يرقد الإسكتلندي الشهير، وهو رياضي بلا نظير، وضع قواعد الجبر، في فرنسا في المستشفى، من ذكريات ماتيو ماريه.

(1) السيد (لو).

الرسالة السادسة والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه

في اللقاء التالي اصطحبني مرشدي إلى حجرة خاصة، قال لي:

ها هي كتب التاريخ الحديث، انظر أولاً إلى مؤرخي الكنيسة والباباوات فقد قرأت كتبهم لأقوّم نفسي وهي تبعث في نفسي حين أقرأها تأثيراً مغايراً، لقد دونت الانحطاط الرهيب للإمبراطورية الرومانية، التي قامت على أنقاض حكومات كثيرة، وعلى أنقاضٍ واحدة تشكلت الكثير من الملكيات الجديدة.

لقد ظهر فجأة عدد لا يحصى من شعوب البربر مجهولة النسب كالبلدان التي قطنوها، فأغرقوها ودمروها وجزّؤوها وأسسوا الممالك التي تراها الآن في أوروبا.

ولمّا كانوا أحراراً، فلم تكن هذه الأقوام بربرية بمعنى الكلمة، لكنها غدت كذلك منذ خضوعها لغالبية القوى المطلقة وفقدت بذلك الحرية المنشودة، حتى لو امتثلت للعقل وللإنسانية وللطبيعة.

ترى هنا مؤرخي الإمبراطورية الألمانية التي لا تعتبر امتداداً لأول إمبراطورية، وأظن بأنها القوة الوحيدة التي لم يضعفها تقسيم على هذه الأرض، كما أظن بأنها اكتسبت قوة بمقدار خسائرها، وبأنها تستفيد من

نجاحها شيئاً فشيئاً، وبذلك أصبحت الآن إمبراطورية لا تقهر مقارنة بهزائمها السابقة.

أما هنا فنلاحظ أولاً مؤرخي فرنسا، حيث أنشأت سطوة ملوك فرنسا وفناؤها مرتين على التوالي، وعادت لتحيا من جديد. بعد ذلك أصابها الوهن لقرون عدة، بيد أن فيها قوىً تتنامى شيئاً فشيئاً من كل حدب وصوب، ولتكون ظاهرة في حقبتها الأخيرة شبيهة بالجداول التي فقدت مياهها وهي تجري، واضمحلت تحت الأرض ثم تدفقت من جديد أنهاراً تتوسع وتأخذ في طريق جريانها الجبار كل ما يعترض طريقها.

وها هنا الأمة الإسبانية، تطل من بين الجبال، فالأمراء المسلمون استسلموا بعدما اجتاحوها رويداً رويداً. لقد كانت كثير من الممالك المتحدة ضمن نظام ملكي واسع، وأصبحت مستقلة حتى أثقلت عظمتها المتفردة وثروتها الغاشمة كاهلها، فخارت قواها وتلاشت سمعتها، ولم تحفظ سوى زهوة قوتها الأولى.

وها هم مؤرخو إنكلترا، حيث نرى الحرية وقد أخرجت نيران البلبلة والفتنة دون توقف، والأمير يترنح على عرش لا يتزعزع، إنها أمة لا صبر لديها، حكيمة في أوج غضبها وسيدة البحر (لم يسمع بهذا الشيء حتى ذلك الحين)، وتدمج التجارة في الإمبراطورية.

بالقرب من هناك، ترى مؤرخي ملكة البحر الثانية، إنها الجمهورية الهولندية، وهي محترمة كثيراً في أوروبا ورهيبة في آسيا كثيراً، فكثير من الملوك يسجدون أمام تجارها.

فيما مضى كان المؤرخون الإيطاليون، يقدمون أمةً هي بمثابة سيدة

العالم، أما الآن فهي تابعة إلى الآخرين أمراؤها منقسمون وضعفاء، وليس لهم من صفات السيادة إلا سياستهم العبثية.

وها هم مؤرخو سويسرا التي تمثل صورة الحرية، وفينيسيا التي لا تملك سوى موارد اقتصادية وجنون مبانيها الساحر.

أما أولئك الذين نتتبعهم باتجاه الشمال: بولونيا التي توظف الحرية بشكل خاطئ وحقها في انتخاب الملوك، وتبدو أنها تريد مواساة شعوب جوارها الذين خسروا هذا وذاك.

وهنا افترقنا للغد.

من باريس في الثاني من شهر شوال من عام 1719

الرسالة السابعة والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه

في اليوم التالي، أخذني إلى حجرة أخرى، وقال لي: «هنا يقطن الشعراء، وفحوى مهنتهم وضع العوائق أمام المنطق السليم، وإرهاق العقل بالمسلمات، فقد دُفنت النساء تحت حليّهنّ[1] وجواهرهنّ في غابر الأزمان. لا بد أنك تعرف هذه الحليّ والجواهر، فهي شائعة عند المشرقيين، وكما يبدو فإن أشعة الشمس الحارقة قد أشعلت الخيالات ذاتها.

وها هنا القصائد الملحمية... قلت له: ما القصائد الملحمية؟

قال لي: في الواقع لا أعرف عنها شيئاً، ويقول العارفون بأن هناك ملحمتين فقط قد نُظِمَتا،[2] أما ما قيل عن ملاحم أخرى كان مجرد ادعاء،

---

(1) في فِكَر باسكال، قد تحدث عن الشعر مثل مونتسكيو تقريباً ولم ير فيه سوى كلاماً فارغاً من المضمون مثل إكليل غار ونجم جميل... وهذا ما ندعوه الجمال الشعري. استنتج فولتير من ذلك أن باسكال كان يتحدث عما لا يعرفه، واعتقد أنها المرة الوحيدة التي كان الحق معه ضد باسكال، وكان غاضبا جداً من مونتسكيو الذي كان قد استثنى الشعراء الدراميين من الاحتقار، الذي أظهره لسواهم، وهذا لم يكن كافياً، من حيث المنطق، لتلطيف موقف كاتب (هينرياد)، فعندما وبّخوه على كتاباته ضد مونتسكيو اكتفى بالقول (إنه مذنب بذم الشعر)، وأقرّ بأنها كانت جريمة لم يغفر لها فولتير (الهارب La Harpe).

(2) الإلياذة والإنيادة.

وهذا أيضاً ما لا أعرفه. زد على ذلك بأنهم يقولون إنه من غير الممكن أن نؤلفها من جديد، وهذا غريب جداً.[1]

وها هنا الشعراء الدراميون، برأيي هم شعراء لهم الحظوة وهم أسياد العواطف، ومنهم نوعان: الكوميديون يحركون مشاعرنا برقة، والتراجيديون يجعلونا نضطرب بكثير من العنف.

هذه القصائد الغنائية أحتقرها بقدر ما أحترم الأخريات، وأجعل منهن ترفاً متناغماً. ثم نرى بعد ذلك مؤلفي قصائد الغزل الريفية، ومحاورات ريفية تلبي أذواق الناس حتى من هم في البلاط، فمن خلال الفكرة التي تطرحها يلتمسون طمأنينة بحتة لا يملكونها، وتظهر لهم في حالة حياة الرعاة.

من بين جميع المؤلفين الذين رأيناهم إليك أشدهم خطراً: أولئك الذين يتخذون الهجاء سبيلاً لهم، وهم سهام صغيرة منفلتة، تجعل الجرح عميقاً وعصياً على الشفاء. فها هي الروايات ومؤلفوها، وهم من الشعراء، يتجاوزون لغة النفس ولغة القلب، ويقضون حيواتهم باحثين عن الطبيعة التي يفتقدونها، وأبطالهم هم كذلك، في داخلها، غرباء كالتنين المجنح والقنطور.

قلت له: لقد وصلتني رؤاك، وإن وصلت رؤاي فستصدم بها بشدة وهي طبيعية بعض الشيء.

---

(1) السيد مير M. Meyer دراسات في النقد القديم والحديث بباريس عام 1850، ورأى في السلتيين جملة هي قصيدة هجاء مسبقة ضد (هينرياد La Henriade)، بدت سابقاً وحدثت في مخطوطة. مونتسكيو لم يكن لديه ميل أبداً لا إلى فولتير ولا إلى الشعر، وكان بإمكانه أن يقوم بكناية عن قصيدة الرابطة La Ligue الاسم الأول لـ (الهنرياد).

علاوة على ذلك ستنزعج بشدة من تقاليدنا: فعليك الانتظار لمدة عشر سنوات وأنت واقع بالهوى، قبل أن تستطيع رؤية وجه محبوبتك فقط.

بيد أن المؤلفين أجبروا القرَّاء على قراءة هذه البدايات المملة، مع العلم أنه لا يمكن أن تكون الحوادث متنوعة، واللجوء إلى الحيلة أسوأ من الشر الذي نريد التخلص منه نفسه.

وهذا ما نسميه بالمعجزات، وأنا على ثقة أنك سترى أنه ليس من المناسب أن تخرج ساحرة من جوف الأرض سلاحاً وبطلاً يستطيع بمفرده أن يفني مئة ألف رجل باستخدام سلاحه. هنا مكمن رواياتنا، هذه المغامرات المملة والمكررة غالباً تشعرنا بتعب المتابعة، وهذه الأساطير الوهمية تثير سخطنا.

من باريس الواقع في السادس من شهر شوال من عام 1719

الرسالة الثامنة والثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى إيبين في إزمير

يتعاقب الوزراء ويفنون بعضهم بعضاً هنا كالفصول، فمنذ ثلاث سنوات رأيت تغيراً في النظام المالي أربع مرات، واليوم تُحَصَّل الضرائب في كل من تركيا وفارس، تماماً كما فرضها مؤسسو هذه الإمبراطوريات، ويجب أن تكون هي نفسها هنا. وصحيح بأننا لم نتعامل مع هذه المسألة بحنكة كحنكة الغربيين، إذ إننا نؤمن بأنه لا يوجد فرق بين إدارة دخل الأمير ودخل ممتلكات فرد من الأفراد، يفوق الفرق بين مئة أو مئة ألف طومان. ولكن هنا يوجد كثير من الدقة والغموض، ويجب على العباقرة العظماء العمل ليلاً نهاراً كي يخلقوا مشاريع جديدة بلا توقف وباستمرار وهم يتألمون، وأن يستمعوا إلى آراء لا حصر لها من الأشخاص الذين يعملون تحت إمرتهم، من دون أن يُسألوا، وهم سيتقاعدون ويعيشون في أعماق حجرة لا يمكن اختراقها من قبل الكبار ومقدسة بالنسبة إلى الصغار، وقد تكون رؤوسهم مملوءة بأسرار خطيرة وتصاميم خارقة وأنظمة جديدة، وتجتاحهم التأملات وهم محرومون من حقهم في الكلام، بل وأحياناً حتى من أن يكونوا لطفاء.

ما إن أغلق الملك الراحل عيناه، ظهرت فكرة إنشاء إدارة جديدة، وكان هناك شعور بالاستياء، إلا أننا لم نعلم ما هو السبيل لنكون أفضل، ونحن

وإن لم نكن ضمن سلطة الوزراء السابقين غير المحدودة، أردنا الاشتراك فيها، وبهذا الصدد أُنشِئ من ستة إلى سبعة مجالس،[1] لربما تحكم فرنسا كلياً وزارة كهذه بكثير من المنطق.

كانت مدة حكمه قصيرة، وكذلك الخير الذي رافقها. كانت فرنسا بموت الملك الراحل هالكة بألف علة[2] (N...)، فقد حكم بيد من حديد وتخلص من الناس عديمي الفائدة، واستخدم بعض الأدوية الموضعية، إلا أن عيباً داخلياً أصابه ولم يستطع الشفاء منه. جاء غريب[3] وشرع بهذا الاستشفاء بعد العديد من الأدوية الفعالة، واعتقد أنه غدا بديناً في حين كان الاستشفاء هو من جعله متعاظماً من الورم.

كل من كان ثرياً قبل ستة أشهر أصبح الآن في فقر مدقع،[4] وكل من كانوا يفتقرون إلى خبز يأكلونه أصبحوا فاحشي الثراء، ولم يُتَعَايَش بين هذين الطرفين عن قرب.

هذا الغريب أدار الدولة مثل رجل ملابس رثّة يتحكم بثوب: يُبرَز في الأعلى ما كان في الأسفل وما كان في الأعلى يوضع في الأسفل. وأي ثروات غير منتظرة ولا يُصَدَّق كيف جُمِعَت!

إن اللّه نفسه لا ينشل الناس من العدم بأسرع من هذا. وما أكثر الخدم الذين يخدمهم أصدقاؤهم، ولعل ساداتهم يقومون غداً بذلك!

(1) محرر في 16 أيلول 1715.

(2) الدوق نواي Le duc de Noailles.

(3) (لو) مذكرات ماتيو ماريه.

(4) ماتيو ماريه.

وفي الغالب كل هذا قد أحدث أشياء عجيبة، فالخدم الذين كونوا ثروة تحت الحكم الماضي يفاخرون بنسبهم، وها هم يمهدون الطريق[1] لمن خلعوا ثياب الخدم، ويواجهون كل ازدراء كان يُكَنّ لهم منذ ستة أشهر. لقد صرخوا بكل قوتهم: النبل زائل وأي اضطراب في الدولة هذا! وأي فوضى في الطبقات هذه!

لا يمكنك هنا سوى رؤية أشخاص غير معروفين يكوّنون الثروات! وأعدك بأن أولئك سيأخذون بثأرهم لمن سيأتون من بعدهم، وسيُحدِث هؤلاء الناس المميزون صخباً إبان ثلاثين سنة قادمة.

من باريس في الأول من شهر ذي القعدة من عام 1720

---

(1) شارع الكانكامبوا (Quincampoix) محفظة الوقت وميعاد النميمة.

الرسالة التاسعة الثلاثون بعد المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه

ها هنا مثال على الحنان الزوجي، وليس فقط عند زوجة عادية وإنما عند ملكة، إنها ملكة السويد[1] التي أرادت بكل ما أوتيت من قوة أن تشرك زوجها[2] الأمير بالحكم، ومن أجل تذليل كل العقبات أرسلت للولاية بلاغاً تتنازل فيه عن الحكم في حال انتُخبت.

منذ ستين سنة ونيف، حكمت هناك امرأة أخرى تدعى كريستين، وقد تنازلت عن التاج الملكي لتنذر نفسها بالكامل للفلسفة. لا أعلم أي من هذين المثالين هي محط إعجابي، على الرغم من أنني أقرّ أن على كل شخص البقاء في المنصب الذي أعطته إياه الطبيعة، وإنني أستطيع أن أثني على ضعف أولئك الذين تحت إمرة الدولة ويتركونها كنوع من الهروب، في حين أنني متأثر بعظمة هاتين الأميرتين ورؤية روح الأولى وقلب الأخرى متسامِيَيْن بترك الثروات.

فكريستين تفكر في المعرفة، في حين لا يفكر الآخرون بسوى

---

(1) أولريك إليونور Ulrique Eléonore أخت شارل الثاني عشر، وقد نصبت ملكة السويد بقرار سياسي من الشعب.

(2) الأمير فريدريك دو هيسي ـ كاسل Frédéric de Hesse ـ Cassel.

المتعة، كما أن الأخرى لا تعنيها المتعة إلا بقدر ما تضع من سعادة بين يدي زوجها المبجل.

من باريس في السابع والعشرين من شهر محرم من عام 1720

الرسالة الأربعون بعد المئة

من ريكا إلى أوزبك في...

نُفي برلمان باريس إلى مدينة صغيرة تدعى (بونتواز) Pontoise، وقد أرسل إلى المجلس للتدوين وللتصديق على قرار يُعَرّيه[1] ويقدمه بطريقة تسيء للمجلس.

هذه المؤسسات ما زالت مكروهة، ولا تتقرب من الملوك سوى من أجل أن تقول لها الحقائق المحزنة، في حين أن جمع الحاشية يمثلون لهم باستمرار شعباً سعيداً تحت إدارة حكومتهم، وهم منكبّون على الكذب والتملق، ويجلبون إلى من هم من عامة الشعب ويعيشون عند أقدام العرش الآهات والأحزان وهم أمناء عليها.[2]

عزيزي أوزبك إنه لحمل ثقيل، وأقصد هنا الحقيقة، عندما يجب أن تنقلها إلى الأمراء!

وعليهم أن يفكروا جيداً أن من يقدم على ذلك فهو مجبر على فعله، ولا

---

(1) البرلمان عارض نظام (لو) مما أدى إلى نفيه إلى بونتواز بأمر من المحافظ في 21 تموز 1720، من مذكرات ماتيو ماريه، أغنية الزمن: البرلمان في بونتواز على واز Oise بأمر من المحافظ، أخذ منهم نقودهم ومن ثم جرهم إلى خصام والبرلمان هو في بونتواز ـ ماتيو ماريه.

(2) روح الشرائع.

يعزمون قط القيام بهذه العقوبات المفجعة والمحزنة جداً لمن يقوم بها، وإن كانوا مجبرين على ذلك بدافع واجبهم واحترامهم وحبهم.

من باريس في الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام 1720

الرسالة الحادية والأربعون بعد المئة

من ريكا إلى الشخص نفسه في...

سأذهب لرؤيتك نهاية هذا الأسبوع، يا لروعة الأيام التي تمر معك!

منذ أيام، التقيت بسيدة من البلاط وكانت لها رغبة برؤية هيأتي الغريبة، ووجدتها جميلة تستحق أن يراها العاهل والمكان الموقر في الركن المقدس لقلبي، الذي تسوده الطمأنينة.

طرحتْ عليّ ألف سؤال حول عادات الفارسيين وطريقة عيش النساء الفارسيات، وتبين لي أن حياة القصر ليست تناسب ذوقها، وهي تشمئز من رؤية رجل يشاطر حياته عشر أو اثنتي عشر امرأة. لم تستطع رؤية سعادة أحد منهم إلا وحقدت عليه، ورؤية حال الأخريات إلا وأشفقت عليهن. وبما أنها تحب المطالعة وخصيصاً الشعر والروايات، وترغب في أن أحدثها عما لدينا من قصص وأشعار، فإن ما حدثتها عنه ضاعف من شغف معرفتها بذلك، وكان لها رجاء أن أقوم بترجمة مقطع كتاب من تلك الكتب التي أقتنيها، وقمت بذلك بالفعل، وأرسلت لها بعد عدة أيام قصة فارسية، ربما سيبهجك رؤيتها مترجمة:[1]

في عصر الشيخ علي خان كان هناك في بلاد فارس امرأة تدعى سليمى،

---

(1) Travesti هنا هي مرادفة لكلمة ترجمة.

وكانت تحفظ القرآن الكريم كله على ظهر القلب، ولا يوجد إطلاقاً رهبان دراويش أفضل منها في سماع قصص الأنبياء عليهم السلام، ولم يقل الأطباء العرب شيئاً من الغموض إلا وفهمت كل معانيه، يرافق طابع نفسها الودودة المميز أنها كثيرة العلوم، مما يدعك تتساءل ما إن كانت تودّ أن ترفّه عمن كانت تتحدث إليهم أم أنها كانت تود تثقيفهم. في يوم من الأيام كانت مع رفيقاتها في إحدى قاعات القصر، سألتها إحداهن عن رأيها بالحياة الآخرة، وإن كانت تؤمن بالرواية القديمة لأطبائها، بأن الفردوس لم يخلق سوى للرجال.

قالت لهم: إن الشعور العام هو وجود أناس يريدون إذلال جنسنا كنساء، وهناك أيضاً أمة ممتدة على امتداد فارس تدعى الأمة اليهودية تدعم بسلطان كتبها المقدسة أننا لا نملك من الروح شيئاً.

هذه الآراء المهينة جداً ليس لها مصدر أخر سوى إبراز الرجال الذين يريدون إظهار تفوقهم الخالد الأبدي، ولا يؤمنون بأنه في اليوم الموعود ستمثل كل المخلوقات أمام اللّٰه من العدم، دون أن يكون أحد منهم مميزاً من الآخر ما عدا أهل الفضيلة.

إن اللّٰه لا يتهاون أبداً في الحساب، وبما أن الناس الذين قد عاشوا طويلاً ومارسوا نفوذ الأباطرة علينا، سيكونون في جنة مملوءة بما هو جميل وملائكي يأخذ اللب بحسنِهِ، ولو رآهم مخلوق فإنه سيتمنى الموت بنفاد صبر ليحصل على هذا النعيم، حتى النساء الفاضلات سينلن نصيبهن من اللذة مع رجال أتقياء مستسلمين لهن. سيغلقن قصرهم على أنفسهن وسيحرسهن الخصيان الأوفياء. أضافت قائلة: قرأت في كتاب عربي أن رجلاً يدعى إبراهيم شديد الغيرة، كانت له اثنتا عشرة امرأة

فاتنة الجمال، وكان يعاملهن بقسوة شديدة ولا يثق بخصيانهِ ولا بقصرهِ المُحصن، يحبسهن في غرفهن طيلة الوقت تقريباً دون أن يرى بعضهن بعضاً أو يتحدثن بعضهن إلى بعض، فهو يغار من المودة النقية، وكانت الوحشية تسيطر على كل أفعاله، ولا تخرج منه كلمة رقيقة، وليست لديه صفة صغيرة إلا وتزيد شيئاً من خضوعهن، وفي يوم من الأيام جمعهن في بهو القصر فانبرت الأجرأ بينهن توبخه على تصرفاتهِ، قالت له: عندما نبحث عن أسباب الخوف سنجد أنها تؤدي إلى الكراهية، نحن تعيسات جداً وليس لدينا ما يمنعنا من التغيير وهناك أخريات غيري يتمنين موتك، ولكن لا أتمنى سوى موتي لأنني لا أستطيع تركك إلا به، سيكون ذلك مريحاً لي لأنني سأغدو حرةً.

من المفترض أن يؤثر به هذا الحديث، لكن على العكس فقد جعله يستشيط غضباً، ويستل خنجره ويطعنها في صدرها، فقالت بصوت متهدج: صديقاتي العزيزات لو رأفت بي السماءِ لفضيلتي، فستكونن قد حصلتن على انتقامكن. فارقت حياتها البائسة بهذه الكلمات لتنتقل إلى النعيم وتعيش بسعادة حيث النساء مكرمات ويحظينَ بسعادة متجددة.

في البداية رأت مرجاً ضاحكاً تبرز خضرته بين الزهور التي توشحه بجمالها، وجدولاً مياهه أنقى من البلور، يشكله عدد لا نهائي من المنحدرات، ودخلت بعد ذلك إلى غاباتٍ ساحرة لا يقطع صمتها سوى زقزقة العصافير العذبة، ثم لاحت لها روضةٌ غَنّاء، حيث كانت الطبيعة قد زُخرفت بالبساطة وبكل ما هو زاهٍ.

وجدت أخيراً قصراً رائعاً محَضّراً لها مملوءاً بالناس السماويين خُصصوا لإرضاء رغباتها، وحضر اثنان من بينهما على الفور ليخلعا ثيابها

وغيرهما ليضعوها في الحمام ويعطروها بأزكى الخلاصات العطرية، وبعد ذلك أعطوها ثياباً فاخرة للغاية غير التي لديها، ثم نقلوها إلى قاعة عظيمة، لتجد هناك ناراً موقدة بخشب زكي الرائحة وطاولة فيها ما لَذّ وطاب من الطعام. وبدا الكل يسعى لافتتان حواسها، فمن جانب كانت تسمع موسيقا بقدر ما كانت إلهية كانت رقيقة ومن جانب آخر، لا ترى سوى رَقَصات الرجال الورعين المنشغلين بإرضائها. ومع ذلك كانت الكثير من اللذات أمامها تنقلها رويداً رويداً للذات أمتع.

أخذوها إلى حجرتها، وبعد أن بدلت ثيابها مرة أخرى أخذوها حيثما أرادت وقالت لهم:

فقدت عقلي وظننت أنني ميتة، وأنا لست متأكدة من خلودي، وهذا كثير جداً. دعاني فأنا أستسلم لوطأة المسرات، أجل منَحْتُما قليلاً من الهدوء لفؤادي، وعدتُ لأتنفس وأعيد لنفسي اتزانها، مَنِ انتزع المشاعل؟ عدتُ لا أستطيع تقدير جمالكما الإلهي.. لا أستطيع أن أرى... لكن لماذا أرى؟ أعدتماني إلى فرحي الأول! أيتها الآلهة! يا لها من لطافة لا حدود لها! ماذا! أنا خالدة وسأكون معكما... لا، سأسَلْكما عن القيمة، لأنني أرى بوضوح أنكما أناس لا يطلبون ذلك قط.

غدت مطيعة بعد العديد من التوصيات المكررة، إلا أنها لم تكن كذلك إلا عندما تكون جدية. تمددت مسترخية، وغطت في نوم عميق بين ذراعيهما وأنعشتها لحظتي نعاس بعد تعبها. وتلقت قبلتين ألهبتاها فجأة وفتحت عيونها.

قالت: أنا قلقة وأخشى أنكما عدتما لا تحبانني كالسابق، وكان الشك

يساورني ولا أريد أن يصاحبني طويلاً، وقد حصلت على كل الإيضاحات التي أريدها، وصاحت تتحرر من الوهم: عفواً عفواً.. وثقت بكما، أنتما لم تقولا لي شيئاً، لكنكما أكدتما لي حق التأكيد أن كل ما قد تقولانه هو لي، أجل أجل.. أعترف لكما بذلك، الناس لا تحب أحداً بشدة، لكن لماذا تتنافسان بشرفكما لتقنعاني؟ آه، إن تنافستما وإذا اطّلعتما على لذة الهزيمة، أكون حينها قد خسرت، وستكونان كلاكما منتصرين، أنا الوحيدة المهزومة، لذا سأقدم لكما الانتصار على طبق من ذهب.

وعندما بزغ النهار انقطع كل ما حدث: فقد دخل إلى حجرتها من خدمها المخلصين واللطفاء شابان، أزاحا الستارة، وعاد الرجلان المسنان إلى الأماكن التي احتُجِزَا فيها من أجل إرضائها. بعد ذلك نهضت، وظهرت بدايةً في هذا البلاط المقدس بسحر التعري البسيط، فاكتست بأفخم زينة زَيّنها بها هذا الليل، وأعطت الحياة لونها، وعبرت عن أناقتها، وقامت الرقصات والحفلات والولائم والملاهي والنزهات طيلة اليوم، كان يلاحظ الجمع أن أنابيس تتسلل من وقت لآخر، وتطير باتجاه البطلين الشابين، وبعد عدة لحظات ثمينة من اللقاء، تعود إلى الجمع الذي غادرته، وما زال يعلو وجهها هيئة أكثر سكينة، وفي النهاية مساءً فقدوها تماماً فهي انزوت في القصر حيث تشاء، كانت تقول لا بد من التعرف إلى الأسرى الخالدين الذين لم يعيشوا معها أبداً، وعندئذ زارت الحجرات المخصصة لهذه الأماكن المنخفضة والساحرة جداً، حيث أحصت خمسين عبداً جمالهم فتّان، وطوال الليل كانت تتجول من غرفة الى أخرى، تتلقى في كل منها تكريماً كان على الدوام مختلفاً أو متشابه الشكل.

وهكذا كانت الخالدة أنابيس تقضي حياتها تارة بين مسرات بهية، وتارة

بين مسرات منعزلة. يعجبها الجمع المتألق أو يحبها عاشق متيم، وغالباً كانت تترك قصراً مبهجاً لتذهب إلى كهف ريفي، وكانت تبدو الزهور نابتةً من بين قدميها، وكان كثير من الرفاهية ماثلاً أمام ناظريها.

منذ ثمانية أيام وهي في هذا السكن السعيد وتعيش في الخيال، ولم يكن لديها أدنى فكرة تشغل بالها فيها، واستمتعت بالسعادة التي لم تكن قد عرفتها من قبل، ولم تدرك يوماً لحظة واحدة من هذه اللحظات الهادئة، التي تكاد تدركها الروح، فانصاعت لصمت الأهواء.

فالناس السعداء لديهم مسرات حية جداً ونادراً ما يتمتعون بحرية النفس، لذا هم متمسكون بقوة بالموجودات ويخسرون تماماً الذكريات التي مضت، وليس لديهم علم بما يعرفون أو يحبون في الحياة الأخرى.

لكن أناييس كان لديها حدس فلسفي حقاً، وأمضت تقريباً كل حياتها بالتأمل وأطلقت العنان لأفكارها أبعد مما هو متوقع من امرأة تركت وحيدة، والاعتكاف المتقشف الذي ألزمها به زوجها، كان قد حملها وزر فضيلة فوق فضيلتها.

وهذه القوى الروحية جعلتها تحتقر الخوف الذي يصيب صديقاتها، والموت قد يكون نهاية الآلام وبداية السعادة، هكذا استطاعت الخروج من نشوة الملذات شيئاً فشيئاً، وانزوت وحيدة في حجرة قصرها، وتذكرت جيداً حكايات رقيقة، كيف كان حالها فيما مضى وكيف يمكن أن تكون سعيدة الآن، فهي متأثرة بمصيبة صديقاتها وتدرك العذابات التي يشاطرونها إياها.

لم تقف أناييس مكتوفة الأيدي فهي ليست متعاطفة فحسب تجاه هؤلاء

البائسات، بل شعرت بالميل إلى مساعدتهن وأمرت واحداً من رجالها أن يتقمص هيئة زوجها، وأن يذهب إلى قصره ويصبح سيداً ويطرد إبراهيم من هناك، ويبقى هناك الى أن تستدعيه.

فالتنفيذ كان سريعاً حيث شق الفضاء ووصل باب قصر إبراهيم ولم يكن هناك.

دق الباب ففتحت الأبواب جميعها له، وركع له الخصيان وطار نحو حجرات نساء إبراهيم حيث هن محبوسات، مضى إلى هناك وأخذ المفاتيح من جيب هذا الغيور دون أن يراه، دخل إليهن، وفي بادئ الأمر فاجأهن بهيأته اللطيفة والمحببة، وفيما بعد أدهشهن بملاطفاته وسرعة مساعيه، عندئذ أصبن بالذهول وظنَنّ بأنّهن يحلمن لو لم يكن هذا واقعاً بالفعل.

وخلال هذه المشاهد التي تتوالى في القصر يُصدم إبراهيم، يعرِّف عن نفسه، يهيج ويصرخ بعد أن أزال كل العقبات، دخل وجعل الخصيان يضطربون بشدة، وكان يمشي بخطىً واسعة، لكنه تراجع إلى الخلف وسقط كالمصابين بالخزي، عندما رأى في إبراهيم المزيف صورته الحقيقية في كل ما يستبيحه كسيد.

أطلق صيحات النجدة وطلب مساعدة الخصيان في قتل هذا الماكر لكنهم لم يطيعوه، وكانت المساندة ضعيفة، فطلب وقتها رأي نسائه، لكن إبراهيم المزيف كان قد أغوى كل الحكماء، وطرد الآخر ذليلاً إلى خارج القصر، وكان ليلقى الموت ألف مرة لو لم يأمر خصمه بإبقائه على قيد الحياة.

في نهاية المطاف بقي إبراهيم الجديد سيداً في ساحة المعركة، وبدا أكثر كفاءة لهذا الخيار، وبرز بمعجزات لم يعهدوها منه من قبل.

قالت النسوة: أنت لا تشبه إبراهيم، فقال إبراهيم المنتصر: قولوا بالأحرى إن هذا الماكر لا يشبهني، وما الذي عليّ فعله لأكون زوجكن إن كان ما فعلته لا يكفي؟

قالت النسوة: ليس لدينا أدنى شك بأنك إن لم تكن إبراهيم يكفي بأن تكون أهلاً لذلك، ففي يوم واحد كنت خيراً من ابراهيم الذي عاش لعشر سنوات في القصر فرد عليهم: إذاً، أتعدونني بأنكن ستكن سنداً ضد هذا الدجال؟ قالت النسوة بصوت واحد: لا شك بذلك، ونعاهدك بالإخلاص الأبدي فنحن كنّ مخدوعات لزمن طويل، والخائن لا يشك أبداً بفضيلتنا وإنما يشك بضعفه، ونعتقد حقاً بأن الناس لم يكونوا مثله، وها أنت دون شك تشبه الناس، ولو علمت كم جعلتنا نحقد عليه! أجاب إبراهيم المزيف: سأعطيكن أسباباً كثيرة وجديدة للحقد عليه. أجبن: نحن نقدر ظلمه بعظمة انتقامك، قال الرجل الإلهي: نعم، أنتن على صواب حين تكفّرن عن جريمتي، وأنا الآن مرتاح لأنكن راضيات عن طريقة عقابي له. قالت النسوة: وماذا نفعل لو عاد هذا الماكر؟ أجاب: لو حدث ذلك بالفعل أظن من الصعب عليه خداعكن، وفي المكان الذي أكون فيه بجانبكن لن يجرؤ على الوقوف على قدميه بمكره، وعلى أية حال سأرسله إلى مكان بعيد جداً ولن تسمعن حديثاً عنه، فمن الآن وصاعداً سآخذ على عاتقي سعادتكن، ولن أكون غيوراً إطلاقاً، وسأمهد لكم درب الطمأنينة دون أن أضايقكن، وأنا واثق من أنني سأكون أهلاً للوفاء، فإن لم تكنّ فاضلاتٍ معي، مع من ستكن كذلك؟

واستمر هذا الحديث بينه وبين هؤلاء النساء مدة طويلة، وهنّ منذهلات جداً من الاختلاف بين الإبراهيمَيْن ومن تشابههما، من دون أن يفكرن بتوضيح الأمور الغامضة.

في النهاية، عاد الزوج اليائس إلى مضايقتهن، إذ إنه وجد بيته يسوده الفرح وزوجاته تنكرنه بشدة أكثر من أي وقت مضى، ولا مكان لغيور بينهن، وخرج غاضباً ولحق إبراهيم المزيف به وأمسكه وقذفه ألفي فرسخ من هنا. أيتها الآلهة! أي أسىً يتملّك هؤلاء النساء في غياب إبراهيم العزيز عليهن!

عاد الخصيان إلى عنفهم الاعتيادي من جديد، البيت كله في كدر، وأحياناً يتخيلن أن كل ما حدث لم يكن سوى حلم، وتنظر جميعهن بعضهن إلى بعض ويتذكرن أقل الحوادث في هذه المغامرات العجيبة.

وأخيراً عاد إبراهيم السماوي وما زال الألطف، وتبين لهن أن رحلته لم يكن فيها شيء من العناء، واتخذ السيد الجديد مسلكاً مضاداً لما كان يسلكه الآخر فاجأ به كل الجوار، حيث استغنى عن خدمات كل الخصيان، وجعل بيته مقصداً لكل الناس، فهو لا يشاء حتى أن يعانين من الانغلاق. كان شيئاً فريداً أن نراهن في الولائم بين الرجال ينعمن بالحرية مثلهم.

اعتقد إبراهيم حق الاعتقاد أن تقاليد هذا البلد ليست محدثة من أجله، ولم تفرض عليه أية نفقات، فأسرف بكثرة من ثروات الغيور الذي عاد بعد ثلاث سنوات من بلاد نائية، كان قد أُرسل إليها فلم يجد إلا نساءه وست وثلاثين طفلاً.

الرسالة الثانية والأربعون بعد المئة

من ريكا إلى أوزبك في...

ها هي الرسالة التي تلقيتها من علاّمة البارحة وستبدو لك مميزة:

«سيدي منذ ستة أشهر حصلت على تركة من عمّ غني جداً أورثني خمسة أو ستة آلاف جنيه وبيتاً أثاثه فخم، وإنّ لمن دواعي سروري أن أملك ثروة عندما أعرف استعمالها جيداً، وليس لدي تطلعات وأهواء للملذات، فأنا غالباً منغلق في حجرة وأعيش حياتي مثل أي عالم.

يوجد في هذا المكان محب ومتعطش للتاريخ القديم العظيم، وعندما توفي عمي كنت تواقاً إلى دفنه بمراسم دفن اليونانيين والرومان، لكن ليس لدي وقت لذلك ولا أوعية العطور ولا جرار رفات الموتى ولا حتى قناديل أثرية.

لكنني ومنذ ذلك الوقت تزودت بالتحف النادرة والنفيسة، ومنذ عدة أيام بعت آنية المائدة الفضية خاصتي لشراء مصباح أرضي كان يستخدمه أحد الفلاسفة الرواقيين، وتخلصت من جميع المرايا التي غطى بها عمي جدران الغرف ليكن لدي في النهاية مرآة صغيرة متصدعة كان يستخدمها (فيرجيل) فيما مضى، تسحرني هيأتي فيها بدلاً من بجعة (مونتو). ليس هذا كل شيء، فقد اشتريت بمئة عملة ذهبية لويسية خمسة أو ستة قطع من

النقود النحاسية التي كانت رائجة منذ ألفي عام، لم أتمكن من الحصول إلا على قطعة أثاث واحدة حالياً لبيتي وكانت تعود إلى ما قبل انحطاط الإمبراطورية، فلدي حجرتي الصغيرة التي آوي إليها وتحوي مخطوطات ثمينة للغاية وعزيزة علي مع أنني أفنيت نظري بقراءتها، أحبها كثيراً وأفضل استخدامها أكثر من النسخ المطبوعة التي ليست صحيحة إلى حد ما وهي في متناول يد الجميع.

على الرغم من أنني لا أخرج كثيراً، إلا أنني لم أستغنِ عن شغفي المفرط لمعرفة كل الطرق القديمة أثناء حقبة الرومانيين، فهناك واحدة منها بجانب بيتي أنشأها والٍ روماني من سكان (الغال) منذ حوالي مئة واثنتي عشر عام.

عندما أذهب إلى بيتي الريفي لا آنس المرور به، ليس لأنه غير ملائم للمشي كثيراً فهو ممتد لأكثر من فرسخ، ولكن ما يغيظني وجود أعمدة خشبية من مسافة لأخرى لتحديد البُعد بين المدن المجاورة، كنت محبطاً لرؤية هذه الدلالات البائسة بدلاً من أعمدة ألفية كانت موجودة سابقاً. أنا أضمن إصلاحها حتى من ورثتي، وسألزمهم بهذه النفقة في وصيتي. سيدي إن كان لديك بعض المخطوطات الفارسية التي تدخل السرور في قلبي، أرسلها إلي وسأدفع لك ما تشاء وسأعطيك علاوة على ذلك المال التي تود ومؤلفاتي التي ستجد من خلالها أنني لست عضواً لا فائدة منه في ميدان الأدب، ستلاحظ بحثاً أدبياً وفلسفياً، أرى فيه أن التاج الذي كانوا يستعملونه في الزمن الغابر رمزاً للانتصارات كان ورق البلوط وليس الغار.

سيعجبك شيء آخر فيه محادثات علمية وحدسية مأخوذة من أهم المؤلفين اليونانيين، وأن كامبيس كان جرحه في قدمه اليسرى وليست

اليمنى، وبحث آخر أحلل فيه أن الجبهة الصغيرة كانت من دلائل الجمال المطلوبة عند الرومان، سأرسل لك أيضاً مجلداً بِتنسيق ثماني صفحات (In quarto) تتضمن تفسيراً لأبيات تحتوي كل منها على أربع نصوص شعرية للكتاب السادس من (الإنيادة) التي ألّفها فيرجيل، وكل هذا ستتَسَلَّمه بعد عدة أيام، أما الآن فأنا على اقتناع تام بإرسال هذا المقطع المكتوب إليك، وهو لعالم أساطير يوناني قديم غير معروف حتى الآن، والذي كنت قد اكتشفته وأنا أنفض غبار المكتبة.

وأترك لك هذه القضية الجسيمة التي بحثت فيها وهي مقطع هام لعالم الطبيعيات (بلين) الأكبر نقله الناسخون خطأً بشكل يدعو للغرابة، أنا...

مقطع من عالِم أساطير قديم:

«بالقرب من جزيرة أوركاد، ولد طفل وكان أبوه أيُولس إله الرياح وأمه حورية كاليدونيا،[1] يحكى عنه أنه تعلم لوحده العد على أصابعه وبعمر أربع سنوات، كان يميز جيداً المعادن، وإن أمه أرادت إعطائه عصاً من النحاس بدلاً من الذهب فعرف الحيلة ورماها أرضاً، وعندما اشتد عُودُه علمه أبوه سر حبس الرياح في قربة، وبعد ذلك يبيعها لكل المسافرين، لكن لمّا كان لم يشتغل في هذه التجارة، غادر وأخذ يجوب العالم برفقة الأعمى إله الصُّدف.

«تعلم في أسفاره في البيتيك[2] بأن الذهب في أرضها يلمع من جميع جوانبه فحثّ إليه الخطى، وقد استقبله ساتورن الذي كان يحكم في ذلك

---

(1) (لو) الإسكتلندي المجاز هو نقد للنظام، روح الشرائع.

(2) فرنسا.

الزمن متجهماً، لكن هذا الإله ترك الأرض وفكر بالذهاب في كل مفارق الطرق ليصرخ هناك بلا انقطاع وبصوت أجش: سكان بيتيك، أتعتقدون أنكم أغنياء لأن لديكم ذهباً وفضة، إن خطأكم يجعلني أشفق عليكم، صدقوني اتركوا دولة معادن الرذيلة وهلموا إلى إمبراطورية الخيال، وأعدكم بالغنى الذي يعجبكم، وعلى الفور فَتَح جزءاً كبيراً من قربته التي جلبها معه ووزع بضاعته على من يشاء.

في اليوم التالي عاد لنفس المفارق وبدأ يصرخ: يا أهل بيتيك أتريدون أن تكونوا أثرياء؟ تخيلوا أنني غنيٌّ جداً، وأنكم كذلك، ولتكن في مخيلتكم كل صباح أن ثرواتكم تضاعفت خلال الليل، واستيقظوا بعد ذلك لأن لديكم دائنين، وادفعوا لهم ما كنتم ستتخيلونه، وقولوا لهم أن يتخيلوا بدورهم.

«بعد عدة أيام ظهر وقال: سكان بيتيك، أرى مخيلتكم لم تكن حية بما يكفي سوى في أيامها الأولى فقط، دعوني أقودكم إلى خيالي وسأضع كل صباح أمام عيونكم لافتة ستكون لكم مصدر الثروات، ولن تروا فيها سوى أربع كلمات،[1] لكنها ذات معنىً لأنها ستدير مهر زوجاتكم وشرعية أبنائكم وعدد خدمكم، وبالنسبة إليكم، كان يقول ذلك للجمع الذي هو أقرب إليه، بالنسبة إليكم يا أطفالي الأعزاء (أستطيع أن أناديكم بهذا الاسم لأنكم تلقيتم مني ولادتكم الثانية) ستقرر لافتتي عظمة خدمكم وحشمكم وفخامة ولائمكم وأجرة عشيقاتكم.

«بعد عدة أيام من ذلك، جاء لمفترق طرق لاهثاً بشدة يحمله الغضب

---

(1) جريان الحوادث.

فصاح: يا شعب بيتيك، قد نصحتكم أن تتخيلوا وأنا لا ألمس هذا الشيء منكم، حسناً، آمركم الآن بذلك. بعد ذلك تركهم فجأة لكن خطرت بباله فكرة وعاد إليهم، أعلم أن منكم من هو كريه إلى حدّ أنه يكتنز الذهب والفضة، فالفضة ممكن جمعها أما الذهب... الذهب آه! هذا يغضبني وأقسم بقِرَبي المقدسة بأنهم إن لم يأتوا بذهبهم لي، فسأعاقبهم عقاباً شديداً.[1]

«ثم أضاف بهيئة تقنعهم تماماً: هل تعتقدون بأن هذا سيحدث لأنكم تحتفظون بهذه المعادن البائسة وأطلبها بعد ذلك منكم؟ وكدليل على حسن نيّتي أنني أعدت إليكم نصف ما أحضرتموه إليّ منذ أيام على الفور.[2]

«شوهد في اليوم التالي من بعيد، وهو يتسلل بصوت رقيق ومتملق: يا سكان بيتيك، أعلم أن لديكم جزءاً من كنوزكم في بلدان أجنبية، أرجوكم أحضروها لي[3] وستدخلون السرور في قلبي، وسيكون هذا عرفاناً أبدياً بالجميل.

«كان ابن أيولس يُحَدّث الناس الذين ليس لديهم رغبة كبيرة بالضحك، ومع ذلك هم لم يمنعوا أنفسهم من ذلك، مما أدى إلى عودته للحديث مرتبكاً جداً، لكنه استعاد شجاعته وخاطر أيضاً برجاء صغير، قال: أعرف أن لديكم أحجاراً كريمة باسم جوبيتر، تخلصوا منها،[4] وإذا لم تتمكنوا

---

(1) أمر بحمل كل الصكوك إلى البنك.

(2) في الأصل كانت تسدد السندات ورقياً أو صكوكاً.

(3) قرار الملك 20 تموز 1720 مذكرات ماتيو ماريه.

(4) إيقاف 4 تموز 1720، مذكرات ماتيو ماريه.

بأنفسكم فلا شيء يهلككم مثل هذه الأشياء، وسأعطيكم رجال أعمال ممتازين، وكم من ثروات ستنهال عليكم إذا نفذتم ما نصحتكم به، أجل أعدكم بما هو أنقى في قِرَبي.

«أخيراً اعتلى منبراً وبصوت مملوء بالثقة قال: يا سكان بيتيك، قارنت حالكم السعيدة الآن مع تلك التي رأيتكم بها عند وصولي إليكم، فوجدتكم أغنى أمم الأرض، لكن لإتمام ثروتكم يكفي أن آخذ نصف ما تملكون.[1] وبهذه الكلمات اختفى ابن أيولس على جناح السرعة وترك مستمعيه في ذعر لا يمكن وصفه، مما جعله يعود في اليوم التالي يتحدث على هذا النحو: لاحظت أمسِ أن كلامي لم يعجبكم إلى حد كبير، حسناً تخيلوا أني لم أقل لكم شيئاً، فالحق يقال النصف كثير، وهناك سبل أخرى للوصول إلى الهدف الذي أتطلع إليه، فلنجمع ثرواتنا في نفس المكان، نستطيع فعل ذلك بيسر لأنها لا تأخذ حجماً كبيراً، وفي الحال اختفى ثلاث أرباعها».[2]

من باريس في التاسع من شهر شعبان من عام 1720

---

(1) مذكرات ماتيو ماريه.

(2) إقرار 15 ايلول 1720 مذكرات ماتيو ماريه.

الرسالة الثالثة والأربعون بعد المئة

من ريكا إلى ناثانيل ليفي طبيب يهودي في ليفورن

سألتني عن رأيي بفضل التعويذات ومقدرة التمائم، لماذا تسألني؟

أنت يهودي وأنا مسلم، ما يعني أن كلّاً منا يسلّم للبديهيات بسرعة.

أعتمد دوماً على أكثر من مئتي ألف مقطع من القرآن الكريم، وأحمل تحت ذراعي رزمة صغيرة مكتوب عليها أسماء لأكثر من مئتي راهب من الدراويش، إنهم علي عليه السلام وفاطمة وكل الأتقياء، مخبَّأة في أكثر من عشرين مكان بين ثيابي، لكنني لا أنتقد أبداً هؤلاء الذين يرفضون هذه الفضيلة معتمدين بهذا على عدة أقوال، ومن الصعب علينا الاستجابة لمنطقهم أكثر من الاستجابة لتجاربنا.

أرتدي كل قطع القماش المقدسة هذه كعادة مستمرة وكطقس عام، وأعتقد أن هذه ليست من الفضائل سوى أنها خواتم وحلي أخرى يباهى بها لا أكثر.

لكن أنت تصب كل ثقتك في رسائل غامضة، ومن دون هذه الحَماية ستكون في رعب مستمر.

الناس تعساء جداً، هم معلقون باستمرار بأمنيّات كاذبة ومخاوف سخيفة بدلاً من إعمال العقل، مما يجعلك تصبح كوحوش ترهبهم أو كأشباح تغويهم.

أي أثر تريد أنت أن ينتجه ترتيب بعض رسائل؟ وأي أثر تريده أن يثير البلبلة؟ وما علاقة الرياح لتهدئة العواصف والبارود للتغلب على ذلك الجهد وما يدعوه الأطباء مزاجاً مَعِيباً، والسبب العضوي للمرض من أجل شفائه؟

ما هو غير طبيعي هو أن الذين يتعبون عقلهم لنقل حوادث لها فضل خفي وليس لديهم أدنى جهد ليمنعوا رؤية السبب الحقيقي.

قلتَ لي إن هناك بعض المتنفذين قد ربحوا المعركة، وأنا قلت لك يجب أن تعمي عينيك لكي لا تبحث في وضع الميدان وفي عدد أو شجاعة الجند وخبرة القادة والأسباب الكافية التي مدت لهذا التأثير مجهول سببه.

أصدقك القول للحظة إنه يوجد نفوذ، وأَصْدِقني القول للحظة بأنه لا يوجد نفوذ أبداً، فإن ذلك مستحيل، فما أوافق عليه لا يمنع جيشين من أن يتقاتلوا.

هل تريد في هذه الحال أن لا ينتصر أي واحد من الفريقين؟ أعتقد أن مصيرهما سيظل مبهماً إلى أن تأتي قوىً غير مرئية لتحدده.

إن كل الضربات ستكون سُدىً، والحذر والشجاعة كذلك لا نفع منها. هل تعتقد أن الموت في هذه الحالات يتمثل بألف طريقة، ولا يستطيع أن يُوَلِّد في الأنفس الرعب المروع الذي ترى صعوبةً في تفسيره؟ هل تريد في جيش قوامه مئة ألف رجل أن لا يكون فيه رجل جبان واحد، وهل تظن بأنك تثبط عزيمة من لديه عزم؟ وثانٍ يترك ثالث، ولا يقوم بالتخلي عن الرابع؟

ليس من الضروري الاستفادة من هذا المثال لكي تستولي خيبة الهزيمة فجأة على كل الجند، ولا سيما أنهم سيكونون أكثر عدداً.

الجميع يعلم والجميع يشعر أن الناس مثل كل المخلوقات التي لديها

غريزة البقاء وتحب الحياة بشغف، ونعلم هذا عموماً ونسأل: لماذا يخافون خسارة حياتهم في حدث معين؟

مع أن الكتب المقدسة لكل الأمم مملوءة بالرعب المفاجئ والعنيف وما هو خارق، فإنني لا أستطيع أن أتخيل شيئاً تافهاً للغاية، فكي يضمن المرء تأثيراً خارقاً للطبيعة، ويمكن أن ينتج عن مئة ألف سبب طبيعي متباين، فإن من الضروري له أن يكون سَبَق وبحث عن عمل أي سبب من هذه الأسباب: وهذا مستحيل. لن أقول لك كلمة إضافية زيادة على ذلك يا ناثانيل؛ يبدو لي أن هذا الموضوع لا يستحق مثل هذا النظر الجِدّيّ.

من باريس في العشرين من شهر شعبان من عام1720

ملاحظة هامة: بينما كنت أنتهي من هذه الرسالة، سمعت صيحات بائعٍ في الشارع كانت عن بيع رسالة من طبيب في المقاطعة إلى طبيب في باريس (إذ كل كلام فارغ يقطع وينشر ويُقتنى هنا). اعتقدتُ أنها مناسبة كي أرسلها إليك، ففيها ما يتعلّق بموضوعنا.[1]

رسالة من طبيب المقاطعة إلى طبيب في باريس

يوجد في مدينتنا مريض لم يَنَمْ منذ خمسة وثلاثين يوماً وصف له طبيبه الأفيون لكنه لم يعزم على أخذه، وكان الكوب بيده متردداً أكثر من أي وقتٍ مضى، في النهاية قال لطبيبه: سيدي، أريد أن تعفيني من ذلك فقط

(1) الكاتب في المخطوطة التي عهدت ألي في حياته هي لبائعي الكتب، أرْتَئِي فيها الحذف ولا أعتقد أن باستطاعتنا حرمان القارئ من ذلك الذي سيجد فيها ملاحظات تحتوي الكثير من الأشياء التي لم أسمع بها، لكن باعتبارك طبيباً عليك سماع لهجة زملائه

حتى الغد، أعرف رجلاً لم يمارس مهنة الطب، ولكن لديه عدد لا يحصى من الأدوية وهي ضد الأرق يكفي أن أراسله بداعي الشفاء، وإن لم أنم هذه الليلة أعدك بالعودة إليك.

انصرف الطبيب وأسدل المريض الستائر وأمر خادماً صغيراً: عليك أن تذهب عند السيد أنيس وتقول له أن يأتي لمقابلتي.

أتى السيد أنيس: عزيزي السيد أنيس أنا أموت ولا أقدر على النوم ألا أجد في دكانك C.G[1] أو كتاباً مقدساً مؤلفه R.P.J ولم تستطع بيعه؟ إذ إن الأدوية الأكثر كساداً هي الأفضل غالباً. فأجابه صاحب المكتبة: عندي كتاب *البلاط المقدّس* للأب كوسان[2] مؤلف من ستة أجزاء، وهي تحت تصرفك، سأرسلها إليك وأتمنى أن تلقى استحسانك، وإن أردت مؤلفات الأب الموقر رودريك الإسباني اليسوعي لن أمنعها عنك. لكن صدقني لنحرص على خيار الأب كوسان، وأرجو بعناية الرب أن تحمل حقبة الأب كوسان تأثيراً يفوق تأثير مطويةٍ من الـC.G.

بعد ذلك خرج السيد أنيس وأسرع لإحضار الدواء من دكانه، وجاء بـ*المحكمة المقدّسة* ونفض عنه الغبار وبدأ ابن المريض، ذاك التلميذ الشاب، بالقراءة، فكان أول من شعر بتأثير ذلك، من بداية الصفحة الثانية، فغدا ينطق بصوتٍ نبرتُه غير مفهومة، وسلفاً بدأ يشعر كل من حوله بالضعف، وبعد لحظة علا شخيرهم، ما عدا المريض الذي غلبه النعاس بعد معاناة طويلة فنام أخيراً.

---

(1) «معرفة الكرة الأرضية» حسب المحرّرين القدماء [للنصّ].

(2) الأب كوسان يسوعي ولد في تروا، مُقِرّ بعقيدة لويس الثالث عشر، نفاه رشيليو، مذكرات ماتيو ماريه.

جاء الطبيب في الصباح الباكر فقال: حسناً، هل تناولت أفيوني؟ فلم يجب المريض بشيء. بينما كانت الزوجة والفتاة والصبي الصغير يتملكهم الفرح، أروه كتاب الأب كوسان، فتساءل عما يكون هذا، فقالوا له: «يحيا الأب كوسان! يجب أن يرسل هذا الكتاب للتجليد، من يمكنه أن يصدق ذلك؟ إنها معجزة! خذ يا سيدي وانظر، إن هذا المجلد للأب كوسان هو من جعل أبي ينام»، وشرحت له الزوجة الأمر كما حدث.[1]

---

(1) كان الطبيب بارعاً ومملوءاً بالغموض الذي يخاطب الأرواح وقوة كلام الأنفس، ذلك أثّر به، وبعد تفكير مطول قرر تغيير نشاطه بالمطلق، قال ها هو حدث فريد من نوعه: أمتلك الخبرة ويجب الوصول إلى ما هو أبعد من ذلك، ولماذا النفس قد لا يمكنها أن تنقل إلى عملها نفس الميزات التي تتمتع بها هي نفسها، ألا ترون ذلك كل يوم، على الأقل يستحق عناء المحاولة، مللت من العطارين ومن شرابهم وأدويتهم وكل العقاقير الجالينوسية التي تُفني المرضى وصحتهم لنغير الطريقة، لنختبر فضل النفوس، وحول هذه الفكرة أقام صيدلية جديدة، بما أنك ستذهب بالوصفة التي سأحضرها لك بأدوية أساسية رَكّبتها.
منقوع مليّن:
خذ ثلاث ورقات من منطق أرسطو باليونانية، وورقتان من دراسة في علم اللاهوت المؤثرة جداً كأبحاث العالم سكوت، وأربعاً من باراسيلس، وواحدة لابن سينا، وستاً لابن رشد، وثلاثاً ليورفير، وكذلك لبلوتان، وأيضاً لجيم بليك، ثم انقعها كلها جيداً لمدة أربع وعشرين ساعة، وتناول منها أربع مرات باليوم.
ملين أقوى: تناول عشراً من A***ل C*** الخاصة بـB *** وC*** وا*** (عشر أحكام صادرة بشأن المصرف ومجمع الهند، عشر قرارات للمجلس تتعلق بقرار بابوي، جمعية اليسوعيين وفقاً للناشرين السابقين والجدول)، وقطرها بوعاء وعدلها بقطرة من مزاج حاد سينشأ منها خليط، ضعه في كوب ماء وابتلع الكل بثقة.
مقيّئ: خذ ست خطب مملة أو عشراً من المراثي الكئيبة، تبعاً لرغبتك، كن حذراً مع ذلك من استخدام خطب السيد M.N. (يعني السيد فليشييه أسقفّ مدينة نيم)، وديوان الأوبرات الحديثة وخمسين رواية، وثلاثين من المذكرات الحديثة، ضع الكل في وعاء، وخمرها ليومين، ثم قطّرها على نار الرمل، إذا لم يَفِ ذلك بالغرض، فهاك وصفة أخرى:

الرسالة الرابعة والأربعون بعد المئة

من أوزبك الى ريكا

وجدت منذ عدة أيام في بيت ريفي كنت أذهب إليه عالمَيْن ينعمان بشهرة واسعة، بدت لي شخصيتيهما مدعاة إلى العجب. كان حديث الأول

مقيِّئ أقوى: خذ ورقة بلون المرمر، الذي كان يستخدم في تغليف مسرحيات J.F (ألعاب فلوروا)، وانقع سطحها لثلاث دقائق، ثم سخن ملعقة من هذا النقيع وابتلعه.
دواء بسيط جدا للشفاء من الربو: اقرأ جميع ملفات الأب المبجل ميمبور اليسوعي السابق الذكر (لويس ميمبور 1610/ 1686 مستبعد من الجماعة اليسوعية من قبل أنوساند الحادي عشر مراعاة لقرار رجل دين فرنسي عام 1682)، احرص على التوقف في نهاية كل مرحلة، وستشعر أن قدرة التنفس ستعود إليك شيئاً فشيئاً دون أن تحتاج إلى تكرار الدواء.
للوقاية من الجرب والطفح الجلدي والثَّعْلَبَة وداء الخيل: خذ ثلاثاً من [كتاب] مقولات لأرسطو، ودرجتان من الميتافيزيقا، وتمييزاً واحداً، وستة من الأبيات الشعرية لشايلان، وجملة مأخوذة من رسائل القديس سان سيران، اكتب الكل على قطعة ورقة واطْوِهَا وعلقها كشريط واحملها في رقبتك.
ملاحظة من المترجِمة: وُضعت هنا بعض الوصفات باللغة اللاتينية القديمة أُغفِلَت، لكنها تأتي في سياق الهزل السابق.
هذه هي العقاقير التي طبقها طبيبنا بنجاح منقطع النظير، الذي قال بأنه لم يُرِد استخدام علاجات نادرة أو يصعب إيجادها، كي لا يدمر صحة مرضاه: مثل رسالة تمهيدية لا تسبب التثاؤب لأي شخص، ومقدمة قصيرة للغاية أو منشور حُرر لأسقف، أو مؤلف لرجل دين من مذهب الجنسانية محتقر من آخر جَنْسينيّ أيضاً، أو مُعجَب به من رجلٍ دين يسوعي. كان يقول بأن هذه الأدوية ليست إلا لرعاية الشعوذة التي تمنحه نفوراً منها بشكل لا يطاق.

قيّماً، يتلخص في قوله: «الحق هو ما أقول لأنني قلته»، أما حديث الآخر فكان بمنحىً آخر، إذ يقول: « إن الباطل هو ما لم أقله، لأنني لم أقله».

ملت إلى الأول، صحيح بأن اعتزاز المرء برأيه لا يعنيني بشيء على الإطلاق، أما أن يكون الشخص وقحاً فهذا يؤثر فيّ كثيراً. إن الأول يدافع عن آرائه وهذا جيد بالنسبة إليه، والثاني ينتقد آراء الآخرين وهذا جيد بالنسبة إلى الجميع.

ما أضرّ الغرور، يا عزيزي أوزبك،[1] لمن يمتلك منه ما يفوق حاجته للحفاظ على الطبيعة البشرية! إن هؤلاء الناس يريدون أن يكونوا محط إعجاب بالقوة، ويسعون إلى السموّ ولا ينشدون المساواة. أيها المتواضعون، تعالوا لأعانقكم! أنتم تمثلون رقة الحياة وسحرها. تعتقدون أنكم لا تتمتعون بأية صفة، وبرأيي لديكم كل المزايا، تظنون أنكم لا تنقصون من قيمة أحد، وفي الواقع إنكم تنتقصون من شأن الناس جميعاً. عندما أقارنكم مع هؤلاء الناس المغرورين الذين أصادفهم في كل مكان، أقتلعهم من عروشهم، وأضعهم تحت أقدامكم.

من باريس في الثاني والعشرين من شهر شعبان من عام1720

(1) تبدو لي جملة «عزيزي ريكا» هي الأصح بدلًا من «عزيزي أوزبك» في الأصل، فهذا ينفي الخطأ في عنوان الرسالة، فهي لم ترسل من ريكا إلى أوزبك كما هو مفترض من بعض الناشرين.

الرسالة الخامسة والأربعون بعد المئة

من أوزبك إلى...

إن ذا العقل أو العبقريّ عادة ما يجد صعوبة في التعايش مع المجتمعات، وينتقي قلة قليلة من الأشخاص، ويضيق ذرعاً بالعدد الكبير الذي يحلو له أن يسميه بالصحبة السيئة، من المستحيل ألا يشعر تجاههم بالكراهية كما لو كانوا أعداء، ويثق بأنه يثير إعجاب من حوله متى أراد، ولكنه لا يهتم بذلك في أغلب الأحيان، فهو يميل إلى النقد لأنه يرى من الأشياء كثيراً مما لا يراه سواه، ويحس بها أكثر مما يحسون.

يكاد يفني ثروته، لأن عقله يزوده بأسباب شتى لذلك، ويخفق في مبادراته لأنه يخاطر كثيراً، ونظرته البعيدة دائماً تريه أشياء أبعد مما نتصور، معتبراً أن عقبات أي مشروع ليست سوى من طبيعة المشروع نفسه، وأن الحلول إنما تأتي من عنده، ويغوص في أعماقه. إنه يهمل التفاصيل الدقيقة وإن كان يتوقف عليها نجاح كل القضايا العظمى تقريباً.

أما الرجل الذي لا يتمتع بسعة الفكر، فهو على العكس من ذلك، يجرب أن يستفيد من كل شيء ويشعر تماماً أنه ليس لديه ما يخسره بالإهمال.

إن التأييد العام موجّه على الأغلب إلى الإنسان محدود العقل، إذ يُسحر بهذا الشخص، ويسحب المديح عن الآخر العبقري، فبينما يُتَرجَم

كلّ شيء لصالح الأول ويناصره الغرور، ينقلب الحسد على الثاني، ولا يُغفر له شيء. لكن إذا كان كل هذا الإجحاف يعتري صاحب العقل، فماذا سنقول عن الوضع القاسي للعلماء؟

لا أفكّر في ذلك أبداً من دون أن أتذكر رسالة لأحد منهم موجهة إلى أحد أصدقائه، وهاك فحواها:

«سيدي.. إنني رجل يشغلني طوال الليل النظر بمنظاري الذي يبلغ طوله ثلاثين قدماً دارِساً هذه الأجرام السماوية الضخمة التي تسبح فوق رؤوسنا، وإذا ما ابتغيت الراحة فإني أتناول مجهراً صغيراً، لأدقق في عثة أو قملة.

لست غنياً البتة، وليس لدي إلا حجرة واحدة، لا أجرؤ على إيقاد المدفأة فيها، فلدي مقياس حرارة وأي حرارة غير مألوفة ستجعله يسجل ارتفاعاً. في الشتاء الفائت كنت أعتقد أنني سأموت من البرد، وعلى الرغم من أن مقياس الحرارة خاصتي الذي سجل أدنى درجة نبهني بأن يديّ ستتجمدان، فإنني لم أهتم بذلك وكان عزائي بأني حصلت على دراية دقيقة بتغيرات الطقس الأغرب في كل السنة الفائتة.

قلما أتواصل مع الناس، وجميع من أراهم لا أعرف منهم أحداً، لكن رجلاً في استكهولم وآخر في ليزبيك وآخر في لندن، لم أرهم من دون أدنى شك، أراسلهم وبعبارة أوضح لا أنقطع عن مراسلتهم.

على الرغم من أنني لا أعرف أحداً في الحي الذي أقطنه، فإن شهرة بالغة السوء فيه قد طالتني، لدرجة سأكون معها مضطراً إلى مغادرته في النهاية. فمنذ خمس سنوات وأنا أهان بقسوة من إحدى جاراتي لأنني

شرَّحتُ كلباً تدّعي أنه ملكها، وامرأة الجزار التي كانت عندها تشاطرها الأمر ذاته. في حين كانت الأولى تنهال عليّ بالإهانات، كانت الأخرى تقذفني بالحجارة، أنا والطبيب... الذي كان يرافقني، والذي تلقى ضربة عنيفة على عظم جبهته وأسفل رأسه فقد صوابه جرّاءها.

منذ ذلك الوقت، ما إن يعدُ أي كلب إلى نهاية الشارع، يُجزم على الفور بأنه أفلت من بين يدي، وحدث أن فقدت سيدة برجوازية جرواً من كلابها، قالت بأنها كانت تحبه أكثر من أولادها، جاءت إلي ذات يوم ولم تجده، وأغمي عليها في حجرتي، فقامت بمقاضاتي عند الحاكم.

أعتقد أنني لن أتخلص أبداً من الأذى الخبيث لهؤلاء النسوة اللواتي يصعقنني بأصواتهن الثاقبة بلا توقف وهن يرثين كل مخلوق مُسَيَّر[1] قد فنيت عظامه منذ عشر سنوات، إنني...».

كل العلماء في ما مضى كانوا متهمين بالسحر، ولست أعجب من ذلك، وكل واحد منهم يقول في نفسه: إنني أحمل مواهب طبيعية أبعد مما يستطيع الناس إليها سبيلاً، إلا أنه من المؤكد أنّ هناك عالماً يتفوق علي، لا بد إذن من أن هناك سلوكاً شيطانياً ما».

الآن وقد افتُضِحَ أمر هذه الاتهامات، واتخذت صيغة أخرى، فأي عالم لا يعرف حتى كيف يتجنب اتهامه بالإلحاد والهرطقة، ومهما غفر له الناس، فالجرح لن يندمل، بل وسيبقى مصدراً للألم. سيأتي منافس بعد ثلاثين عاماً، ويقول له بتواضع: إن الله لا يرضيه إلا أن أقول بأن ما اتهموك به هو الحق، حتى اضطررت إلى الدفاع عن نفسك، وهكذا تدور البراءة

---

(1) المخلوق المسيّر هو مرادف للحيوان، يوجد أيضاً في نظام ديكارت الذي اهتم به مونتسكيو كثيراً.

على نفسها لتغدو اتهاماً بذاتها. وإذا كتب العالم التاريخ، وكان فيه نبل التفكير، واستقامة الحفيظة، تيقظ في الناس التعنت، وترفع شكوى ضده عند الحاكم، من أجل حدث مضى عليه ألف سنة، متطلعين إلى أن يكون قَلَمه مأسوراً، إن لم يُبَع ويُشْتَرَ.

بيد أن أكثر الناس سعادة هم الرعاديد الذين يتخلون عن إيمانهم من أجل حفنة من المال، والذين يحملون معهم ضلالاتهم مفصلة ولا يبيعونها بمجرد مبلغ صغير، والذين يقلبون دستور الإمبراطورية، ينتقصون من حقوق سلطة، ليزيدوا من تلك، يمنحون الأمراء ويسلبون الشعب، ويحيون حقوقاً قد بطلت، ويتملقون أهواء من لهم حظوة في زمنهم كما عيوب من هم على العرش، فارضين المزيد من السخط على الأجيال القادمة، بأقل الوسائل تحطيماً للدلائل. لكن لا يكفي ما يلقاه كاتب من إهانات، ولا يكفيه أن يكون في قلق دائم على نجاح مؤلَّفه، وأن يرى النور قريباً بعدما كلفه جهداً مضاعفاً، حتى تأتيه المشاحنات من كل حدب وصوب، فكيف يتجنبها؟

إن لديه شعوراً يدعمه بكتاباته، لكنه ما يلبث أن يكتشف رجلاً يبعد عنه مئتي فرسخ يناقض ما كتب، لتعلن الحرب بدايتها. أيستطيع أن يأمل في كسب القليل من الاعتبار؟ ولعل أقصى ما يصبو إليه هو أن ينال تقدير أولئك الذين انكبوا على اختصاص العلم الذي يمارسه.

إنّ الفيلسوف يحتقر الرجل الذي يملك رأساً مثقلاً بالحقائق، والذي بدوره يمتاز بذاكرة قوية ويرى في الفيلسوف رجل أوهام. أما أولئك الذين يتخذون الجهل الأعمى سبيلاً، يودون للنوع الإنساني أن يكون في طي النسيان حيث سينتهون هم أيضاً.

إن الرجل الذي تنقصه الموهبة، يعوض ذلك بازدرائها: ويزيح العقبة التي تحول بين الجدارة وبينه، وهنا يجد نفسه بمستوى الشخص الذي كان يشعر بالرهبة من عمله.

أخيراً، يجب أن نقرن الشهرة المشكوك فيها بالحرمان من اللذات، وتقهقر الصحة.

من باريس في السادس والعشرين من شهر شعبان من عام 1720

الرسالة السادسة والأربعون بعد المئة[1]

من أوزبك إلى رضي في البندقية

منذ قديم الزمان، يقال بأنّ النزاهة هي روح الوزير الأعظم، وأيّ فرد يستطيع التمتع بالظلام الذي يحياه، لا يفعل ما يؤذي اعتباره سوى أمام رهط من الناس، ويلبث مستوراً أمام أغلبهم، أما الوزير الذي تنقصه النزاهة فلديه شهود وقضاة بعدد ما يحكمه من أفراد.

لا أعرف إن كان باستطاعتي التجرؤ على قول هذا لك: الشر الأكبر الذي يقوم به وزير لا يمتلك النزاهة، هو ليس أن يسيء إلى أميره أو يفني شعبه، بل هناك شيء أخطر من ذلك بألف مرة - برأيي - ألا وهو المثال السيئ الذي يقدمه للناس.

أنت تعرف أني جُبْتُ زمناً طويلاً بلاد الهند،[2] ورأيت فيها قوماً كرماء بطبيعتهم، وقد ضلّ في لحظة واحدة، من أبسط فرد فيه إلى أعظمه، بسبب القدوة السيئة التي تجسدت في الوزير. رأيت شعباً كاملاً عندهم من الكرم والعفة وسلامة النية والإيمان الصادق، وظلوا لزمن طويل على طبائعهم هذه، وفجأة أصبحوا أحط الشعوب، حيث تفشى الفساد، ولم ينجُ منه حتى

---

(1) هذه الرسالة هي الأجرأ، وهي أيضاً نقد لنظام (لو).

(2) الهند هنا هي فرنسا.

أطهر الناس، ومن هم ذوو فضيلة أصبحوا يقومون بأشياء شائنة ويتعدون على أسس العدالة بحجة واهية،[1] واغتصبوا العدالة من خلالها، وشرعوا قوانين كريهة لضمان أعمال دنيئة، وسَمُّوا الظلم والخيانة ضرورة.

رأيت أن الالتزام بالمواثيق ملغيّ، والعهود المقدسة قد فنت، وأهدرت كل القوانين الأسرية، ورأيت من يقرضون المال متعطشين إليه ويتباهون بفقرهم المدقع، كآلات غير جديرة بأن تقيم لها الشرائع قيمة، ولا قسوة الزمان تعبأ بهم، يتظاهرون بدفع الدين بدلاً من سداده، ويسلط الخنجر على صدر من يحسن إليه.

رأيت أنذالاً آخرين، يشترون بثمن بخس أو بالأحرى يجمعون من الأرض أوراق البلوط[2] لقاء شراء ممتلكات الأرامل واليتامى، ورأيت جشعاً لا يرويه ثراء ينشأ فجأة في كل القلوب، ومؤامرة كريهة تحاك في برهة للوصول إلى الثراء، لا علاقة لها بعمل شريف، ولا مهنة كريمة، وإنما هي لإفناء الأمير «الراجا»[3] والدولة والرعية.

رأيت مواطناً شريفاً في هذا الزمن التعيس لا ينام إلا قائلاً: هدمت كيان أسرة وسأهدم في الغد أخرى، وآخر يقول: سأذهب مع رجل أسود يحمل محبرة في يده، وقطعة حديدية مدببة في أذنه[4] لقتل كل من لديه عليّ دَيْن.

---

(1) نرى في مذكرات ماتيو ماريه أن رجل الدين يتردد بدفع الديون بطريقة شريفة.

(2) الأوراق أموال حكومية، مذكرات ماتيو ماريه.

(3) (الميزانجير ـ الراجا) أمير إقطاعي صاحب فندق قديم للمُلك، وهو رجل كريم النسب ومتعقل، عندما يجد فقيراً يتسول بجانبه يقول له: أنا نبيل فقير دمرني غبار الطاحونة الذي شب النار فيه، يجيبه: للأسف يا سيدي أنا نبيل فقير دمرتني طاحونة الأوراق، مما حال بي دون أن أكون معلماً لا يقوى إلا بالضحك.

(4) ريشة أو قلم.

وآخر يقول: أنا أدبر شؤوني، فعلى الرغم من أنني عندما ذهبت لتحصيل ديني منذ ثلاث أيام، تركت عائلة بأكملها تذرف الدموع، فقد أخذت مهر فتاتين طاهرتين ومصاريف تعليم غلام صغير، ومات الأب من الألم وهلكت الأم من الحزن، لكنني لم أفعل سوى ما سمح لي القانون به.[1]

أي جريمة أعظم من تلك التي يرتكبها الوزير، عندما يفسد أخلاق أمة قاطبة، ويفسد نفوساً كريمة، ويطفئ ضياء القيم، حتى يلغي الفضيلة، ويجعل أشراف الناس مدعاةً للازدراء العام؟[2] ماذا ستقول الأجيال عندما ستحمر وجوههم خجلاً من عار آبائهم؟ ماذا سيقول النشء عندما سيوازن حديد أجداده، والذهب الذي بين يديه الآن؟ ما من شك بأن النبلاء لن يتشبثوا في ديار هي دون مستوى النبلاء، ولن يتركوا الجيل الحاضر في العدم الفظيع الذي وضع نفسه فيه.

من باريس في الحادي عشر من رمضان من عام 1720

---

(1) أنا دفعت ورقة لا ثمن لها كنقود كان علي سدادها، مذكرات ماتيو ماريه.
(2) شاهد تاريخ (دوق القوة) لماريه.

الرسالة السابعة والأربعون بعد المئة

من كبير الخصيان إلى أوزبك في باريس

آلت الأمور إلى حالة لا يمكن احتمالها، فنساؤك تخيّلن أن رحيلك يدعهن في مأمن تام من القصاص، تجري هنا أشياء فظيعة، وترتعد فرائصي لهذه القصة القاسية التي سأقصها عليك: حينما كانت زيليس ذاهبة إلى المسجد منذ بضعة أيام تركت خمارها يسقط، فبدت مكشوفة الوجه تقريباً أمام جميع الناس، ووجدت زاكي نائمة مع إحدى جواريها، وهذا شيء تمنعه قوانين القصر، وقد فوجئت بأكبر حادثة في الدنيا، فهذه الرسالة التي أرسلها إليك لم أستطع إطلاقاً أن أكتشف من الذي أرسلها ولمن. مساء البارحة كان هناك غلام في حديقة القصر وقد نجا بالهرب من أسواره إضافة إلى ما أدركته، توصلت إلى أنك تتعرض بالتأكيد لخيانة، أنتظر أوامرك، وحتى اللحظة التي سأتلقى فيها الأوامر سأبقى في وضع مضْنٍ، لكن إن لم تضع كل هؤلاء النساء تحت سيطرتي، فلن أحمل مسؤولية أية واحدة منهن، بل ستصلك أخبار سوء أنبّئك بها أيضاً.

من قصر أصفهان في الأول من شهر رجب من عام 1717

الرسالة الثامنة والأربعون بعد المئة

من أوزبك إلى كبير الخصيان في قصر أصفهان

خذ بهذه الرسالة سلطة لا حدود لها على القصر أجمع، لقد منحتك سلطتي فتصرف بها كما لو كنت أنا، انشر الخوف والهلع من حولك آنى مشيت، ولتجب القصر من حجرة إلى حجرة حاملاً معك القصاص والعقاب، وليعش الكل في ذعر، وليغرقوا في الدموع أمامك. استجوب كل من في القصر، ابدأ بالعبيد ولا تستثنِ من أُحب، اجعل الكل خاضعاً لحكمك المرعب، واكشف الأسرار الدفينة، وطهر هذا المكان الدنس وأعد إليه الفضيلة التي غابت عنه، إذ إنني ومنذ هذه اللحظة سأحملك وزر أدنى الأخطاء التي سترتكب، أنا أشتبه بأن الرسالة التي اكتشفتها كانت موجهة إلى زيليس، ابحث في هذا الأمر بعيني نسر.

من... في الحادي عشر من شهر ذي الحجة من عام 1718

الرسالة التاسعة والأربعون بعد المئة

من نارسيت إلى أوزبك في باريس

لقد مات للتو كبير الخصيان يا سيدي العظيم، وقد أخذت مكانه بما أنني كبير عبيدك سناً، إلى أن تختار من ترتئيه مناسباً. بعد يومين من موته وصلتني رسالة من رسائلك التي وجهت إليه، تجنبت فتحها وغلفتها بعناية وخبأتها، إلى أن أعرف إرادتك العليّة.

جاءني البارحة عبد من العبيد في غَيْهَب الليل ليعلمني بأنه وجد شاباً في القصر، فنهضت لأبحث في الأمر وتبين لي أنه كان متوهماً.

أقبل قدميك يا سيدي العظيم، وأرجوك أن تعتمد على قدرتي وخبرتي وسِنِي عُمري.

من قصر أصفهان في الخامس من جمادى الأولى من عام 1718

الرسالة الخمسون بعد المئة

من أوزبك إلى نارسيت في قصر أصفهان

ما أتعسك! بين يديك الآن رسائل فحواها أوامر عاجلة وعنيفة، وأقل تأخير في تنفيذها سيجعلني محبطاً، وأنت ما زلت مطمئناً ومتعللاً بحجج واهية. أمور فظيعة تحدث، ونصف عبيدي يستحقون الموت، وها أنا أرسل إليك الرسالة التي كتبها إلي الخصي الأول بهذا الشأن قبل موته، ولو كنت قد فتحت مجموعة الرسائل التي وجهها إليك، لوجدت فيها أوامر دامية. اقرأها ونفذها وإن لم تفعل ستهلك.

من... في الخامس والعشرين من شهر شوال من عام 1718

الرسالة الحادية والخمسون بعد المئة

من سليم إلى أوزبك في باريس

إن لزِمْتُ الصمتَ أكثر من ذلك، سأكون مذنباً كسائر هؤلاء المجرمين الذين يقطنون في القصر، لقد كنت موضع ثقة كبير الخصيان، وأخلص عبيدك. وعندما أحس بدنو أجله، استدعاني وأسرّ لي بهذه الكلمات: «أنا أموت ولكن الحسرة الوحيدة التي تحرق قلبي وأنا أغادر هذه الحياة، هو أن نظراتي الأخيرة على نساء سيدي كشفت لي بأنهن مذنبات، فلتحفظه السماء من كل الويلات التي أتوقعها! ليت شبحي يظهر بعد موتي ليهددهن، وينبه هؤلاء الخائنات على واجباتهن، ويرعبهن أيضاً!»

هاك مفاتيح هذه الأماكن الرهيبة، مَرِّرها إلى أكبر السود سناً، لكن بعد موتي إن كانت تنقصه اليقظة التامة، نبّه سيدك». وما كاد ينتهي من قول هذا حتى لفظ روحه بين يدي.

عرفت أنه كان يكتب إليك، منذ مدة وقبل موته، عن مسلك نسائك. إنّ في القصر رسالة تثير الرعب إن فُضّت، رسالة مفاجئة كنت قد كتبتها وأنت على بعد ثلاثة فراسخ من هنا.

لا أعرف ما كل هذا الذي يحصل، وكل شيء يتجه إلى الأسوأ. عادت نسائك لا يلتزمن بالاحتجاز منذ موت الخصي الكبير، وبدا كل شيء مباحاً

لهن، روكسان بقيت ملتزمة بواجبها وتحافظ على احتشامها. إن الأخلاق تفسد يوماً إثر يوم، عادت الفضيلة المتينة والحازمة التي كان تسود فيما مضى غير بادية على وجوه نسائك. إن شكلاً جديداً من الفرح ينتشر في هذه الأمكنة، إنها بيّنة أكيدة برأيي على أن هناك شيئاً من الرضى الحديث العهد، وأنماطاً من الحرية لم نعهدها من قبل في صغائر الأمور، وساد تراخٍ بأداء الواجبات والتقيد بالقواعد المتبعة حتى بين عبيدك، مما أثار دهشتي، إذ عادت لا تكون لديهم هذه الحماسة الحَمِيّة لخدمتك، والتي اعتدناها حيّةً في كل أرجاء القصر.

بقيت نساؤك ثمانية أيام في الريف، في أحد بيوتك المهجورة أكثر من سواها، ويقال إن العبد الذي كان في خدمتهنّ قد أخذ نقوداً منهن، وخبأ قبل يوم واحد من وصولهن رجلين في خلوة بين الحجارة في جدار الغرفة الرئيسية، كانا يخرجان منها مساء عندما نفرغ من عملنا، والخصي العجوز الذي صار يرأسنا حينها كان أحمقَ، ويصدق كل ما يوهمنه به. إنني أستشيط غضباً ورغبة بالانتقام للكثير من الخيانات، وإذا أرادت السماء أن أخدمك خيراً وارتأيت بي كفئاً لإدارة القصر، فإنني أعدك إن لم تكن نساؤك فاضلات فسيكنّ مخلصاتٍ على أقل تقدير.

من قصر أصفهان في السادس من شهر ربيع الأول من عام 1719

الرسالة الثانية والخمسون بعد المئة

من نارسيت إلى أوزبك في باريس

رغبت روكسان وزيليس في الذهاب إلى الريف، واعتقدت أنه ينبغي لي ألا أرفض طلبهما، ما أسعدك يا أوزبك! لديك نساء فاضلات، وعبيد يقظون. إنني أسيطر على أماكن قد اختارتها الفضيلة مأوىً لها، ليكن في علمك أن ما من شيء سيحدث إلا وعيناك قادرة على تحمله. حصلت حادثة مشؤومة سببت لي ألماً شديداً، فقد وصل بعض التجار الأرمن منذ وقت قريب إلى أصفهان وكانوا يحملون إحدى رسائلك إلي وأرسلت أحد العبيد لجلبها. لكنه عُرّض للسرقة في طريق عودته فضاعتِ الرسالة. لذا اكتب إلي بسرعة، إذ أنني أتخيل في هذا الصدد تغييرات هامة في أمور ستكلفني بها.

من قصر فاطمة في السادس من شهر ربيع الأول من عام 1719

الرسالة الثالثة والخمسون بعد المئة

من أوزبك إلى سليم في قصر أصفهان

اضرب بيدٍ من حديد، وها أنا أعهد إليك الآن بأغلى ما لدي ألا وهو الانتقام، فتقلد مهمتك الجديدة ولا تحمل في قلبك شفقة ولا رحمة. أكتب لنسائي أن يُطِعْنك طاعةً عمياء، وفي فوضى ما اقترفن من جرائم كثيرة سيَكُنّ تحت سطوة ناظريك. أنا أُحِمّلك وزر سعادتي وراحتي فأَعِدْ إليّ قصري كما تركته، وابدأ بتطهيره،[1] عاقب المذنبين وأرْهِب من ينوي فعلها، وما الجزاء الذي تأمله من سيدك مقابل هذه الخدمات الجلية؟ لقد كان حريصاً على منحك مقاماً علياً، يرفعك فوق قدرك، ويكافئك بمكافآت لم تكن في حسبانك قط.

من باريس في الرابع من شهر شعبان من عام 1719

---

(1) التطهير: يأتي بمعناه، وهو مصطلح غير مستخدم وموجود في «روح الشرائع»، في الفصل الرابع والعشرين، في نهاية 18.

الرسالة الرابعة والخمسون بعد المئة

من أوزبك إلى نسائه في قصر أصفهان

لعل هذه الرسالة تسقط كالصاعقة في أثناء البروق والعواصف!

إنّ سليماً هو كبير خصيانكن ليس لحراستكن فقط بل لعقابكن، وليكن كل القصر تحت إمرته. وجب عليه أن يحكم على أفعالكن السابقة، وسيجعلكن في المستقبل تحيين تحت نير قسوة ستتحسرن فيها على حريتكن إذا لم تتحسرن على فضيلتكن.

من باريس في الرابع من شهر شعبان من عام 1719

الرسالة الخامسة والخمسون بعد المئة

من أوزبك إلى نصير في أصفهان

سعيد من يعرف قيمة الحياة الهادئة والهانئة، ويرتاح قلبهُ ضمن أسرته، ولا يعرف أرضاً أخرى غير التي ولدَ فيها!

أعيش في جو موحش، فيه كل ما يزعجني ويغيب عنه كلّ ما يعنيني، يتملكني حزنٌ عميق، وأغرق في إعياء مرعب، يبدو أنني أتلاشى، ولم أستعد ذاتي إلا عندما تشعلني الغيرة العمياء، لتخلق في روحي الخوف والشك والحقد والحسرة.

إنك تعرفني يا نصير، وترى على الدوام ما في قلبي كما ترى هو في قلبك، ستشفق علي إن عرفت حالي التي يرثى لها، أنتظر أحياناً ستة أشهر بأسرها لتصلني أخبار القصر، وأعدّ اللحظات التي تمر، ونفاد صبري يطيلها، وما أنتظره يثور في قلبي فجأة، وترتجف يداي وأنا أفضّ رسالةً مشؤومة. إن هذا القلق الذي يؤلمني أجده هو ذاته ما يسعدني، إذ بمقدوري أن أجد فيه نفسي، أنا أرتعب من فكرة الخروج منه بصدمة أقسى من الموت بألف مرة. إن هناك سبباً دعاني إلى الخروج من وطني، وعلى الرغم من حتمية قضائي ما بَقِي من حياتي في عزلتي، فإنني عدتُ لا أستطيع البقاء في هذا المنفى المُوحِش. أأموت بعد كل ما حسبته ضحيةً

لآلامي؟ ضغطت مراتٍ كثيرة على ريكا لترك هذه الأرض الأجنبية، لكنه يعارض كل قراراتي ويقيدني هنا بآلاف الحجج، يبدو أنه قد نسي وطنه، أو بالأحرى يبدو أنه نسيني شخصياً لدرجة أنه عاد لا يتأثر بما يؤلمني، يا لتعاستي! حتى إنني أتمنى رؤية وطني لتشتد تعاستي! ماذا سأفعل هناك؟ سأسلم رأسي لأعدائي وليس هذا كل شيء بل سأدخل القصر، وسينبغي لي أن أطلب تفاصيلَ عن الوقت المشؤوم أثناء غيابي. فكيف ستكون حالي إن وجدت فيه مجرمين؟ إن كانت مجرد الفكرة ترهقني وأنا على هذا البعد الشاسع، ما الذي عساه يحصل عندما أَحْضُر، ويعزز حضوري تلك الفكرة أكثر؟ وماذا سيحصل لو توجب عليّ أن أرى أو أصغي لما لا أجرؤ على تخيله دون أن أرتعد غضباً؟ ثم في النهاية ماذا سيكون إن توجبت العقوبات التي أقرها بنفسي دلائل أزلية على اضطرابي ويأسي؟

سأسجن في أسوارٍ رهيبة بالنسبة إليّ أكثر من النساء اللاتي حُبسن فيها، وسأحمل إليها كل شكوكي ومؤامراتهنّ التي لن يخفى عني شيءٌ منها، وسواء كنتُ في سريري أو بين أذرعهن، فلن أنال سوى مخاوفي، وستنفلت غَيْرتي، في وقتٍ ضيق جداً على التفكير.

أيتها الحثالة غير الجديرة بأن تكون لها علاقة بالطبيعة الإنسانية، أيها العبيد الأنذال الذين حُجبت قلوبهم للأبد عن مشاعر الحب، لن تتحسروا على حالكم إن عرفتم تعاسة حالي.

من باريس في الرابع من شهر شعبان من عام 1719

الرسالة السادسة والخمسون بعد المئة

من روكسان إلى أوزبك في باريس

الرعب والظلام المفزع يسود القصر، حزن مريع يكتنفه، ونمر هناك يصب في كل لحظة جام غضبه علينا، وقد عمد إلى تعذيب خصيين أبيضين لم يعترفا إلا ببراءتهما، وباع عدداً من عبيدنا وأجبرنا على تناوب من بقي منهم.

وتلقى كل من زاكي وزيليس في غرفتهم وفي حلكة الليل معاملة شائنة، ولم يخشَ هذا الفاجر وضع يديه الحقيرتين عليهما.

حبس كل واحدة منهما في حجرتها، ومع أننا كنا وحيدات، فرض علينا الحجاب، ومن غير المسموح لنا أن نتحادث، وقد عد من الجريمة أن نتبادل الرسائل فيما بيننا، واقتصرت حريتنا على البكاء.

مجموعة من الخصيان الجدد دخلوا القصر، وحاصرونا ليلاً نهاراً ويُقلقون نومنا المتقطع دائماً، بسبب شكوكهم. عزائي الوحيد أن هذه الآلام لن تدوم طويلاً، وأن هذه الآلام ستنتهي بانتهاء حياتي، ولن أعطيك الوقت أيها القاسي، أوزبك، لإنهائها.

من قصر أصفهان في الثاني من شهر محرم من عام 1720

الرسالة السابعة والخمسون بعد المئة

من زاكي إلى أوزبك في باريس

أيتها السماء! لقد أذلني متوحش بطريقة معاقبتي! عاقبني عقاباً بدأ بخدش حيائي، وعقاباً تردى بي إلى أشد الإذلال، عقاباً ردني حدّ الطفولة.

إن روحي التي قهرها الخزي بدءاً، استردت الإحساس بنفسها، وبدأت تتلوى من السخط. نَدَماً كانت صرخاتي تدوي في قباب الحجرات، وأنا أطلب الصفح من أنذل الناس، وأسأله الرحمة كلما زاد من قسوته. منذ هذا الوقت روحه الوقحة والقذرة ارتفعت فوق روحي، فحضوره ونظراته وألفاظه كلها مصائب أهلكتني. أعزي نفسي بذرف دمعي إذا ما خلوت إليها، ولكنه حالما يمثل أمام ناظري يتملكني جنون الغيظ الذي لا غاية ترجى منه، فأهوي في قاع اليأس.

تجرأ هذا النمر على البوح بأنك أنت المسؤول عن كل هذه الأعمال الوحشية، وبأنه يريد أن ينتزع حبي ويذل حتى أحاسيس قلبي، وعندما ينطق اسم من أحب، أعجز عن تحديد وجهة شكواي، وتقتصر رغبتي على الموت.

تحملت غيابك، وحفظت حبي بكل ما أوتيت من قوة، كانت الأيام والليالي واللحظات كلها لك، كنت رائعة بالحب، وحبك كان يعطيني

الاحترام في هذا القصر، أما الآن فليس بمقدوري بعد أن أتحمل الهوان الذي ترديت نحوه. وإن كنت بريئة فعد من أجل حبي، وإن كنت مذنبة فعد لأموت تحت قدميك.

من قصر أصفهان في الثاني من شهر محرم من عام 1720

الرسالة الثامنة والخمسون بعد المئة

من زيليس إلى أوزبك في باريس

على بعد ألف فرسخ حكمت بإدانتي! على بعد ألف فرسخ مني ترمي عليّ قصاصك! ونالت مني يدان قذرتان لخصي متوحش ينفذ أوامرك، إنّ الطاغية هو من أهانني وليس من مارس الطغيان.

بإمكانك تبعاً لأهوائك أن تضاعف معاملاتك السيئة، فقلبي مطمئن لأنه عاد لا يحبك، وروحك تنحط ونفسك تقسو، كن على ثقة أنك لن تعيش السعادة قط، وداعاً.

من قصر أصفهان في الثاني من شهر محرم من عام 1720

الرسالة التاسعة والخمسون بعد المئة

من سليم إلى أوزبك في باريس

سيدي العظيم إني لأرثي لحالك كما لحالي. لم يسقط على الإطلاق خادم وَفِيٌّ في يأس كريه كهذا الذي فيه أنا الآن. ها هي نوائبك ونوائبي، ولا أكتب لك عنها إلا وأنا مضطرب. أقسم لك بكل أنبياء السماء أنك ومنذ أن عهدت لي بنسائك وأنا أراقبهن ليلاً نهاراً، ولم يتوقف سيل مخاوفي أبداً للحظة واحدة، وقد بدأت مهمتي بالعقاب، ثم تركته دون أن أغير من طبيعة قسوتي.

لكن ماذا عساي أقول؟ لماذا التباهي هنا بوفاء الذي لا جدوى منه؟ فلْتَنْسَ كل خدماتي السابقة، ولتعتبرني خائناً، ولتعاقبني على كل الجرائم التي لم أستطع منع حدوثها.

روكسان، العظيمة، أيتها السماء! بمن نثق بعد الآن؟ كنت تشك في زاكي وتمنح الثقة العمياء لروكسان، لكن فضيلتها الشرسة كانت ادعاءً قاسياً وستاراً لخيانتها، إذ إنّي فوجئت بها بين ذراعي رجل ما إن رأيته حتى هجم نحوي وطعنني مرتين بخنجره، فهُرع الخصيان إلى مصدر الضجيج، حاصروه، لقد دافع عن نفسه لوقت طويل، وجرح العديد منهم، وقال بأنه يريد العودة إلى حجرتها ليموت هناك من أجل عيون روكسان، لكنه في النهاية استسلم لكثرتنا، وجثا تحت أقدامنا.

لا أعرف، يا سيدي العظيم، إن كان عليّ انتظار أوامرك الصارمة. لقد حمّلتني ثأرك ولا تراخي فيه أبداً.

من قصر أصفهان في الثامن من ربيع الأول من عام 1720

الرسالة الستون بعد المئة

من سليم إلى أوزبك في باريس

اتخذت قراراً، فمصائبك ستزول، سأعاقب المجرمين وفيّ شعور خفي مسبق بالسعادة، ستهدأ روحي وروحك، سنستأصل الجريمة وستخبو البراءة.

يبدوا أنهنّ مخلوقات يجهلن كل أحاسيسهن، وتنقمن على رغباتكن، وأنهن ضحايا أبدية للخجل والحياء. ليت باستطاعتي أن أدخلهن جميعاً إلى هذا القصر المشؤوم لأراهن مذعورات من كل الدماء التي ستراق هناك!

من قصر أصفهان في الثامن من شهر ربيع الأول من عام 1720

الرسالة الحادية والستون بعد المئة

من روكسان إلى أوزبك في باريس

نعم لقد خدعتك، وأغويت خصيانك، واستخففت بغيرتك، وعرفت كيف أحيل قصرك الكريه إلى حيز لملذاتي. سأموت، وسيجري السم في عروقي، فما الذي سأفعله هنا بعد الآن، والرجل الوحيد الذي يبقيني على قيد الحياة، عاد لا يفعل ذلك؟

أنا أنتهي لكن طيفي سيحلق ويرافقه الخير، وقد بعثت من قبلي أولئك الحراس الدنيئين، الذين أراقوا أطهر الدماء في العالم، إلى الموت.

كيف ظننت بأني ساذجة لأتخيل أنني لم أطأ في هذه الدنيا سوى من أجل إرضاء نزواتك، وفي حين تسمح لنفسك بكل شيء يمنحك الحق في كبت في رغباتي؟

استطعت العيش حرة وأنا في نير عبوديتك، وواءمت قوانينك مع قوانين الطبيعة، وارتدت روحي استقلالاً دائماً، كان عليك أن تعفو عني مقابل ما ضحيت به من أجلك، ومقابل ما انحدرت إليه كي أظهر وفائي لك، ومقابل ما حفظت في قلبي من جبن ما كان عليّ إظهاره لأي كائن على الأرض، وأخيراً مقابل ما أهدرته من فضيلة وأنا أعاني كي أجعل من خضوعي لأهوائك يُدْعَى فضيلة، وقد عجبت لكونك لم

تجد في نفسي لواعِجَ الحب، ولو أنك عرفتني جيداً لكنتَ وجدت فيها الحقد كله.

لقد تنعمت لفترة طويلة باعتقادك أن قلبي كان خاضعاً لك، وكنا كلينا سعيدَيْن، فبينما كنت تظن أنك تخدعني كنت ـ على العكس ـ أنا الذي تخدعك، هذه اللهجة تبدو جديدة عليك من دون شك، فكيف بإمكاني أن أجبرك على الإعجاب بشجاعتي بعدما كبدتك كل تلك الآلام؟ لكن حدث ما حدث، وسرى السم في جسدي وها هو يلتهمني، قواي تخور، والقلم يسقط من يدي، وأشعر بالضعف يسكنني حتى أصاب حقدي، أنا أموت.

من قصر أصفهان في الثامن من شهر ربيع الأول من عام1720